تاريخ العالم

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل: تاريخ العالم
اسم المؤلف: داڤد تومسن
ترجمة: رزان بشور
تصميم الغلاف: محمد مجاهد
الإخراج الداخلي: عمر أسامة
رقم الإيداع: ١٦٦٦٩ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٩٩٩-٣٨-٩

مسار للنشر و التوزيع
شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر
01020439639
massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق الخاصة بالتنسيق الداخلي، وتصميم غلاف هذا الكتاب، والترجمة الخاصة بدار مسار محفوظة، ولا يسمح بإعادة استخدامها دون الحصول على تصريح خطي من الناشر.
ملكية حقوق الطبع والنشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

تاريخ العالم

من 1914 إلى 1968

داڤد تومسن

مَسَارا
للنشر و التوزيع

إهداء

إلى ألان وروبرت.

تصدير

ظهر هذا الكتاب الصغير لأول مرة في مكتبة الجامعة الوطنية عام ١٩٥٤، كانت الغايةُ منه استكشافَ وضرب أمثلة من طرق جديدة يمكن أن تُكتب في تاريخ العالم الحديث. تم تحقيق هذه الغاية منذ ذلك الحين وتعزيزها بطرق مشجعة. بعد ترجمته إلى عدة لغات أخرى، حصل على انتشار في عدة بلدان طابقت مقاربته الخاصة للتاريخ المعاصر. لعدة أسباب، فإن دراسة التاريخ المعاصر أصبحت مطلوبة بازدياد في المدارس والجامعات البريطانية ولدى جمهور العامة: وكما نُوقش لاحقًا، لا يمكن دراسة التاريخ المعاصر إلا كتاريخ العالم. تم تعزيز مقاربته بقوة بعد عشر سنوات على يد البروفسور جيفري باراكلو في "مقدمة للتاريخ المعاصر) (لندن ١٩٦٤) وبأعمال معهد التاريخ المعاصر.

أخذ عام ١٩٥٠ أصلًا كتاريخ نهائي ملائم لكنه اعتباطي تمامًا، ولم يحاول الكِتاب دراسة أية تطورات بعد منتصف القرن العشرين. لم تستفد الطبعة الحالية من الإدراك المتأخر الذي بحثته الأحداثُ اللاحقة، لكنها استمرت بالتحليل حتى عام ١٠٦٨. لا يمكن الافتراض، بالطبع، أن الأنماط أو النزعات التي وُجدت عام ١٩٥٤قد استمرت منذ ذلك الحين وحسب: كانت ملمحًا أساسيًّا من القضايا العالمية منذ عام ١٩٤٥، بحيث إنها كانت

بمثابة مُشكِلٍ دائر بدل كونها أي نمط ثابت.

أتى هذا التقلب جزئيًا من التطورات السريعة في العلم والتكنولوجيا، حيث كان أكثرها إبهارًا في مجال أبحاث الفضاء وفي استخدام الكومبيوترات في الأبحاث والصناعة. بدأت حِقبة جديدة تمامًا في التاريخ، "عصر الفضاء"، مع تَمَكُّنِ الإنسان من التحرك في المدار حول الأرض أو السفر إلى الفضاء بين الكواكب والعودة بأمان إلى الأرض، وإجراء الأبحاث في الفضاء الخارجي. توضحت هذه الإمكانية بشكل دراماتيكي للمرة الأولى عام ١٩٦١ على يد رواد الفضاء من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، واستمرت التطورات بسرعة خلال ستينات القرن العشرين.

يجب شرح أن هذا الكتاب قد كُتب بناء على افتراضين أساسيين؛ أحدهما هو أن تاريخ العالم، في أية حِقبة، عليه الاهتمام فقط بتلك الأحداث، والحركات، والأشخاص، والأفكار التي كان لها أهمية في مسار "تاريخ العالم"، لذا فهو لا يهدف في أي جزء فيه إلى سرد مستمر لتاريخ أية دولة، أو حتى أية قارة، بين عامي ١٩١٤ و١٩٦٨. كانت أعمال أخرى قد فعلت هذا بالفعل على مجال أوسع وأكثر ملائمة، وقد قدمت في المقدمة أسبابًا لافتراض أنه في هذه الفترة خاصة مجموعة من التواريخ المنفصلة والمستمرة للقارات لن تشكل "تاريخ العالم". الافتراض الثاني هو أنه على مؤرخ العالَم، حتى في "عصر الفضاء" أن يُبقِيَ قدميه على الأرض.

في مكان ما بين العموميات الحكيمة بشأن ما حدث والتخمينات غير الآمنة إطلاقًا عن أسباب حدوثها، ربما تكون هناك مساحة للتعميم بشأن طريقة حدوثها. أخذتُ هذا على أنه ثاني اختبار صلة لديَّ. لكنني أعرف أنه ليس آمِنًا تمامًا وفي الصلة مع اختبار الصلة الأول لي قد أدى إلى استبعاد الكثير مما قد يتوقع القراء بشكل منطقي أن يجدوه في كتاب يحمل هذا العنوان. لا يمكنني سوى أن آمُل وأطلب أن يجد القراء النتيجة كما كنت أنوي أن تكون: على أنها تجربة في طريقة كتابة تاريخ العالم الحديث، ومثال قوي أكثر فائدة من مقالة أو كتاب تعليمات لقطعة تجمعها بنفسك.

لا يمكن تضمين خرائط بعدد ومقياس مناسب في كتاب من هذا النوع أو السعر. لكن العودة إلى أطالس جيدة خلال قراءته سيكون مفيدًا جدًّا في فَهم حُججه. بما أن الكتاب لن يحقق هدفه سوى إن شجع على مزيد من القراءة، فقد تم تضمين ملاحظة ببليوغرافية في نهاية الكتاب. تم ذكر امتنان المؤلف للكتب المذكورة، ولكتب أخرى كثيرة، بشكل حار.

كلية سيدني ساسكس، كامبريدج.

ديسمبر ١٩٦٨

مقدمة

ما هو "تاريخ العالم"؟

تحتاج محاولة للتعامل مع امتداد تاريخ العالم بين عامي ١٩١٤ و١٩٦٨، في كتاب صغير واحد، إلى بعض الشرح، وربما بعض التبرير. كان هذا ممكنًا؛ لأن مفهوم تاريخ العالم، كما يُطبَّق على القرن العشرين، له معنى محدد أكثر بكثير مما يمكن أن يكون له عندما يُطبَّق على أية فترة سابقة: وهذا ليس فقط؛ لأن القرن العشرين شهد حربين عالميتين.

حتى ما قبل مئتي عام، حتى أكثر الأحداث جَسامةً في أحد أجزاء العالم كانت لها تأثيرات بسيطة ونائية. حتى الثورات في التاريخ الأوروبي لم يكن لها أهمية إطلاقًا على تاريخ أستراليا، وتأثير بسيط على إفريقيا أو آسيا، وغالبًا كان لها تأثير غير مباشر على تاريخ أمريكا الشمالية والجنوبية. لم تكن أقدار القارات الستة متشابكة كما هي اليوم. حل عام ١٧٨٨ قبل أن تستقر أول مستوطنة إنكليزية في أستراليا، والعام ١٨٥٤ قبل أن يرغم الكومودور الأمريكي بيري اليابان على إنهاء قرنين لها من العزلة عن بقية العالم، ولم يحدث إلا خلال مئة السنة الأخيرة أن تغلغلت السلطة الأوروبية في إفريقيا إلى ما خلف الحدود والأشرطة الساحلية إلى الداخل الشاسع.

لذا من الطبيعي والملائم، حتى مؤخرًا، أن نعتبر أن تاريخ العالم مُؤلَّف من سرديات مختلفة لكل قارة. عدا عن التغلغل المتقطع للآسيويين في أوروبا، أو الأوربيين في شمال إفريقيا وأمريكا، كان تطور كل قارة قصة مختلفة. قد يكون لهذه الحالات المتقطعة، بحد ذاتها، عواقبُ كبيرة وبعيدة المدى: كما كان للغزوات البربرية على أوروبا، أو الغزوات الإسلامية على إسبانيا، أو الحملات الإسبانية في أمريكا الجنوبية. لكن حتى الأثر الإجمالي لهذه التحركات الهائلة لم يكن ليخلق تفاعلًا مستمرًا ودائمًا بين خطوط التطور في كل قارة. لم يحدث هذا التأثير إلا في القرنين الأخيرين من التاريخ الحديث: هما فقط شَكَّلا "تاريخ العالم". أحد ملامح التاريخ الحديث هو انتشار السلطة الأوروبية ونفوذها في جميع أرجاء العالم، والعواقب المتشعبة لهذا في كلا أوروبا والقارات الخمسة الأخرى. النتيجة اليوم هي عالم يكون فيه للحدث الهام في أي مكان في العالم أهمية بالنسبة إلى جميع الأجزاء الأخرى من العالم، خلال فترة قصيرة نسبيًّا: ويميل الزمن الذي يصبح فيه هذا هامًّا إلى أن يصبح أقصر. ثورة في روسيا تصبح مجالَ قلقٍ مباشر ودائم بالنسبة إلى بقية أصقاع الأرض، كساد اقتصادي في الولايات المتحدة يؤثر على معايير المعيشة ويهز الأنظمة السياسية لمعظم الأوروبيين في أوروبا، ويميل إلى أن ينتشر، إلى أن يتشابك مع كل شعب آخر على الأرض تقريبًا. لذا أصبح من الممكن بالنسبة إلى مؤرخ تاريخ العالم ألا يكتب تاريخ القارات بشكل

منفصل. لم يعد كافيًا بالنسبة إليه فعلًا أن يفعل هذا: عليه أن يعيد تعريف محتوى تاريخ العالم بالتحديد إن كان سيكتب بشكل أكثر كفاءة.

لا يكتب مؤرخ فرنسا أحداثًا تاريخية منفصلة عن بريتاني وبروفانس وبرغندي، وبقية المقاطعات الفرنسية، ثم يحاول جمعها معًا ليؤلف تاريخ فرنسا. لا يفعل أي مؤرخ هذا؛ لأن أفقه وموضوعه ومعياره عن الصلة والأهمية، ليست مختلفة بالضرورة ما إن كان يكتب تاريخ جزء أو تاريخ الكل. ينير تاريخ العالم والتاريخ المحلي بعضُهما البعض بشكل دقيق عادة. لكن مجموعة من الأحداث التاريخية المحلية لا يمكنها أن تؤلف تاريخًا قوميًا؛ لأن تاريخ أمة ما هو شيء مختلف عن مجرد دمج الأحداث التاريخية لكل أجزائه المتعددة.

بالشكل نفسه، فإن تاريخ كنيسةٍ ما أو نقابةِ حرفةٍ ما، ليست دمجًا للسير الذاتية لكل أعضائها. السير الذاتية لأعضاءِ نقابةٍ ما أو رجالِ كنيسةٍ ما ليست ذات صلة بتاريخ المؤسسات التي ينتمون إليها إلا إلى حد معين بحيث تترك أثرًا على التطور الإجمالي، طويل الأمد على المؤسسات.

بالطريقة ذاتها، فإن تاريخ المقاطعات والأقاليم تهم مؤرخ الأمة فقط عند تقاطعها بعضها ببعض لتشكل عنصرًا هامًّا في تطور الأمة ككل. ورغم أن مفهوم حتى التاريخ الأوروبي قد تطور بالكامل أقل مما كان من الممكن أن يفعل، فَهم منظم عادة، ضمنيًّا في الممارسة، إن لم يكن بشكل واضح نظريًّا

دومًا، بحيث إن مؤرخ أوروبا أقل اهتمامًا بتأليف تواريخ قومية منفصلة، مُنهِكة، من اهتمامه بفترات تفاعلها ودمجها في حركات وتطورات أكبر. إنه لا يتعامل مع التاريخ المستمر لسويسرا أو السويد أو هولندا، بل مع تلك الفترات في تاريخ تلك البلدان عندما قدمت مساهمة بشيء ما له أهمية عامة على المسار الأوسع للحضارة الأوروبية، أو عندما أصبحت مجال تركيز اهتمام عالمي لبلدان أخرى في أوروبا. إن تعامَل مع تاريخ فرنسا أو ألمانيا بشكل أكثر استمرارية، فهذا؛ لأن هذين البلدين قد تركا تأثيرًا أكثر استمرارية على المسار العام للتاريخ الأوروبي.

لكن تِقنية المؤرخ هذه المنظَّمة جيدًا لم تُطبَّق سوى مؤخرًا على تاريخ العالم. دُرست بلدان منفصلة، أو أقاليم جغرافية، أو إمبراطوريات، أو قارات، أو حضارات، وكُتبت تواريخها المنفصلة. ثم جُمعت هذه التواريخ من طرف إلى طرف، كما لو أنها تؤلف تاريخ العالم. تُضاف مصادر إسناد توافقية وفصول عن العلاقات العالمية، في محاولة عبثية لإكمال الصورة: عبثية؛ لأنه لا توجد صورة يجب إكمالُها. يجب إعادة تعريف مفهوم تاريخ العالم بحد ذاته، قبل التمكن من البدء بمحاولة أخرى أكثر جدوى لكتابته.

ما جعل مفهوم تاريخ العالم الأكثر تماسكًا ودقة ممكنًا ومرغوبًا في القرن الحالي هو الترابط العصري بين القارات. لكن مفهوم الترابط بين الدول هذا بدوره، يحتاج إلى تعريف أكثر عناية. كثيرٌ من الكُتَّاب في الجيل الأخير،

والأكثر بروزًا هو السيد إتش جي ويلز، حَثُّوا على تأسيس منظمة عالمية، سياسية واقتصادية، على أساس أن العالم اتحد بالفعل ماديًّا. في حماسهم إلى دمج العالم، فهم يبالغون عادة في الدرجة التي تترابط بها شعوب العالم، حتى الآن. قوة القوى الانعزالية والمطالبة بالاكتفاء الذاتي والانفصالية كانت على الأقل ملمحًا مماثلًا من تاريخ العالم خلال السنوات الخمسين الأخيرة كما كان نمو التعاون الترابطي، ووسط المزيد من الجهود المثابرة مما كانت عليه من قبل لتحقيق النظام والانسجام العالميين، فإن القوى الانفصالية قد غَزَتْ حقولًا جديدةً في آسيا وإفريقيا، وبقايا أقوى قوى سياسية تعمل في العالم الحديث. هذه الحقائق التي لا يمكن نكرانها مقلقةٌ كفاية ضد قبول التوحيد المتطور للعالم، كصيغة متفائلة عن التاريخ العصري. قد يرى أحفادنا، عند إعادة النظر، تفسيرًا مُبَطَّنًا للظواهر التي لا نراها حاليًّا سوى نزاعات لا يمكن كبحُها. قد يصلون إلى اعتبار أنَّ كُلًّا من قومية الاكتفاء الذاتي والتعاون المترابط ظاهرتان متساويتان لحنين مبطَّن إلى الأمن القومي أو الفردي.

نستطيع على الأقل أن نرى أنه، مهما كانت العواقب النهائية، فقد وصلنا إلى حالة وهي جديدة في تاريخ العالم. جوهرها هو أنه، للمرة الأولى، فإن قارات العالم الستة مهمة حقًّا بالنسبة إلى بعضها البعض؛ لأنه على الأقل إن كان الحصاد سيئًا أو الكساد الاقتصادي في أي منها فسيؤثر على جميع القارات الأخرى، الثورات السياسية أو المثل العملية في أي منها لها تأثير

مباشر وعميق على جميع القارات الأخرى، وبداية الحرب في أي مكان يمكن أن تتحول إلى حرب تحدث في كل مكان. بهذا المعنى فهي مترابطة كما لم تكن يومًا. إنه ترابط بهذا المعنى، هذا التأثير الدائم لأحد أجزاء العالم على جميع الأجزاء الأخرى، وهو الموضوع المركزي لتاريخ العالم خلال السنوات الخمسين الأخيرة. شَرْحُ كيف حدث هذا، ماذا كانت تظاهراته الرئيسية، وما كانت حتى الآن العواقب الكبرى على الجنس البشري، ستكون مهمة المؤرخ لتاريخ العالم الأساسية منذ عام ١٩١٤. إنها المهمة التي يحاول هذا الكتاب الصغير أداءها مبدئيًّا ومؤقتًا.

إن تم قبول هذا كموضوع مركزي والمعيار الرئيسي للاختيار والصلة لمؤرخ تاريخ العالم منذ عام ١٩١٤، فإن التاريخ الذي يكتبه يجب أن يشابه خرائط تيارات المحيط التي تُظهِر تدفق الحركة بين القارات، بدلًا من تلك التي تُظهِر فقط الملامح المادية للقارات المنفصلة. يجب أن يهتم بالتحول في الظروف المادية الذي حلَّ بسبب التطورات في العلم والتكنولوجيا، والتنظيم الاقتصادي والاجتماعي، والتجارة والاستثمار العالميين. يجب أن يحاول وصف وتحليل هذا التحول بحيث يُظهِر أهميته على مدى العالم، وعلاقته بالتغيرات السياسية والثقافية. إن تِقنيات وتنظيمات الحرب الحديثة لها مكانها في هذا التحليل؛ لأن الفترة المَعنِية تشمل حربين عالميتين: في الواقع إنهما تَلُوحان في الأفق بشكل كبير في القصة بأكملها لدرجة يكاد أن يكون

من المحتَّم أن يُنظَر على هذه الفترة على أنها تقع في مراحل ما قبل الحرب، والحرب، وما بعد الحرب. وبشكل مشابه يجب أن يدرس العلاقات الدولية على أنها ناحية مهمة من هذا التحول. إن تاريخ الحرب والسلم، والترتيبات الدبلوماسية، والهجرة الدولية وعبر القارات، والتجارة والاستثمار، والمنظمات المصممة لتسهيل التعاون الدولي، كلها جزء من نفس القصة المعقدة.

يجب عليه ثانيًا أن يهتم بتلك الحركات العامة للأفكار والمشاعر الإنسانية التي على الرغم من أنها تأخذ لونًا محليًّا في نواحي مختلفة من العالم، إلا أنها دولية وفوق وطنية في معناها وأهميتها. وانتشرت حركاتٌ مثل القومية والاشتراكية، التي نشأت في الأساس قبل عام ١٩١٤ بوقت طويل، إلى مناطق جديدة من العالم منذ عام ١٩١٤ وخاصة في آسيا وإفريقيا. وقد تغيرت في طابَعِها أثناء هذا الانتشار. وتغلغلت الشيوعية والفاشية، بأشكال مختلفة، في أوروبا وأجزاء من آسيا وإفريقيا وأميركا. وأصبحت المثل العليا للأمن الاجتماعي، والديمقراطية الاقتصادية، ورخاء الدولة، مفاهيم ذات أهمية عالمية.

يجب عليه ثالثًا أن يهتم بأولئك الأشخاص الذين أصبحوا حسب العبارة الشائعة "شخصيات عالمية" من أمثال: لينين وغاندي، ووردرو ويلسون وفرانكلين روزفلت، فرويد وآينشتاين، بيرغسون وروثرفورد، كينز

وبيفيردج. هؤلاء الرجال وأفكارهم وإنجازاتهم لديهم مكانهم في القصة بأكملها التي تتجاوز بكثير جذورَهم في تراب وطنهم. وحتى الشخصيات العالمية التي ماتت قبل زمن طويل لها مكانها أيضًا إذا كان تأثيرها لا يزال قوة حية وفعَّالة في صياغة تاريخ العالم. إن المسيح ومحمد، ماركس وداروين لهم صلة مباشِرة؛ لأن أناجيلهم وأفكارهم تحدد العلاقات بين الناس والشعوب في يومنا الحاضر.

وأخيرًا، وقبل كل شيء، يجب أن يهتم بالأحداث التي وقعت منذ عام ١٩١٤، والتي تُسلط الضوء بشكل خاص على التفاعلات والعلاقات المتبادلة بين كل هذه القوى الأخرى. إن أحداث الحربين العالميتين، والعملية التي انهارت بها عصبة الأمم باعتبارها منظمة عالمية والتي من خلالها انقسم العالم بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأميركية بعد عام ١٩٤٥، وكيف أصبح أقل استبدادًا في الستينات، وإسقاط القنبلة الذرية وسباق الفضاء، جميعها أجزاء لا تتجزأ من قصة واحدة.

إن هذه الاهتمامات الكبرى الرئيسية- والظروف العالمية، والأفكار والمشاعر، والشخصيات المؤثرة، والأحداث الكبيرة- هي إلى حد ما الفئات الأساسية لكل تحليل تاريخي، وفي عملية تفاعلها يكمُن سِرُّ التغيرات التاريخية. وفي هذا الصدد فإن أسلوب مؤرخ العالم لا يختلف كليًّا عن أسلوب المؤرخين الآخرين. فهو يطبق تِقنيات مألوفة لدى المؤرخ الحديث

على نطاق عالمي، وعليه أن يُذَكِّرَ نفسه أن العالم بسبب كونه كُرويًّا فليس له أطراف. إن التركيز في قصته ليس على هذه الدولة أو القارة أو تلك، بل على "الكرة الأرضية العظيمة نفسها".

إن التطورات التي وقعت في السنوات بين ١٩١٤ و١٩٦٨، التي يهتم بها هذا الكتاب، تعود إذًا إلى مرحلة في التاريخ عندما كان هذا المفهوم لتاريخ العالم قابلًا للتطبيق بشكل كامل. إن دراسة تاريخ هذه السنوات يعني دراسة المرحلة الأكثر تطورًا لنمو الاعتماد المتبادل. لكن دراسة التاريخ المعاصر هي في حد ذاتها عرضة لصعوبات معينة. مسلوبًا من التأكيدات المعتادة لبصيرة المؤرخ، ومعرفة ماذا حدث في الواقع بعد ذلك، فإنَّ طالِبَ التاريخِ المعاصر عرضةٌ لإيجاد الأمر أكثر صعوبة من المعتاد من رؤية الخشب للأشجار. ليست الصعوبة، كما يُفترض عمومًا، بأن المؤرخ المعاصر يعاني من ندرة المواد أو المعرفة الحقيقية. إن عائقه هو العكس- هو غزارة المواد التي عليه أن يتعامل معها والتي تتجاوز مقدرات أي فرد أو خبير. فليس من الصحيح أننا "لا نعرف الكثير عن الأحداث الحالية". إننا نعرف عن معركة بريطانيا أكثر بكثير من معرفتنا عن معركة الهاستينغ. تكمن الصعوبة في أنه بالنسبة لمؤرخ معركة الهاستينغ، أن الأدلة قَلَّتْ بشكل اعتباطي في كَمِّيتها بعامل الزمن، بينما الأدلة حول معركة بريطانيا بقيت كثيرة جدًّا وبالتالي غير متأثرة بعامل الزمن لدرجة أن مؤرخها يجب أن يجد لنفسه مبدأ للاختيار

والاختصار الذي يمكنه من تقليصها إلى أجزاء سهلة المناولة. من الصعب رؤية، كما يقترح غالبًا، لماذا يجب أن تكون النتيجة أقل موضوعية أو أقل دقة من نتيجة أبحاث مؤرخي العصور الوسطى. إن القصة المبنية من قِبل المؤرخ المعاصر الحريص، هي في الواقع أقل احتمالًا لتتغير جوهريًّا باكتشاف حقائق غير معروفة حتى الآن مما لدى مؤرخ القرون الوسطى. فهو يتمتع بوسائل أكثر ثراء للتحقق من كل تصريحاته مقارنة بزميله من العصور الوسطى، بل قد يتوقع منه أن يبني قصة أكثر صلابة واستدامة.

لكن الصعوبة الرئيسية التي يواجهها المؤرخ المعاصر هي ضمان بعض الموضوعية والانطباع، وقدر مناسب من تفسيره لموضوعه. وهنا قد يكون لدارس تاريخ العالم، بالمعنى الموصوف أعلاه، مساهمةٌ قيِّمةٌ بشكل خاص في دراسة التاريخ المعاصر. وتأتي التشوهات الرئيسية للتاريخ المعاصر من قصر القومية. فجميع المؤرخين القوميين، من وجهة نظر تاريخ العالم، عرضة لضيق الأفق. فقط؛ لأن القومية تبقى إحدى أقوى القوى في العالم الحديث، فإنه يكاد يكون من المستحيل بالنسبة إلى المؤرخ المعاصر أن يهرب من ضيق أفقها المثبِّط. لكن قد يكون من المتوقع أنه كلما سعى جاهدًا إلى النظر إلى كل التاريخ الوطني من وجهة نظر دولية وفوق الوطنية، كلما تمكن من تحرير نفسه من مثل هذه التشوهات. وبهذا المعنى يمكن القول: إن دراسة تاريخ العالم هي المرافق الضروري لدراسة التاريخ المعاصر. ولا يقتصر الأمر على

أن التاريخ الحقيقي للعالم هو بالضرورة تاريخ حديث، بل إنه أيضًا لا يمكن دراسة التاريخ الحديث بشكل كافٍ إلا باعتباره تاريخًا عالميًّا.

إن الحقيقتين الكامنتين وراء الكلمتين المترابطتين "القومية" و"الاشتراكية"، اللتين استُخدِمتا في عدة نقاط من الكتاب، من الأسهل وصفها أو تمييزها من تحديدها. لكن يجب أن نضيف أن الدولة تعني مجتمعًا من الناس يأتي إحساسهم من الانتماء معًا إلى إيمانهم بأن لديهم وطنًا مشتركًا ومن مشاركتهم تقاليد وتطور تاريخ مشترك: بينما تعني القومية عادة الرغبة بهذا المجتمع للتأكيد على وحدته واستقلاله عن المجتمعات أو المجموعات الأخرى. وتم فَهم الاشتراكية، على الرغم من تنوع استخداماتها، على أنها تعني الإيمان بأن المجتمع الإنساني يجب أن يكون منظمًا بحيث تخدم أنماط إنتاج وتوزيع الثروة الاحتياجات الأساسية لجميع أفراد المجتمع قبل أن يتم إشباع الحاجات الثانوية لأي فرد. وبالتالي هي تختلف جوهريًّا عن الاشتراكية، التي في جميع أشكالها المعاصرة (الماركسية، واللينينية، والستالينية، والتروتسكانية، ونظريات ماو تسي تونغ) تسعى أولًا إلى "تصفية البرجوازية" بوسائل ثورية وبالتالية وسائل عنيفة؛ أي أنها تُنكر حتى الاحتياجات الأساسية لأفراد المجتمع الذين يمكن للحزب الحاكم أن يُلصِق عليهم لقب "البرجوازيين". لم يتم استخدام كلمة "القومية" ولا كلمة "الاشتراكية" كمصطلح استحسان أو شتيمة، وإنما ببساطة كمصطلحين وصفيين لظاهرتين مهمتين لا يمكن

إنكارهما في العالم الحديث. كما لا يمكن أيضًا، في ضوء أحداث القرن العشرين، اعتبار هاتين الظاهرتين حليفتين بطبيعتيهما أو عدوتين بالضرورة. ويبدو أن نتيجة تعايشهما تحددها بكل أساسي ظروف أخرى.

١

مشهد العالم في عام ١٩١٤

١- الوضع السياسي:

يتكون سطحُ الأرض من أكثر من ٥٥ مليون ميل مربع من اليابسة وأكثر من ١٤١ مليون ميل مربع من المياه. في عام ١٩١٤ كان عدد سكان العالم على الأرجح حوالي ١,٨٠٠ مليون نسمة. يعيش ربع هذا العدد في أوروبا ونصف آسيا: وبالتالي فإن مركز ثقل البشرية يقع في أوروسيا. في عام ١٩١٤ كان الكومنولث البريطاني[١] يغطي ربع مساحة الأرض ويضم ربع البشرية. لكن لم يكن السكان موزعين بشكل متساوٍ، وبالمقارنة مع تمركز السكان في أوراسيا فقد كان عددهم هامشيًّا. كان معظمهم يعيشون في الفعل في المناطق ذات الكثافة السكانية العالية من الهند والجزر البريطانية، لكنَّ الباقين كانوا مبعثرين في إفريقيا وكندا وأستراليا والعديد من الجزر الصغيرة والبؤر الاستيطانية. من خلال قوته البحرية سيطر الكومنولث على معظم البحار، وبسبب طابعها الهامشي كانت هذه القوة مصيرية بالنسبة لبنيته الاقتصادية

١ سيكون من الأصح من الناحية الفنية الحديث عن "الإمبراطورية البريطانية" قبل عام ١٩٢٢، ثم عن "الكومنولث والإمبراطورية البريطانية" حتى عام ١٩٤٧، ومنذ ذلك الحين عن "كومنولث الأمم". لتجنب الحماقة والارتباك، تم استخدام كلمتي "الكومنولث البريطاني" أو "الكومنولث" طوال الوقت.

والسياسية بأكملها. كما أنها كانت تملك حوالي نصف حمولة العالم من السفن التجارية. هذا التوزيع الإقليمي والديموغرافي للكومنولث بالإضافة إلى قوته البحرية والتجارية، يجعله أحد الروابط الرئيسية بين القارات الست، وربما العامل الأكبر الذي يحدد ترابطها السياسي. في عام ١٩٥٠ كان لا يزال القوة الوحيدة عبر القارات في العالم، لكن ذلك لم يعد صحيحًا في عام ١٩٦٨، على الرغم من أن أعضاءه لا يزالون يَشغَلون حوالي ربع مساحة الأرض، وعدد سكانه لا يقل كثيرًا عن ربع إجمالي سكان العالم.

كانت أراضي الكومنولث عندئذ كما هي الآن، تقع في الغالب في مجموعتين: تلك التي تقع على حدود شواطئ شمال المحيط الأطلسي وتلك التي تحيط بالمحيط الهندي. وكانت الاستثناءات الرئيسية هي أراضي غرب إفريقيا على شواطئ جنوب المحيط الأطلسي، وبؤر استيطانية صغيرة لكنها مهمة مثل جبل طارق، ومالطا، وقبرص في البحر الأبيض المتوسط، وغيرها مثل هونغ كونغ وسنغافورة في الشرق الأقصى. لذلك تمكنت القوة البحرية البريطانية من التمركز بشكل رئيسي في شمال الأطلسي والمحيط الهندي، واستخدام الجزر والقواعد المتوسطة بين مناطق التمركز هذه. لكن دبلوماسيًّا كانت بريطانيا مهتمة حتمًا بأي حدث سياسي مهم في أي مكان من أوروبا، وإفريقيا، وشمال أميركا، والمحيط الهندي، والشرق الأقصى. ولهذا السبب وجدت نفسها بحلول عام ١٩١٤ بحالة منافسة حادة مع ألمانيا التي

كانت تتحدى تفوقها البحري في المحيط الأطلسي وبحر الشمال، وبتفاهم وثيق مع فرنسا منذ عام ١٩٠٤ بشأن شمال إفريقيا والبحر الأبيض المتوسط وبحر الشمال، وبحالة تحالف مع اليابان منذ عام ١٩٠٢، ومع روسيا منذ عام ١٩٠٧. وبما أن فرنسا وروسيا كانتا منذ عام ١٨٩٤ متحالفتين ضد هجوم محتمل من قبل ألمانيا وحلفائها، وجدت بريطانيا نفسها شريكة في "الاتفاق الثلاثي" ضد تهديد مشترك من قبل ألمانيا. ونظرًا لأنها آمنة في الشرق الأقصى بسبب اتفاقياتها مع اليابان وروسيا، تمكنت من تركيز اهتمامها الرئيسي على أوروبا ومعظم قوتها البحرية في مياه شمال الأطلسي وبحر الشمال.

في أي دراسة لمشهد العالم في عام ١٩١٤، من الضروري وضع الكومنولث البريطاني في الصدارة؛ وذلك لأنه ببساطة القوة الكبرى وبالتأكيد الأكثر انتشارًا على مستوى العالم. كما كان أيضًا المنتج الأكثر بروزًا والأكثر نجاحًا لمرحلة من تاريخ العالم كانت على وشك الانتهاء: مرحلة التوسع الاستعماري للقوى الأوروبية. لقد وصلت هذه المرحلة إلى نهايتها مع التقسيم النهائي لإفريقيا، وتميزت بإنشاء اتحاد جنوب إفريقيا باعتباره منطقة سيادة للكومنولث البريطاني في عام ١٩١٠. وفي أثناء التزاحم إلى إفريقيا دخلت بريطانيا في منافسة مع معظم جيرانها من دول أوروبا الغربية، لكن بحلول عام ١٩١٤ كانت المنافسات الاستعمارية من هذا النوع تنحسر. منذ عام ١٩٠٤ توصلت بريطانيا إلى اتفاق مع منافستها الاستعمارية الرئيسية

فرنسا، من خلال موافقتها على الهيمنة الفرنسية على المغرب مقابل الاعتراف الفرنسي بالهيمنة البريطانية على مصر وعلى السودان الأنجلو-مصرية. تقع المستعمرات الفرنسية والبريطانية في إفريقيا جنبًا إلى جنب، وقد تم ترسيم الحدود بينها بشكل قاطع. تغطي إفريقيا الفرنسية منطقة تبلغ مساحتها أكثر من أربعة ملايين ميل مربع، مع حوالي ٣٠ مليونًا من السكان. وضمت معظم شواطئ إفريقيا الشمالية (تونس، والجزائر، بالإضافة على سيطرتها على المغرب)، وإفريقيا الغربية الفرنسية والكونغو. بينما ضمت إفريقيا الغربية البريطانية غامبيا، وسيراليون، وجولد كوست، ونيجيريا. وكانت تتخلل المستعمرات الفرنسية والبريطانية هذه مستعمرات الدول البحرية الأخرى من أوروبا الغربية. فقد سيطرت البرتغال على منطقة ساحلية صغيرة من غينيا ومساحة كبيرة من أنغولا. وسيطرت إسبانيا على جزء من المغرب وريو دي أورو في غرب إفريقيا بالإضافة إلى جزر الكناري. واحتلت بلجيكا المنطقة الداخلية الشاسعة من الكونغو التي ضمتها في عام ١٩٠٧. واحتلت ألمانيا الكاميرون، وتوغولاند وجنوب غرب إفريقيا. واستعادت إيطاليا ليبيا من تركيا في عام ١٩١٢. بهذه الطريقة تم تقسيم سواحل البحر الأبيض المتوسط وسواحل إفريقيا الغربية بأكملها، مع مناطقها النائية، بين الدول البحرية في أوروبا الغربية.

هكذا كان الوضع على الشواطئ الشرقية للمحيط الأطلسي. لكن ماذا

عن شواطئه الغربية؟ هناك كان مبدأ مونرو للولايات المتحدة الذي دام حوالي قرن والذي كان يهدف إلى حماية القارة الأميركية من تدخل مماثل للقوى الأوروبية في الشؤون الأميركية. لقد أدى تقسيم إفريقيا، الذي حدث بشكل رئيسي خلال الجيل الذي سبق عام ١٩١٤، إلى تعزيز تصميم الولايات المتحدة على منع العالم القديم من الإخلال بتوازن العالم الجديد. فقد توطدت بريطانيا بثبات في كندا، وفي جزر الهند الغربية البريطانية، وفي الهندوراس البريطانية في أميركا الوسطى، وفي غويانا البريطانية في جنوب أميركا. وكذلك استولى الفرنسيون أيضًا على جزء من غويانا، وبعض الجزر الصغيرة في شمال الأطلسي مثل سان بيير وميكلون. لكن منذ عام ١٨٩٨ لم يعد للقوى الأوروبية الأخرى مَوطِئَ قدم في أميركا. في ذلك العام منحتِ الحربُ مع فرنسا الولاياتِ المتحدة قدرًا كبيرًا من السيطرة على منطقة البحر الكاريبي. وبقيت جزيرة كوبا، حتى بعد منحها الاستقلال الرسمي في عام ١٩٠١، تحت حماية الولايات المتحدة. وتم وضع بورتوريكو تحت السيطرة المباشرة. وأرسل الرئيس ثيودور روزفلت وخلفاؤه قوات أميركية أو سفن حربية إلى سانتو دومينغو، وهايتي، وكولومبيا، والمكسيك، ونيكارغوا لسحق الثورات والسيطرة على الموارد المالية، أو للحفاظ على حكومة ما مواتية لمصالح الولايات المتحدة. انعقد المؤتمر الأميركي الأول في واشنطن عام ١٨٨٩ ونشأ منه اتحاد بان أميركان الذي عُقد ثلاث مؤتمرات أخرى بين

عامي ١٩٠١ و ١٩١٠. وعندما اندلعت الحرب العالمية، انخرطت قوات الولايات المتحدة في المكسيك، للإطاحة بالحكومة الثورية وتأكيد المصالح الأميركية، ولم تنسحب بشكل نهائي حتى عام ١٩١٦.

بهذه الطريقة كان اتجاه الأحداث السياسية بحلول عام ١٩١٤ في المحيد الأطلسي نحو إحكام قبضة دول أوروبا الغربية على الشواطئ الشرقية للمحيط الأطلسي، لكن استبعادها من أي تأثير جدي على الشواطئ الغربية واستبدالها في أميركا الجنوبية بالولايات المتحدة باعتبارها صاحبة النفوذ السائد. كان الاستثناء الوحيد الكبير هو السيادة البريطانية على كندا. هنا كان هناك اتجاه قوي لتأكيد الاستقلال الكندي عن بريطانيا وكذلك عن الولايات المتحدة. في ظل وزارة برئاسة السير روبرت بوردن، حتى أكثر مما كانت عليه في ظل سلفه الليبرالي لورير، اتخذت القومية الكندية شكلًا سياسيًّا متمثلًا في الجمع بين الولاء للكومنولث والتأكيد القوي على الحق في صياغة أي سياسة خارجية قد تشمل القوات الكندية. لقد خشي الكنديون أن تميل بريطانيا إلى التضحية بالمصالح الكندية كي تكسب دعم الولايات المتحدة. أثار هذه المخاوف التعامل البريطاني مع النزاع الحدودي في ألاسكا لعام ١٩٠٣ عندما تم ترسيخ الحدود لصالح الولايات المتحدة بشكل رئيسي. منذ ذلك السلوك التعيس والهستيري للرئيس كليفلاند تجاه نزاع بريطانيا مع فنزويلا في عام ١٨٩٥، كانت السياسة البريطانية تهدف إلى

التوفيق بين مصالح الدولتين الرئيسيتين في شمال الأطلسي. وفي هذه المناسبة أثار نزاع صغير حول الحدود بين غويانا البريطانية وفنزويلا تأكيدًا مثيرًا لمبدأ مونرو الذي دفع بريطانيا والولايات المتحدة لبضعة أسابيع إلى حافة الحرب. لقد صفت هذه القضية الأجواء بين البلدين، وزادت من احترامهما المتبادل، وفتحت أعينهما على أخطار العناد من كلا الجانبين. ومنذ عام ١٩٠٦ تم إعادة توزيع البحرية البريطانية في ثلاثة أساطيل رئيسية، في شرق المحيط الأطلسي، والقناة، والبحر الأبيض المتوسط[٢]. وتم سحب الأسطول المتمركز حتى الآن في بورما لتغطية جزر الهند الغربية البريطانية. وهذا ما ترك الولايات المتحدة بسيطرة حرة في منطقة البحر الكاريبي، وشهدت هدنة لأي منافسة بحرية بين بريطانيا والولايات المتحدة.

في الميدان الرئيسي الآخر للمصالح البريطانية، أي المحيط الهندي، كان هناك تمازج مماثل للأراضي الاستعمارية للقوى البحرية الأوروبية. ففي شرق إفريقيا، كما في الغرب، قاموا بتقسيم الساحل. فكان هناك صومال إيطالي، وصومال فرنسي، وصومال بريطاني: شرق إفريقيا برتغالي، وشرق إفريقيا ألماني، وشرق إفريقيا بريطاني. علاوة على ذلك، احتلت إيطاليا إريتريا، واحتلت فرنسا جزيرة مدغشقر، واحتلت بريطانيا روديسيا وأوغندا. الدول

٢ في غضون السنوات القليلة التالية، أدت الترتيبات البحرية مع فرنسا إلى تركيز الالتزامات البريطانية في بحر الشمال والقناة، مقابل التعاون الفرنسي في الدفاع البحري عن البحر الأبيض المتوسط.

الوحيدة المتبقية في قارة إفريقيا بأكملها التي تتمتع بأي قدر من الاستقلال، باستثناء اتحاد جنوب إفريقيا، كانت مصر، والحبشة وليبيريا. على الشواطئ الشمالية للمحيط الهندي تقع الأراضي البريطانية الشاسعة من الهند وبورما بالإضافة إلى جزيرة سيلان. وعلى الشواطئ الشرقية تقع ولايات مالايو الموحدة، مع وجود القاعدة البحرية الرئيسية في سنغافورة باعتبارها حلقة الوصل الحيوية لبريطانيا بين المحيط الهندي والمحيط الهادئ، وسلسة جزر الهند الشرقية الهولندية الغنية حتى جنوب أستراليا. هنا لم تمارس حتى الآن الولايات المتحدة أي تأثير مباشر ولم تسيطر على أي أرض. فقد كانت معظم الجزر الصغيرة المتعددة المبعثرة في المحيط الهندي تحت السيطرة البريطانية. حتى إنه كان بحرًا بريطانيًّا بشكل أكثر وضوحًا من شرق المحيط الأطلسي. وكان المهاجرون الرئيسيون ضمن شواطئه من الهنود. فبعد إلغاء العبودية داخل الإمبراطورية البريطانية في عام ١٨٣٣، زاد الطلب على العمالة في المناطق الاستوائية، مما أدى إلى هجرة الهنود بموجب عقود. انتهى هذا النظام بحلول عام ١٩١٤، لكن العديد من الهنود بقوا في بلدانهم المعتمدة مثل موريتيوس أو اتحاد جنوب إفريقيا.

كانت الروابط بين المحيطين الأطلسي والهندي باعتبارهما منطقتين توأمتين للمصالح والنفوذ البريطاني، من إحدى النواحي الطريق البحري الطويل حول رأس الرجاء الصالح الذي كان أيضًا في أيدي البريطانيين، ومن ناحية

أخرى، منذ إنشاء قناة السويس عام ١٨٦٣ أصبح هناك طريق أقصر بكثير عبر البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر. بوجود جبل طارق ومالطا تحت السيطرة البريطانية وإضافة جزيرة قبرص إليهما منذ عام ١٨٧٨، واحتلال عدن منذ عام ١٨٣٩، وحصة كبيرة من السيطرة على قناة السويس منذ عام ١٨٧٥، بدت العلاقات بين بريطانيا والمحيط الهندي مضمونة. وعلى الرغم من هذا التمازج بين الأراضي المستعمرة والمصالح على طول الجوانب الثلاثة كلها من المثلث الجغرافي الكبير في إفريقيا، إلا أنه تمت تسوية جميع النزاعات الجوهرية بحلول عام ١٩١٤ طالما يتعلق الأمر بالتدافع نحو إفريقيا. وبعد أن حققت ألمانيا وإيطاليا توحيدًا سياسيًّا خلال الخمسين سنة الماضية فقط، فقد جاءتا متأخرتين إلى ميدان التدافع الاستعماري. فقد كان لديهما حصة هزيلة وإمبراطورية استعمارية أقل سحرًا من معظم جاراتها في أوروبا الغربية. لكنه كان من غير المرجح أن تؤدي أي عداوة إفريقية باقية حتى عام ١٩١٤ بحد ذاتها، إلى توريط هذه القوى في حرب مع بعضها البعض.

في المحيط الهادئ والشرق الأقصى كان هناك توازن مختلف للقوى الإمبريالية. فهناك أيضًا كان الكومنولث البريطاني متورطًا. ففي جنوب المحيط الهادئ كانت تمثله أستراليا، ونيوزلاندا، وتازمانيا، وفيجي وجزر سليمان غيرها من المناطق الأصغر حجمًا. وفي الغرب كان مسيطرًا على جزء من غينيا الجديدة وشمال بورنيو، لكن في شمال المحيط الهادي كانت اليابان

هي القوة التوسعية. فقد كانت تتوسع بشكل رئيسي على حساب الصين التي هزمتها في حرب عامي ١٨٩٤-١٨٩٥. كما سعت القوى الغربية أيضًا للحصول على موانئ وامتيازات تفتح لها موارد وأسواق الصين الضخمة. كما أسست كل من روسيا، وألمانيا، وفرنسا، وبريطانيا، بالإضافة إلى اليابان لأنفسها نقاطًا استراتيجية مختلفة على ساحلها. وبدت كأنها قصة تقسيم إفريقيا من جديد. لمدة اثنين وسبعين عامًا سيطرت بريطانيا على ميناء هونغ كونغ الحيوي عند مصب نهر كانتون، وطوَّرته إلى أن أصبح المركز التجاري الأكثر أهمية في الصين. في عام ١٨٧١ استولت روسيا على مقاطعة كولجا. وفي الهند الصينية تم إنشاء محميات فرنسية في كامبوديا منذ عام ١٨٦٣، وفي تونكين منذ عام ١٨٨٣، وفي أنام منذ عام ١٨٨٤، وفي لاوس منذ عام ١٨٩٣. وتم التنازل عن كوشين-الصين لها في عام ١٨٦٨. وفي عام ١٨٨٦ ضمت بريطانيا بورما. وكنتيجة لحربها مع الصين فازت اليابان بالسيطرة على كوريا وضمتها في عام ١٩١٠، وكان من الممكن أن تحصل على جزء كبير من مانشوريا أيضًا لو لم تكبحها روسيا، وألمانيا وفرنسا بالاحتجاجات. بين عامي ١٨٩٥ و١٩٠٠ تنافست جميع القوى من أجل الحصول على امتيازات و"مناطق نفوذ" في الصين، وبناء السكك الحديدية ومنح القروض. وقد عززت هذه التدخلات موجة مما يشبه القومية في الصين أدت إلى تمرد بوكسر في بكين عام ١٩٠٠. فأرسلت كل من اليابان، وروسيا، وفرنسا،

وبريطانيا، ولاحقًا ألمانيا قوة مشتركة لقمعه، وفي نفس العام وقَّعت بريطانيا وألمانيا اتفاقية وافقتا بموجبها على قمع العدوان الإقليمي الأجنبي في الصين، والحفاظ على "باب مفتوح" للتجارة العالمية. وفي العام السابق ظهرت الولايات المتحدة أيضًا في الصورة. فقد أيد وزير خارجيتها جون هاي مبدأ الباب المفتوح بمعنى أن القوى التي لديها امتيازات في الصين لا يتوقع منها أن تمارس التمييز ضد القوى الأخرى من خلال تعريفات جمركية وتعريفات للسكك الحديدية متباينة. إنها لم تفعل شيئًا لحماية الصين من مثل هذه الاختراقات، لكنها خففت من حدة النزاعات بين القوى العظمى.

في عام ١٩٠٤ اندلعت الحرب بين روسيا واليابان، وفي العام التالي استخدم الرئيس ثيودور روزفلت مساعيه الحميدة لإنهاء الحرب. لكن ذلك الأمر ترك اليابان في موقف أفضل من روسيا باستغلال ضعف الصين. وفي عام ١٩١١ تمت الإطاحة بسلالة مانتشو الحاكمة المتضعضعة في الصين التي حكمت البلاد منذ عام ١٦٤٤ والآن تم إنشاء جمهورية. نجح الدكتور صن يات سين وحزبه القومي "الكومينتانغ" في ترسيخ نفوذهم في الجنوب في كانتون فقط. وفي الشمال وقعت السلطة في يد الحكام العسكريين للمقاطعات المختلفة الذين وطدوا أنفسهم كأمراء حرب. كان من الواضح أن هذا الوضع القلق، الذي كان موجودًا في عام ١٩١٤، من غير المرجح أن يستمر. وهذا ما أشار إلى أن الصين سوف تصبح مركزًا للتوتر العالمي في

المستقبل.

في القرن العشرين فقط أصبحت الولايات المتحدة مهتمة بالمحيط الهادي بقدر ما كانت مهتمة بالمحيط الأطلسي. إن إنشاء قناة بنما، التي لم تكن منتهية في عام ١٩١٤ لكنها كانت مفتوحة أمام حركة السفن، منحها طريقًا بحريًّا مباشرًا بين المسرحين الرئيسيين لاهتماماتها الوطنية على غرار حلقة الوصل التي قدمها افتتاح قناة السويس، قبل جيل، للكومنولث البريطاني. جاء اهتمامها السياسي المتزايد في المحيط الهادئ بشكل رئيسي من استحواذها على غوام والفلبين كنتيجة عن الحرب الإسبانية-الأميركية عام ١٨٩٨. لكن قبولها الطوعي لهذه القواعد البحرية المتقدمة في الشرق الأقصى كان بدوره بسبب اهتمامها الاقتصادي البحري في تلك المنطقة. تم الاستيلاء على هاواي وجزء من ساموا في نفس الوقت تقريبًا. وهكذا فإن الحرب التي طردت آخر قوة أوروبية في العالم الجديد منحت أيضًا الولايات المتحدة رابطًا أكثر إيجابية مع الشرق الأقصى. وهذا ما جلب عوامل جديدة إلى سياستها الخارجية. فطالما يتعلق الأمر بالمحيط الأطلسي، كان هدفها الرئيسي منع التدخل الأوروبي في الشؤون الأميركية. في الشرق الأقصى من غير الممكن إنكار أو تجاهل وجود القوى الأوروبية، كما كان من المستحيل تبني موقف سلبي. كانت سياسة جون هاي "الباب المفتوح" لعام ١٨٩٩ نتيجة لضغوط من المصالح الصناعية والتجارية من أجل سياسة أكثر صرامة، ومن مجموعات

تبشيرية معينة. فقد كان كتاب اللورد تشارلز بيريسفور "تفكك الصين" مثيرًا وفي الوقت المناسب، في حين ذكرت أعمال الأدميرال ماهان الأميركيين بأهمية السيطرة البحرية. لقد كانت فترة من التوسع الإمبريالي عبر البحار بالنسبة على أميركا، متزامنًا مع توسع القوى الأوروبية في إفريقيا والشرق الأقصى. وفور انجرارها إلى الشرق الأقصى، أصبحت المشكلة المصيرية لأميركا هي حتمًا الصين. واحتلت الولايات المتحدة مكانها بين الدول التجارية في العالم وهي تراقب بشيء من القلق التفكك الوشيك لذلك البلد.

ومع ذلك كانت هذه التشابكات بين القوى الأوروبية عبر البحار أقل قابلية للاشتعال من منافساتها داخل القارة الأوروبية نفسها. وهنا يمكن إيجاد أعمق جذور الحرب العالمية الأولى. فبينما كانت القوى الغربية تقوم بإنشاء إمبراطوريات بحرية جديدة، كانت تتفكك إمبراطوريات قارية قديمة في أوراسيا. إن جذور المشكلة في أوروبا تعود إلى عواقب انهيار مملكة هابسبورغ المزدوجة المكونة من النمسا-المجرية، والإمبراطورية التركية المترامية الأطراف التابعة للعثمانيين، والإمبراطورية الروسية لعائلة رومانوف. القوى القومية والليبرالية التي كانت تتخمر في باقي أنحاء أوروبا منذ أكثر من قرن، بدأت مؤخرًا فقط بالإلقاء بتأثيرها الكامل على تلك التكتلات المتعددة الجنسيات وغير الوطنية. فقد حدثت بالفعل حركات تمرد في بولندا، المقسمة منذ فترة طويلة بين النمسا المجرية، وروسيا، وبروسيا، كما

انفصل اليونانيون وبعض السُّلافيين الجنوبيين من حكامهم الهالسبرغيين أو العثمانيين، وكانت تعتبر تركيا منذ وقت طويل "رجل أوروبا المريض".

كانت تركيا تتفكك بسرعة أكبر من النمسا المجرية، لكن وضع الأخيرة كان أشد خطرًا، بسبب التحدي الذي واجهه بقاؤها من قِبَل صربيا العدوانية والقومية للغاية. كدولة مستقلة منذ حوالي قرن من الزمان، ازدادت صربيا مؤخرًا حجمًا وقوة، وكانت مدعومة من روسيا في سياستها البان-سلافية في شرق أوروبا. وعلى الرغم من أن روسيا كانت تعاني داخليًّا من اضطرابات ثورية أدت إلى تجارب الدوما في عام ١٩٠٥، إلا أنها كانت في وضع يسمح لها بتولي الهجوم باسم الدول السلافية الأخرى في أوروبا الشرقية. وعندما هزمت دول البلقان روسيا في عام ١٩١٢، أُعطي دافع قوي لتفكك الإمبراطورية العثمانية. وكانت كل من روسيا والنمسا المجرية تراقب أي مكاسب قد تأتي من تلك العملية. في نفس الوقت كانت ألمانيا أيضًا تطور مطامح واضحة في الشرق الأدنى، التي كانت سكة حديد برلين-بغداد من بشائرها، كانت بريطانيا مهتمة ببيرسيا، وفي عام ١٩٠٧ عقدت اتفاقية مع روسيا حصلت بريطانيا بموجبها على الجزء الجنوبي من البلاد "كمنطقة نفوذ"، وحصلت روسيا على الجزء الشمالي، مع وجود منطقة محايدة بينهما، وكانت فرنسا مهتمة بشكل خاص بسوريا، حيث كانت لديها استثمارات وبعثات مسيحية ومدارس، ورغبة في الحفاظ على مصالحها في بلاد الشام وتوسيعها.

وأيضًا كانت دول البلقان والمشرق نقطة التقاء تلك السلسلة الغريبة الأطوار من حركات "بان" التي ظهرت في بداية القرن، فبالإضافة إلى بان السلافية التي كانت مهمة فقط بقدر ما كانت وسيلة مناسبة للتوسع الروسي، كانت هناك حركات بان الألمانية وبان التوتونية كرد فعل عن حركة بان السلافية، كانت تطمح حركة بان التوتونية لتوحيد كل فروع العرق التركي من تراقيا إلى سيبيريا، وحركة بان الإسلامية التي امتدت من إفريقيا الشمالية إلى الهند. إن التواصل المتزايد بين الشعوب، خاصة بين شعوب مختلفة جدًّا بالحضارة والعرق، أدى إلى ترابط مفهوم الحضارة بمفهوم العرق. لكن الحركات من أجل التوحيد العرقي لم تكن في النتيجة أكثر من أسلحة للهيمنة القومية، وهذا الأمر كان صحيحًا بالنسبة لبان السلافية، وبان الألمانية وبان التورانية قبل عام ١٩١٤، بقدر ما كان صحيحًا بالنسبة للاشتراكية القومية في ألمانيا بين الحربين.

لقد كانت صحوة العالم الإسلامي على الشعور بالوحدة إحدى أهم التطورات التي حدثت في ذلك الوقت. كانت الرابطة الإسلامية في الهند، التي تأسست عام ١٩٠٧، إحدى علاماتها. إن تقسيم بلاد فارس في نفس العام، واحتلال المغرب من قبل الفرنسيين، والهجمات الأولى التي شنتها إيطاليا عام ١٩١١، ثم هجمات دول البلقان في عام ١٩١٢ على تركيا، بدت كأنها هجوم مشترك للدول الأوروبية على الإسلام، مما أعطى دافعًا لحركة

بان الإسلامية. لقد أثبتت أنها عامل هام في شؤون العالم بنهاية الحرب العالمية الأولى. في هذه الأثناء واجهت الحكومة التركية، مثل نظيرتها في الصين، عصيانًا قوميًّا. ففي عام ١٩٠٨ ثار الشبان الأتراك في تسالونيك وطالبوا السلطان بدستور. فوافق، لكن على الفور اندلعت الحرب ضد الديكتاتوريين الجدد، وساعد الأوروبيون والعرب على حد سواء على انقسام الإمبراطورية التركية. أعلنت بلغارية استقلالها، وأخذت اليونان جزيرة كريت، واستولت النمسا المجرية على مقاطعات البوسنا والهرسيك، واستولت إيطاليا على طرابلس، وفي بغداد طالب العراقيون الوطنيون باستقلال بلاد ما بين النهرين، وحذا حذوهم الوطنيون السوريون في دمشق، وفي نجد طالب ابن سعود باستقلال شبه الجزيرة العربية. في مثل هذه الإمبراطوريات ولدت القومية في المركز قوميات منفصلة على الأطراف. لقد ساهم هذا المثال في تذكير حكام النمسا المجرية بأنهم هم أيضًا مُعرَّضون لمصير مماثل في حال نمو القومية الانفصالية في دول البلقان.

إن هذا التشابك المعقد للقومية والإمبريالية المتصارعتين في دول البلقان والمشرق وضع ضغطًا كبيرًا على النظام الدبلوماسي للتحالفات في أوروبا؛ لأن ألمانيا كانت تخشى تطويق قوى الوفاق الثلاثية روسيا وفرنسا وبريطانيا، فلم تجرؤ على التخلي عن النمسا المجرية التي أصبحت عازمة الآن على تدمير القوة الصربية الصاعدة. ولأن فرنسا كانت تخشى ألمانيا، لم تجرؤ على التخلي

عن روسيا، مهما قد تشجع روسيا صربيا على المقاومة. ولأن بريطانيا خشيت تحدي ألمانيا لها لتفوقها البحري، لم تجرؤ على التخلي عن فرنسا. إن التحالفات تآمرت على سحب كل القضايا المنفصلة في صراع واحد كبير.

تمت صياغة التحالف الثلاثي بين ألمانيا والنمسا المجرية وإيطاليا بين عامي ١٨٧٩، عندما عقد بسمارك تحالفه الثنائي مع النمسا المجرية للدفاع ضد روسيا، وعام ١٨٨٢، عندما وقَّعت هاتان القوتان معاهدة التحالف الثلاثي مع إيطاليا. كان هدف بسمارك الدائم بعد هزيمته لفرنسا عام ١٨٧٠ هو إبقاء فرنسا معزولة في أوروبا، ومنع أي إحاطة دبلوماسية لألمانيا. وكانت النتيجة خلق نظامين متنافسين للتحالفات، وإنشاء ميزان دقيق للقوى في أوروبا الذي ساعد لمدة جيل في الحفاظ على السلام. وطالما أنَّ مزيجًا واحدًا يحث تلقائيًّا على ظهور مزيج آخر مضاد منافس، كذلك يحافظ على التوازن المطلق للقوى، فكلا الجانبين كانا يمتنعان عن خرق السلام. لكن التوترات المتكررة والمنافسة الطويلة الأمد من هذه النوع أنتجت في حد ذاتها منافسة مستمرة في التسلح، وولدت دومًا خوفًا متزايد الانتشار، مما دفع في النهاية جميع القوى للانخراط في حرب واحدة كبيرة. فبدلًا من قيام الشركاء الأقل اهتمامًا والأكثر لا مبالاة بكبح حلفائهم، أصبح الخوف عالميًّا جدًّا في أوروبا لدرجة أن أكثر الشركاء حمية وميلًا للحرب هم مَن حدد وتيرة حلفائهم. لا يمكن لأي نزاع أن يكون محدودًا أو محليًّا؛ لأن كل نزاع

يشمل جميع الآخرين. لهذا السبب أدى مقتل الأرشيدوق النمساوي على يد متعصب صربي في بلدة سارايفو البلقانية إلى دخول روسيا وفرنسا في حرب مع النمسا المجرية وألمانيا، ولهذا السبب أدى غزو ألمانيا لبلجيكا إلى دخول بريطانيا ودول السيادة البريطانية في نزاع عام. لقد لخص لنا السيد جي. أ سبينسر الوضع الأوروبي جيدًا:

كانت المرحلة التي وصلت إليها أوروبا مرحلة شبه قومية نظمت الدول في مجموعتين لكنها لم تقدم أي جسر بينهما، ولم يكن من الممكن أن تكون هناك ظروف أسوأ سواء للحرب أو للسلم. كان التوازن دقيقًا للغاية لدرجة أن هَبَّة ريح قد تدمره، وكانت القوى الهائلة على كلا الجانبين متوازنة تمامًا بحيث إن أي صراع بينها لا بد أن يكون ضخمًا. وكان نجاح ميزان القوى ذاته بهذا الصدد بمثابة عدوه.

بسبب الروابط العالمية للقوى الاستعمارية العظمى، فإن الحرب كانت بمثابة "حرب عالمية" بمعنى محدود، لكن إمبراطوريات قوى التحالف الثلاثي كانت في السابق إمبراطوريات سلالات استعمارية مهيمنة، ويمكن أن تقتصر الأعمال العدوانية الكبرى قريبًا على أوروبا والبحر المتوسط والمحيط الأطلسي. كان الشرق الأقصى مَعْنِيًّا مباشرة فقط بقَدْرِ ما كانت القوات الهندية تقاتل في صفوف القوات البريطانية. تم عزل المستعمرات الألمانية في إفريقيا بسرعة، على الرغم من استمرار حملة طويلة ومكلفة في

شرق إفريقيا الألمانية حتى عام ١٩١٨.

كان لدى المشهد العالمي في عام ١٩١٤، عند النظر إليه بالإجمال، السمة الأكثر لفتًا للاهتمام المتمثلة في تأثير القوى التوسعية على القوى القديمة غير المرنة، مع ما يترتب على ذلك من تداعيات للعلاقات بين تلك القوى التوسعية نفسها. هذا هو النمط العام. كانت روسيا، واليابان، وبريطانيا، وألمانيا، وفرنسا تعتدي على الصين، وروسيا، وإيطاليا، وكانت دول البلقان تعتدي على الإمبراطورية العثمانية. في كل حالةٍ حَفَّزَ هذا التأثير على ثورة قومية التي كانت بدورها مصحوبة بثورات قومية انفصالية داخل هذه الإمبراطوريات القديمة. في النمسا المجرية أنتج تأثير روسيا وصربيا ودول البلقان الأخرى حركات انفصالية داخلية، لكن من دون ثورة قومية في الداخل. وكان التأثير البريطاني في الهند، ونفوذ الولايات المتحدة على أميركا الجنوبية، لهما تطورات مماثلة: كما هو الحال في تقسيم القارة الإفريقية بين القوى الأوروبية. هنا كانت عواقب ردود الفعل القومية الداخلية أبطأ في تطورها، لكنها لا تزال تحمل تشابهًا كافيًا للنمط المألوف قبل ١٩١٤ له أهمية. وفي الهند سمحت إصلاحات مورلي مينتو في عام ١٩٠٩ بمؤسسات تمثيلية على نطاق ضيق جدًّا. وكان الكونغرس الوطني الهندي الذي يعود تاريخه إلى عام ١٨٨٥، الأداة الرئيسية للقومية الهندوسية بحلول عام ١٩١٤: وتأسست الرابطة الإسلامية في عام ١٩٠٧. وظهرت مظاهر مميزة

للثورة القومية في أميركا الجنوبية وإفريقيا ضد الهيمنة الأجنبية كتطورات هامة بشكل رئيسي منذ الحرب العالمية الأولى.

إذا كان هذا النمط يقدم تحليلًا عامًّا دقيقًا للمشهد السياسي في العالم في عام ١٩١٤، فهذا يعني أن المستقبل سيكون بين أيدي تلك القوى التي كانت نظرتها، وتقاليدها، ومُثُلُها، هي الأفضل لتصل إلى اتفاق مع هذه القوى القومية الجديدة. هناك قوتان على وجه الخصوص دافعتا عن فهم مجموعة واسعة من الأعراق والقوميات ضمن إطار مشترك للحكومة والإدارة هما الكومنولث البريطاني والولايات المتحدة. أربع مستعمرات حصلت مؤخرًا على حكم ذاتي كامل تقريبًا واستقلال قومي. بالإضافة إلى ساسكاتشيوان والبرتا عام ١٩٠٥ أكملت كندا توحيدها الفدرالي. وتأسست نيوزيلاندا التي يعود تاريخها إلى عام ١٨٥٢، رسميًّا في عام ١٩٠٧. وافتُتح الكومنولث الأسترالي في عام ١٩٠١. وفي عام ١٩١٠ تم دمج مستعمرات رأس الرجاء الصالح، وناتال، والترانسفال، ومستعمرة نهر أورانج لتشكيل اتحاد جنوب إفريقيا. لم يجلب القرن العشرين للكومنولث البريطاني إكمال تطوير المستعمرات المستقرة نحو الحكم الذاتي الكامل والمسؤول فقط، بل جلب أيضًا عملية التوحيد الداخلي. وهذا ما جمع بين المستوطنين البريطانيين والفرنسيين في كندا، والبريطانيين والهولنديين في جنوب إفريقيا. وجدت الولايات المتحدة، بتطور مماثل، وسيلة لضم الرجال والنساء من كل عرق

ودين تقريبًا ضمن مواطنة مشتركة، وكان ينتج عن هذا الخليط مفهومًا جديدًا للجنسية الأميركية المتميزة.

كانت الاستثناءات لهذا التعامل الناجح مع الصعوبات القومية بدون انقطاع هي الهند وأيرلندا في الكومنولث والزنوج في الولايات المتحدة. في الهند، كما في أيرلندا، تقاطعت المشكلتان التوأمتان للحكم الذاتي والاستقلال الوطني بسبب الصراع المرير الناجم عن الاختلافات الدينية، وأصبحتا مرتبطتين بقضايا مقلقة تتعلق بتقسيم المناطق. في عام ١٩١٤ كانت حكومة السيد اسكويث اللبرالية على وشك تمرير مشروع قانون الحكم الذاتي الذي من شأنه إجبار أولستر على قبول الاتحاد مع أيرلندا الجنوبية والانفصال عن بريطانيا العظمى، بينما دعمت المعارضة الوحدوية انفصال أولستر عن أيرلندا الجنوبية باعتبار ذلك عائق أمام الحكم الذاتي. قدوم الحرب فقط هو ما أدى إلى تأجيل المسألة، وخلال أربعة أعوام من نهاية الحرب، جلبت حرب أهلية غير حاسمة الاستقلال لإيرلندا الجنوبية لكنها أيضًا أدت إلى تقسيم أيرلندا بين شمالية وجنوبية. بين عامي ١٩٠٥ و١٩١١ أثار تقسيم البنغال صراعًا مماثلًا بين الهندوس والمسلمين في الهند: وبعد ذلك بجيل لم تنل الهند استقلالها إلا بدفعها ثمن التقسيم أيضًا. ووضع الزنوج في الولايات المتحدة الذي ساعد أيضًا في الماضي على إحداث حرب أهلية وتهديد بالتقسيم، كان أكبر فشل لأميركا باستيعاب جميع القادمين. تم منح الزنوج حق التصويت

في عام ١٨٧٠ لكنهم ظلوا الأقل استيعابًا بين جميع عناصر "بوتقة الانصهار" الكبيرة للأعراق.

واجه كلا البلدين مشكلة مدى قدرتهما على توسيع نطاق هذه المبادئ المتمثلة في المِنَح اللبرالية للحكم الذاتي والاستقلال السياسي لتشمل الشعوب التي كانت محتلة سابقًا دون التعرض للانفصال أو التقسيم. إلى أي مدى يمكن لبريطانيا أن توسع سيادتها إلى الهند، وبورما، وسيلان، ومستعمراتها الإفريقية الرئيسية؟ إلى أي مدى يمكن للولايات المتحدة أن تشجع الحكم الذاتي في كوبا أو الفيليبين؟ بقيت هاتان المشكلتان بحاجة إلى معالجة خلال سنوات ما بعد الحرب. في هذه الأثناء بدا أن إمبراطوريات السلالات الحاكمة التي ارتكزت على إنكار التطلعات القومية أو إخضاعها كان محكومًا عليها بالانحلال. ويبدو أنه من المؤكد إلى حدٍ ما أن كلا هذين التطورين كانا سيَحدثان حتى لو تنشب حرب عالمية. وما فعلته الحرب كان تسريعَ وتسهيلَ الأمرين.

٢- المشهد الاقتصادي:

خلال القرن التاسع عشر غادر أوروبا حوالي ٤٠ مليون مهاجر وغادر حوالي ٩ مليون معظمهم من الصينيين الصين وأستراليا إلى أميركا. يذهب الصينيون جزئيًّا إلى هذه المناطق لكن بشكل رئيسي إلى الأطراف الاستوائية لآسيا. بينما عادت نسبة كبيرة من المستحيل تقديرها بدقة إلى بلادهم؛

إما لأنهم كانوا يقصدون ذلك دائمًا أو لأنهم فشلوا في التكيف مع بيئتهم الجديدة. وصل تدفق المهاجرين من أوروبا إلى ذروته في عام ١٩١٤. وبين عامي ١٩٠٦و١٩١٠ أصبح المتوسط السنوي ١،٤٠٠،٠٠٠ وفي نفس الوقت كانت هناك هجرة شرقية من الروس إلى روسيا الآسيوية من روسيا الأوروبية التي زاد عدد سكانها بمقدار النصف بين عامي ١٨٩٠ و١٩١٤. خلال القرن التاسع عشر رحل حوالي ٣,٧٠٠,٠٠٠ وتبعهم ٣,٥٠٠,٠٠٠ آخرون بين عامي ١٩٠٠ و١٩١٤ إن هذه الحركة الجديرة بالاهتمام للشعوب إلى خارج أوروبا وإلى خارج الصين ساعدت على توطين البلدان البعيدة في الكرة الأرضية. لم تفعل شيئًا لتقليل عدد سكان أوراسيا ككل والتي كانت تتزايد بأعدادها الإجمالية. فقد شجعها نمو وسائل النقل السريعة والرخيصة من سكك حديدية وسفن بخارية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فقد غيرت ثورة بوسائل النقل والاتصالات العلاقات بين دول العالم قبل مجيء الطيران.

بحلول عام ١٩١٤ تم مد أكثر من ٥١٦,٠٠٠ كيلومترًا من الكابلات في قاع المحيطات، كما أذهلت شبكات الهاتف والتلغراف العالم. كان الجيل السابق قد اختصر العالم الاقتصادي بأكمله، باستثناء بعض الزوايا النائية، إلى سوق واحدة بأخبار عن أسعار ومؤن وطلبات سريعة جدًّا. قامت أكثر من ٣٠ ألف سفينة، بحمولة إجمالية تبلغ حاولي ٥٠ مليون طن بنقل حركة

النقل البحرية في العالم، نصفها يعود إلى الكومنولث البريطاني. كانت المملكة المتحدة هي الدولة الرئيسية في بناء السفن في العالم، حيث قامت ببناء سفن أكثر من جميع أحواض بناء السفن في العالم مجتمعة؛ لأنها كانت تنزع إلى بيع سفنها القديمة وبناء سفن من طراز أحدث لنفسها، فلم تكن التجارة البحرية البريطانية هي الأكبر فحسب بل كانت أيضًا الأكثر حداثة وكفاءة. وامتدت الاتصالات بين القارات بواسطة سفن بخارية وانتشرت عبر القارات بواسطة السكك الحديدية. فقد افتتح أول خط سكة حديد عابر للقارات في الولايات المتحدة في عام ١٨٦٩، وتم الانتهاء من السكة الحديدية الكندية في عام ١٨٨٥، والسكك الحديدية عبر القوقاز وسيبيريا بحلول عام ١٩٠٥. إن افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ وقناة بنما في عام ١٩١٤ خلق طرقًا بحرية متواصلة وأقصر بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي، وبين المحيط الأطلسي والمحيط الهادئ. وبنفس الطريقة اتصل بحر الشمال وبحر البلطيق بقناة كيل التي افتُتِحت منذ عام ١٨٩٥ لكن أعيد بناؤها في عام ١٩١٤. لم يكن نقل الناس والبضائع من جزء من الكرة الأرضية إلى آخر بهذه السهولة أو الرخص، أو السرعة من قبل.

ومع ذلك فإن كل هذه التطورات وإمكانية التنقل هذه للناس والبضائع لم يكن لها التأثيرات القوية التي يمكن توقعها والتي غالبًا ما تمت المطالبة بها. فقد اجتمعت الثورة في النقل والاتصالات مع اتجاهات سياسية أخرى

وتطورات اقتصادية أخرى لإنتاج مزيج من التأثيرات المختلفة، كان بعضها موحدًا وبعضها الآخر مفككًا. وما فعلته في الأساس هو تغيير ميزان المزايا الاقتصادية، والتعويض في بعض الأحيان عن العيوب السابقة وفي أحيان أخرى تعزيز المزايا السابقة. إن الميزة الطبيعية التي كانت تتمتع بها بريطانيا العظمى في السابق كقوة صناعية في امتلاكها موارد الحديد والفحم بجانب بعضها البعض، تم تعويضها الآن في كلٍّ من الولايات المتحدة وألمانيا بتقديمهما وسائل نقل بالسكك الحديدية الرخيصة. هذا ما جعلها متفوقة اقتصاديًّا بجَلْبها خامات بحيرة سوبريور وفحم بيتسبورغ لصناعة الفولاذ، أو لنقل الفحم إلى بلجيكا، وهولندا والدنمارك وروسيا عبر السكة الحديدية من ألمانيا بدلا من عن طريق البحر من بريطانيا العظمى. من ناحية أخرى، فإن الموقع البحري الاستراتيجي للجزر البريطانية، والذي جعل منها مركزًا تجاريًّا، قد تأكد تعزيزه الآن من خلال تطوير خطوط السفن البخارية عبر الأطلسي. فحقيقة أن الولايات المتحدة كانت قد وصلت للتو إلى مرحلة لديها فيها فائض من المنتجات المخصصة للتصدير بعد تلبية احتياجات أسواقها المحلية الواسعة، في حين أن ألمانيا وصلت إلى هذه المرحلة قبل جيل منها، جعل الولايات المتحدة على الرغم من مواردها وإنتاجها الأكبر بكثير، تبدو للعيون البريطانية منافسًا أقل من ألمانيا.

لقد كان بناء كامل السكة الحديدية في أوروبا بالإضافة إلى توحيد ألمانيا

بعد عام ١٨٧١ الذي منح ألمانيا مزايا تجارية عظيمة جديدة كانت تتمتع بها بريطانيا. لقد عبَّر البروفسور إل سي ايه نولز عن الأمر بطريقة جيدة:

كان يعيقها حتى الآن خط ساحلي قصير، وبسبب التدفق الشمالي لأنهارها، وتجمّد قنواتها في الشتاء، اكتسبت منافذ جديدة في الشرق والغرب والجنوب طوال أوقات السنة. وأصبح لديها قوة البحر الأبيض المتوسط من خلال استكمال خط سكة الحديد فوق سان جوتهارد في عام ١٨٨٢. وحصلت على نفوذ اقتصادي كبير في شمال إيطاليا وأصبحت جِنوَى منفذًا ألمانيًّا هامًّا. بنفس الطريقة فإن سكة الحديد إلى القسطنطينية جعلتها قوة في دول البلقان مع مصالح تجارية في الشرق. واتصلت مع فرنسا بسكة حديد في الغرب وروسيا في الشرق وأصبحت مركزًا لنظام التوزيع القاري، مما أثر على موقع التوزيع البحري لبريطانيا الذي لا منازع له.

هذه التغيرات هي أعراض لسلسلة كاملة من التحولات في التوازن الاقتصادي في العالم والتي حدثت بسبب نمو النقل الميكانيكي. قبل عقد من اندلاع الحرب كانت لدى الدول الثلاث تجارة خارجية، والقيمة النسبية لها تشير إليها الأرقام التالية: إنها تبين تفوق الولايات المتحدة في كافة أنواع صادراتها، لكن تفوق المملكة المتحدة في تصدير البضائع المصنعة، وكعميل في الأسواق العالمية للمواد الخام. كما تبين كيف كانت ألمانيا منافستها الأكثر أهمية كمنتجة للبضائع المصنعة.

المعدل السنوي ١٩٠٠-٤	الولايات المتحدة	ألمانيا	المملكة المتحدة
مجموع الصادرات	٢٩٢,٣	٢٣٥,٦	٢٨٢,٧
الصادرات - بضائع مصنعة فقط	٩٩,٨	١٥٤,٢	٢٢٤,٧
مجموع الواردات	١٨٦,٠	٢٨٧,٠	٤٦٦,٠
الواردات - بضائع مصنعة فقط	٧٨,٦	٥٧,٠	١١٣,٤

إن ظهور الولايات المتحدة كدولة مصدرة عظيمة يفسر اهتمامها الجديد والحيوي بالشؤون العالمية بحلول عام ١٩٠٠، كانت الصادرات البريطانية تذهب إلى أوروبا تقريبًا بقدر ما تذهب إلى دول الكومنولث البريطاني: على الرغم أنا ما يقارب من ثلثي واردات الهند كانت تأتي من المملكة المتحدة لوحدها، وتشكل ما يزيد عن ١٣٪ من إجمالي صادرات المملكة المتحدة[٣] .

مؤشر آخر القوى التجارية النسبية للدول الصناعية الرئيسية هو حمولة شحنها التجارية. ففي يونيو ١٩١٤ كانت أرقام السفن التي تبلغ حمولتها ١٠٠ طن أو أكثر هي: الولايات المتحدة ٤-٥ مليون طن، ألمانيا ٥-٥ مليون طن، المملكة المتحدة ٣-١٩ مليون طن، الكومنولث البريطاني بالإجمال ١-٢١ مليون طن. هنا احتفظت بريطانيا بتفوقها في القرن التاسع عشر بفارق طويل، لكن بعد عشر سنوات ارتفعت حصة الولايات المتحدة

٣ ذهب ثلث صادرات المملكة المتحدة إلى الدول الأوروبية، والكومنولث

إلى ربع الإجمالي، في حين انخفضت حصة المملكة المتحدة إلى ٣٠ بالمائة من الإجمالي: وكان هذا الميل واضحًا حتى قبل أن تجلب الحرب الخسائر لبريطانيا وازدهار هائل في بناء السفن للولايات المتحدة.[٤]

في هذا التحول العام في توازن القوى التجارية والصناعية، عانت فرنسا أكثر من بريطانيا العظمى. فبين عام ١٨٧٠و١٩٠٤ زاد إنتاج أفران صهر المعادن فيها ستة أضعاف، بينما زاد إنتاج ألمانيا عشرة أضعاف، وعندما كان إجمالي صادرات ألمانيا يساوي ٦ , ٢٣٥ L مليون، كانت قيمة صادرات فرنسا ١٦٨٦ E مليون فقط. ففي حين كان حجم الشحن التجاري في عام ١٩١٤ في ألمانيا ٥ , ٥ مليون طن، كان حجم الشحن في فرنسا ٣ , ٢ مليون طن فقط. وبالكاد تم الحفاظ على مستوى سكانها حتى مع الهجرة الواسعة النطاق التي جاءت بشكل رئيسي من بلجيكا وإيطاليا وألمانيا. على الرغم من أن بعض الهجرات كانت مؤقتة فقط، لكن كان هناك من عام ١٨٧٢ حتى عام ١٩١١ حوالي مليون عملية تجنيس بموجب قانون عام ١٨٨٩ الذي جعل التجنيس أسهل، وكان لا يزال هناك في عام ١٩١١ ٦٩٦ , ١٣٢ , ١ أجنبي يعيشون في فرنسا. وازداد عدد سكان ألمانيا من ٤٠ مليون في عام ١٨٧٠ إلى ٦٨ مليون بحلول عام ١٩١٤.

٤ كانت ألمانيا تنتج في عام ١٩١٣ ما بين ٢٨٧,٤ مليون طن، بينما أنتجت الولايات المتحدة ٥٠٨,٥ مليون طن.

ربما كان من المتوقع أن تؤدي زيادة حالات وانخفاض تكلفة الحركة إلى هجرة كبيرة، لكن لأن هذا التطور التكنولوجي تزامن مع رفع الحواجز أمام الهجرة، فقد كان هناك ميل في الواقع لتكون هناك هجرة أقل عبر القارات في القرن العشرين عما كان عليه في القرن التاسع عشر. فقد تم استبعاد الصينيين من الولايات المتحدة بعد عام ١٨٨٢، ومن هاواي بعد عام ١٨٩٨، ومن الفيليبين بعد عام ١٩٠٢. واستبعدت الولايات المتحدة العمال اليابانيين في عام ١٩٠٧ وبموجب قانون الهجرة عام ١٩١٧ منع دخول غير الأوروبيين وخاصة الهنود وسكان جزر الهند الشرقية، وأخذت كندا إجراءات مماثلة ضد الصينيين بعد عام ١٨٨٥ وضد اليابانيين بعد عام ١٩٠٨. وفرضت نيوزلندا قيودًا على الصينيين، وأصدرت أستراليا قانونًا فدراليًّا للحد من الهجرة في عام ١٩٠١ لنفس الغرض. وحظر اتحاد جنوب إفريقيا دخول الصينيين في عام ١٩١٣ وحذت حذوه بعض دول أميركا الجنوبية، لكن الأرجنتين، والبرازيل، وتشيلي لم تمارس التمييز ضد غير الأوروبيين، حتى إن البرازيل شجعت المستوطنين اليابانيين. وقبل عام ١٩١٤ لم تتخذ الولايات المتحدة ودول السيطرة البريطانية سوى القليل من الإجراءات لاستبعاد المهاجرين الأوروبيين، بالرغم من إمكانية تطبيق اختبارات معرفة القراءة والكتابة ومفاضلات في بعض الدول على الأوروبيين. العوائق الرئيسية أمام الهجرة الأوروبية جاءت بعد الحرب.

تم فرض عوائق في المقابل أمام حركة البضائع من خلال شبكة متنامية من الحواجز الجمركية والأولويات. فقد وَلَّى العصر الذي كانت فيه بريطانيا العظمى والولايات المتحدة تؤيدان حرية التجارة الكاملة. وكانت جميع الدول تسعى إلى حماية صناعاتها أو تجارتها من خلال الضوابط الحكومية والتعريفات الجمركية. والعقد الذي حكم فيه حزب المحافظين بريطانيا بين عامي ١٨٩٥-١٩٠٥ جلب بعض المطالبة بالعودة إلى سياسة الحماية. واندمجت رابطة إصلاح التعرفة الجمركية التي أسسها جوزيف تشامبرلن المطالبة بالحماية باعتبارها قوة موحدة داخل الإمبراطورية، تدريجيًّا في حركة مناهضة للتجارة الحرة بدعم من الشركات المصنعة لكنها كانت تريد فرض رسوم على الأغذية المستوردة مع أفضلية للمستعمرات، بمعدل ١٠٪ رسوم جمركية على الأغذية المصنعة الأجنبية. لكنها لم تحقق تقدمًا يذكر قبل عام ١٩١٤. ففي الولايات المتحدة تم وضع تعريفة ماكنلي لعام ١٨٩٠ لتستخدم كبطاقة مساومة للحصول على امتيازات للصادرات الأميركية، وقد نجحت إلى حد كبير. وبعد سبع سنوات أدت تعريفة دينجلي إلى رفع الرسوم أكثر من أي وقت مضى، وعلى الرغم من التعديلات التي أدخلتها تعريفات باين ألدريتش عام ١٩٠٩ وتعريفة أندروود لعام ١٩١٣، ظلت الولايات المتحدة أكثر دولة تتبع سياسة الحماية في العالم في عام ١٩١٤.

حذت حذوها الدول الصناعية الرائدة في أوروبا. ففرنسا التي هي تقليديًّا

دولة تتبع سياسة الحماية، عادت إلى تقاليدها مع تعريفة ميلين لعام ١٨٩٢، وفي عام ١٩١٠ أخذتها أبعد من ذلك، فقد توحَّد المزارعون والمصنِّعون في المطالبة بالحماية، وبحلول عام ١٩١٤ أصبحت فرنسا إحدى أكثر الدول المحمية صرامة في أوروبا. كانت ألمانيا مهتمة بشكل خاص بحماية زراعتها وتعزيز صناعاتها الثقيلة، وتم وضع تعريفاتها في عام ١٩٠٢ لتحقيق التوازن بين هذين الهدفين. كان التوسع الصناعي والصادرات أكثر أهمية بالنسبة لها، اقتصاديًّا، من الزراعة المحمية بشدة، لكن الخوف من الحرب فرض عليها أن تولي بعضًا لإنتاجها الزراعي. لذلك فإن التنازلات التي يمكن أن تقدمها للدول الأخرى كانت صغيرة، فبقيت- مثل بقية دول وسط أوروبا- ملتزمة بنظام حماية شديد. في نفس الوقت، كانت روسيا، لأسباب مختلفة تمامًا، تقيم حواجز عالية جدًّا. كان هدفها تجميع احتياطي الذهب من أجل استقرار عملتها، وبقدر ما كانت تعتمد على الاستثمارات والقروض الأجنبية، كانت حريصة ألا تدفع الفائدة عليها من الذهب بقدر الإمكان. كانت صادراتها الرئيسية هي الذرة. وبذلك كان هدفها فرض مثل هذه التعريفات التي تمكِّنها من خفض الرسوم التي تفرضها الدول الأخرى على صادراتها من الذرة، وخفض وارداتها من البضاعة المصنعة. كان هدفها الرئيسي إقامة إمبراطورية قائمة بذاتها، كان ذلك في ظل الاكتفاء الذاتي القادم. فبعد حرب الرسوم الجمركية مع ألمانيا في تسعينات القرن التاسع عشر، استقرت لمدة

عقدين من سياسة الحماية العامة.

من خلال جعل اقتصاد كل دولة أكثر حساسية للتغيرات التي تحدث في دولة أخرى، أثار نمو التجارة العالمية مخاوف جديدة، مما أدى إلى فرض قيود على الهجرة وحروب على الرسوم الجمركية في الوقت الذي كان فيه انتشار الصناعة والتجارة العالمية يجعل القارات والبلدان أكثر ترابطًا. ومن خلال نقل التوازن القديم للمزايا الطبيعية، ولدت منافسات قومية جديدة وأكثر شراسة. فقد أصبحت الجزر البريطانية بحلول عام ١٩١٤، بفضل تصنيعها الرائد معتمدة على التجارة العالمية ليس فقط للحفاظ على مستوى معيشتها ولكن أيضًا لتلبية احتياجاتها المعيشية. فثلاثة أرباع الذرة التي تستهلكها بريطانيا كانت تأتي من عبر البحار. وكان أفضل مستهلك لسلعها المصنعة هو الهند التي استحوذت على أكثر من ١٣٪ من صادرات بريطانيا. لكن كانت كل من ألمانيا والولايات المتحدة تنتج نفس السلع التي كانت صادراتها الرئيسية من الحديد والصلب والسفن. ومع ذلك كانت لا تزال المصدر الأكبر للفحم، وكان متوسط إنتاجها السنوي من الفحم أقل بكثير من نظيره في الولايات المتحدة، وكانت ألمانيا تصدر ما يقارب نصف الفحم الذي تصدره بريطانيا، بالرغم من أنها تستورد الفحم أيضًا من بريطانيا من أجل صهر الحديد في منطقة الرور. كانت فرنسا، التي تفوقت عليها منافستها الكبرى ألمانيا كدولة صناعية، في وضع أكثر ضعفًا بسبب

دونيتها في الصناعات الثقيلة التي كانت إمكانات حرب. وكان يُعتقد أنه في عام ١٩١٤ كانت نسبة إمكانات الحرب هي ألمانيا ٣ بريطانيا العظمى ٢، وفرنسا ١

نشأت تعقيدات أخرى في العلاقات بين القوى ليس بسبب تصدير الناس والبضائع وإنما الأموال. فخلال القرن التاسع عشر كانت بريطانيا المصدر الرئيسي لرأس المال، وكانت لندن المركز النقدي في العالم. وكما هو الحال في مجالات أخرى، فقد تراجع وضعها النسبي خلال الجيل الذي سبق عام ١٩١٤، فنزعت إلى تحويل استثماراتها من أوروبا إلى جنوب أميركا، والمستوطنات البريطانية، والولايات المتحدة، والشرق الأقصى والمناطق الاستوائية. أدى هذا بطبيعة الحال إلى تغيير اتجاه ومركز اهتماماتها السياسية والاقتصادية. في عام ١٩١٤ استثمرت حوالي ٤٠٠٠ مليون E عبر البحار في السكك الحديدية، وأحواض السفن، وأعمال الطاقة، والمناجم، والشركات الاستعمارية، والكابلات، والقروض للحكومات الأجنبية. كان هذا ما يقارب ربع إجمالي ثروتها، وحوالي نصف هذا الاستثمار الفرنسي عبر البحار كان في أراضي الإمبراطورية البريطانية والكومنولث. كان لدى الفرنسيين ما يعادل ١,٧٤٠ مليون جنيه إسترليني كاستثمارات أجنبية وهو ما يعادل سدس ثروتهم الوطنية، ولكن حوالي عُشر هذا المبلغ فقط استثمر في المستعمرات الفرنسية. كان أكبر استثمار لها في روسيا التي أقرضها الفرنسيون

حوالي ٤٠٠ مليون جنيه إسترليني بحلول عام ١٩١٤. تم تشجيع ذلك رسميًّا وربط بأهداف السياسة الخارجية - لضمان تحالف الروس مع ألمانيا. وبلغت الاستثمارات الألمانية الخارجية نحو ١,٢٥٠ مليون جنيه إسترليني، خُمسها كان في إفريقيا، وآسيا، والإمبراطورية العثمانية. كان الاقتصاد الدولي يرتكز على نظام نقدي دولي: كان هذا النظام هو الجنيه الإسترليني القائم على معيار الذهب وتديره مدينة لندن وبنك إنكلترا. ولخص البروفسور جي اتش كلافام تطورات العالم الاقتصادية كما يلي:

لقد أَكمل عصر الشركات الأخير، والذي كان دوليًّا بكل معنى الكلمة، التشابك الاقتصادي بين الدول... لم تكن الدول تشتري وتبيع فيما بينها على نطاق غير مسبوق وفقط، ولم يكن فقط من الممكن للمملكة المتحدة أن تستورد ما يقارب أربعة أخماس قمحها، وفرنسا ثلث فحمها، وألمانيا تقريبًا كل صوفها، ولكن بسبب سهولة نقل وحركة الحصص السهمية، أصبحت الدول في كل عام مالكة جزئيًّا لموارد بعضها البعض إلى حد كبير جدًّا. فالشركات التي يقع مقرها الرئيسي في بلد ما لديها مُنشآت صناعية وشركات تابعة، و"مصالح" من نوع ما أو آخر في بلد مجاور، أو تقريبًا في كل الدول المجاورة وفي العديد من الدول النائية... ومع السكك الحديدية والتلغراف أصبح العالم سوقًا واحدةً. ومع انتشار قانون الشركات الموحد وقانون الممارسة التجارية الموحد، أصبح العالم يميل ليصبح كيانًا اقتصاديًّا

واحدًا.[٥]

لكن إذا أصبح العالم بهذا المعنى سوقًا واحدة، لكانت هناك علامات على أنها سوق سريعة التغيير، وأن الدول الأوروبية الصناعية قد تتوقع منافِسين جددًا أقوياء في السوق. انتشرت الصناعة بسرعة إلى آسيا، حيث كان بمقدور مخزونات العمالة الرخيصة أن تخفض تكاليف الإنتاج. كانت هذه المدخرات الرئيسية لليابان ولروسيا. فقد كان عدد سكان اليابان في عام ١٩١٤ أكثر من ٥٠ مليون نسمة، ومعدل الزيادة السنوية ١٪ إلى ٢٪ بحيث إنه بحلول عام ١٩٥٠ أصبحت النصف بالرغم من فترات الحرب الطويلة. ولم توفر كوريا التي ضمتها عام ١٩٠٥، سوى منفذٍ ضئيلٍ للهجرة؛ لأنها كانت مكتظة بالسكان. كانت اليابان فقيرة بكل مواردها الطبيعية الأخرى ومرغوبة بالنسبة لدولة صناعية؛ لأنها كانت تملك القليل من الفحم والحديد. والمادة الخام الوحيدة التي تأمُل بإنتاجها بكثرة كانت الحرير، وأمَّنت الدولة رأس المال لتعزيز هذه الصناعة. وبتشجيع من الحكومة تم اعتماد وسائل صناعية غربية، وظهرت مدن صناعية وتجارية ضخمة مثل كوبي، وأوساكا، ويوكوهاما، وناغازاكي. عند مطلع القرن بدأ الإنتاج الصناعي الياباني كمثيله في الولايات المتحدة، يتجاوز مرحلة إرضاء السوق المحلية وأصبح يبحث عن أسواق للتصدير عبر البحار. ومثل بريطانيا العظمى قبل قرن من

٥ كلافام: التنمية الاقتصادية في فرنسا وألمانيا. (١٩٢١)، ص. ٤٠١.

الزمان، سرعان ما أصبحت اليابان تعتمد على وارداتها لإطعام نفسها وعلى صادراتها لشراء جزء كبير من موادها الأولية. كانت تهدف إلى أن تصبح ورشة عمل الشرق الأقصى، وأن تستحوذ صناعةُ نسيجها ومصنوعاتها الأخرى على أسواق آسيا والمحيط الهادئ. الانشغالات الكاملة وصعوبات القوى الأخرى خلال الحرب العالمية الأولى أعطتها فرصًا كبيرة للتوسع. النهوض المفاجئ لليابان إلى مرتبة قوة رئيسية في العالم في الشرق الأقصى ربما كان التأثير الوحيد الكبير للحرب العالمية الأولى.

في بقية أنحاء آسيا، وفي إفريقيا وجنوب أميركا، كانت هذه الميول أقل تطورًا. في روسيا، والهند، والصين بدأ التصنيع، الذي يعتمد على الآلات ووسائل النقل التي تعمل على الطاقة، في إحداث تأثيرات كبيرة. في عام ١٩١٣ كانت روسيا تُنتج نصف كمية الحديد الخام الذي تنتجه فرنسا، ولكن ما يقارب ثلثي كمية ما تنتجه من الفولاذ. وتم إنشاء صناعاتها الثقيلة وسككها الحديدية من استخدامها لرأس المال الأجنبي بشكل رئيسي. وأدى استكمال سكة الحديد السيبيرية إلى صادرات أكبر من السلع القطنية في الأسواق الصينية. لكن في نفس الوقت بدأ كساد صناعي خاصة في صناعاتها الثقيلة واستمر حتى عام ١٩٠٨. ومنذ عام ١٩٠٨ حتى اندلاع الحرب استمر التصنيع بمعدل من التقدم مقارنة بالمعدل التي خططت له حكوماتها البلشفية. وتضاعفت كمية الفحم المستخرج من حوض دونتز

بين عامي ١٩٠٥ و١٩١٣ كذلك الأمر بالنسبة إلى إنتاجها من الحديد، وعلى الرغم من ذلك فإن تسعة من الروس من أصل عشرة كانوا لا يزالون يكسبون رزقهم من الزراعة، وكانت أساليبهم في الزراعة بدائية للغاية.

في الهند كان التصنيع مرتبطًا بالتغريب وهذا بدوره مرتبطٌ بالحكم البريطاني. وبما أن الهند كانت أفضل مستهلك لبريطانيا فلم يكن لدى الحكومة الهندية حافزٌ كبيرٌ لتشجيع التصنيع، وحتى عام ١٩١٤ سمحت سياستها بتطوير التجارة والصناعة الهندية بدلًا من التخطيط أو الترويج لها. فقد كانت الهند تفتقد إلى اليد المرشدة الإيجابية لحكومة أبوية التي تمتعت بها روسيا القيصرية، وهذا ما أثَّر على تعريض اقتصادها لمنافسة الإنتاج البريطاني الأكثر تصنيعًا. ولذلك بقيت صناعاتها الرئيسية هي صناعة زراعة الشاي والقهوة والمطاط والتبغ وصناعات نسيج القطن والجوت، بالإضافة إلى الصناعات الثقيلة للفحم والحديد والفولاذ المتمركزة في البنغال وبهار.

تملك الصين، مثل الهند، موارد معدنية هائلة غير مستغلة وحتى غير مكتشفة، بما في ذلك خامات الحديد، والفحم، والتنغستن، والأنتيمون، والقصدير. لكن منتجاتها الرئيسية كانت الأرز والقطن، وبحلول عام ١٩١٤ كان تصنيعها بالكاد قد بدأ. مثل بقية آسيا، بقيت دولة زراعية بشكل رئيسي، مع مستوى منخفض للمعيشة بسبب نقص التصنيع وبسبب أساليب الزراعة المتخلفة وغير العلمية.

في إفريقيا كان الاهتمام الاقتصادي الأساسي للقوى الاستعمارية هو إيجاد مصادر للمواد الخام الرخيصة. وكان التوسع في نمو المواد الغذائية، الذي يمكنه لوحده أن يرفع مستوى المعيشة للسكان الأصليين، ذا اهتمام ثانوي: لكن بقدرٍ ما زاد تركيز رأس المال ومصادر العمل على تطوير استخراج وإنتاج المواد الخام للتصدير، زاد تدفق الدخل في تلك المناطق، وتحسن مستوى المعيشة. من المحتمل أن توفير نظام أكثر استقرارًا، وخدمات اجتماعية واتصالات أكثر تقدمًا، قد منح السكان الأصليين منفعة اجتماعية أكثر مما جلبته التنمية الصناعية من صعوبات.

في أميركا الجنوبية تم بناء السكك الحديدية (بمعدات ورأس مال بريطاني بشكل رئيسي) ومرة أخرى تم تطوير بعض المصادر المعدنية. لكن بدايات ثورة صناعية حقيقية في هذه القارة العظيمة، كما هو الحال في أجزاء من آسيا، لم تأتِ إلا بعد الحرب العالمية الأولى.

في عام ١٩١٤ كانت القوى الصناعية ذات الأهمية الكبرى هي قوى أوروبا الغربية، والولايات المتحدة، بالإضافة إلى اليابان المستعدة للتطور الذي أحدث ثورة في ميزان القوى في الشرق الأقصى. لكن الأنحاء الأخرى من العالم، المرتبطة بالقوى الصناعية إما بروابط الانتماء السياسي والتحالف (مثل الكومنولث وروسيا) أو بدورها في نظام الاقتصاد العالمي (مثل جنوب إفريقيا والمناطق الاستعمارية)، كانت ملزمة بالتأثر بحرب بين القوى

الكبرى. الحرب التي ستؤدي إلى زعزعة التجارة الدولية والثقة بها التي يقوم عليها نظام النقد والسوق الدولي. مما أدى إلى تصفية الديون القديمة وخلق ديون جديدة، وإفقار الدول الغنية لصالح أولئك الأكثر قدرة على اغتنام الفرص الجديدة (كاليابان). الحرب التي ستوضح الترابط الجديد للقارات بشكل أكثر دراماتيكية من التقدم من السلم.

٣- الخلفية الثقافية:

أشار الفيلسوف الإسباني أورتيجا جاسيت في كتابه الشهير إلى الحقيقة الإحصائية التي تقوم عليها ثقافة القرن العشرين[٦]. في القرون الاثني عشر قبل عام ١٨٠٠ وصل عدد سكان أوروبا الإجمالي إلى ١٨٠ مليون نسمة. وازداد عدد سكانها بين عامي ١٨٠٠ -١٩١٤ من ١٨٠ إلى ٤٦٠ مليون نسمة. تشكلت الولايات المتحدة بشكل رئيسي من فائض أوروبا. وناقش أن السرعة المذهلة لهذه الزيادة تعني أنه "تم إلقاء كومة تلو الأخرى من البشر على المشهد التاريخي بمعدل سريع بحيث أصبح من المستحيل إشباعهم من الثقافة التقليدية... في المدارس، التي كانت مصدر للفخر في القرن الماضي، من المستحيل القيام بأكثر من تعليم الناس تقنيات الحياة الحديثة، ووجد أنه من المستحيل تثقيفهم". إلى هذه الحقيقة المذهلة التي يجب أن نأخذها باعتبارنا في أي دراسة لتاريخ العالم منذ عام ١٩١٤، يمكن أن نضيف

٦ أورتيجا إي جاسيت: ثورة الجماهير (La Rebeliön de las Masas)، ١٩٣٠

التغيرات المماثلة في آسيا، بالإضافة إلى التغيرات في أوروبا وأميركا منذ عام ١٩١٤. فبين عامَيْ ١٨١٥و ١٩٤٠ تضاعف عدد سكان الهند من حوالي ٢٠٠ إلى حوالي ٤٠٠ مليون نسمة. وارتفع عدد سكان جاوة تحت الحكم الهولندي من ٥ مليون إلى ٤٨ مليون نسمة خلال نفس الفترة. وارتفع عدد سكان إفريقيا، الذي كان ثابتًا أو حتى متناقصًا في السابق، من ٩٥ مليون إلى ٧٠ مليون خلال نفس الفترة أيضًا. وبالمثل ارتفع عدد سكان أميركا اللاتينية من ٣٠ إلى ١٤٥ مليون نسمة. وهكذا فإن الثقافة الأوروبية لم تَضعُف فقط بسبب النمو الكبير للسكان الأوروبيين وانتشرت على نطاق واسع من سطح الأرض، وإنما القارات الأخرى الكبيرة شهدت بالتالي نفس "الزيادة في السكان" مع كل ما يتبع ذلك من ثورة ثقافية، وضغط على موارد العالم من غذاء وثروة، وعلى تحويل الجغرافيا البشرية بأكملها.

بحث مفكرون من جنسيات مختلفة بالإضافة إلى سيفيور أورتيغا أي جاسيت عن مفتاح لتفسير تاريخ القرن العشرين بناء على مبدأٍ ما: كانوا ينزِعون إلى تأكيد الجوانب المختلفة لهذا التحول في العالم. ففي ألمانيا كتب سبيجلر عن التطور الدوري للحضارات، وكتب هوشوفر عن تغير القوى الجيوسياسية في العالم. وفسر الإنكليزي السير هافورد ماكيندر في عام ١٩١٩ النمو والقوة الأوروبية بحسب "قلب الأرض" التي تمتد من نهر الفولغا إلى مانشوريا، وهي منطقة حساسة في "جزيرة العالم" الكبيرة، بما فيها أوروبا،

وآسيا، وإفريقيا. كما وصف رجل فرنسي بعد سنوات قليلة "الأوروبيتين" اللتين نشأتا منذ عام ١٨٧٠: "المنطقة الداخلية" أو "أوروبا البخارية" التي يحددها خط وهمي يربط غلاسكو، وستوكهولم، ودانزيغ، وترسيت، وفلورنسا، وبرشلونة حيث الصناعة الثقيلة والنقل السريع، والمختبرات العلمية والدافع لحريات دستورية أكبر، و"المنطقة الخارجية" التي تضم أيرلندا، ومعظم أيبيريا وإيطاليا، وكل أوروبا شرق ألمانيا وتشكوسلوفاكيا، التي هي بالغالب من المزارعين والفلاحين، وهكذا فهي تعتمد على المنطقة الداخلية في اختراعاتها ورؤوس أموالها المستعارة، وتقدمها الاقتصادي وثقافتها. ووراء هذه المنطقة الخارجية تقع مساحات شاسعة من آسيا وإفريقيا الأكثر "تخلفًا" في التطور التقني وأكثر اعتمادًا على المنطقة الداخلية في رخائها. إن كل هذه التفسيرات التاريخية والجغرافية لتاريخ العالم الحديث تُلقِي بعض الضوء على الحقائق. وليس من الضروري قبول أيٍّ منها على أنها تحتوي الحقيقة الكاملة. لكنها بالتزامن تؤكد على الموضوعات الرئيسية لتاريخ العالم الحديث[٧].

إنها أولًا التأثير الانفجاري للهجرة، والتجارة، والاختراعات التقنية، والإنتاج الأوروبي على بقية أنحاء العالم. إن مثل هذا التأثير يحمل في طياته

٧ من بين آخرين قد يذكر كتاب أرنولد جي توينبي "دراسة للتاريخ" (٥٤-٢٩٣٤) وكتاب بي أيه سوروكين "الدينمكيات الاجتماعية والثاقفية" (٤١-١٩٣٧) وكتاب ألفريد ايه روبر "إعدادات النمو الثقافي" (١٩٤٤).

تداعيات كبيرة على ثقافة المناطق كلها. ثانيًا، هناك تحويل من حياة البشر في المجتمع الصناعي نفسه. وصفات هذا التحول هي النمو السريع للمراكز المدن وإنتاج المصانع، حاملة معها جميع مشاكل القرن التاسع عشر البريطانية لتكيف الناس مع بيئة أكثر مادية وضيقًا ومع نظام العمل الميكانيكي. وقد رافق هذا ارتفاع في مستوى معرفة القراءة والكتابة، والتعليم العام، والصحافة الشعبية، ووسائل الإعلام الأخرى التي تشكل الرأي الجماهيري، وتطوير منظمات اجتماعية جديدة شديدة التعقيد تطالب بخدمات التِّقَنِيِّين الماهرين والمديرين والإداريين. ثالثًا، رافق هذه التطورات تكثيف للمشاعر والأحكام المسبقة القومية، وصراعات جديدة بين المصالح الاقتصادية والاجتماعية المنظمة مثل جمعيات أصحاب الأعمال، والاتحادات التجارية، والمجموعات المهنية، والجهود المبذولة لتنسيق هذه الصراعات ضمن المجتمع القومي بوسائل من الآلية الديمقراطية للحكومة الممثلة والاقتراع العام. هذا النمط من التطور في بريطانيا في القرن التاسع عشر انتشر بسرعة في أوروبا الغربية والولايات المتحدة، وانتشر في القرن العشرين إلى حد ما إلى كل قارة وبلد. وبحلول عام ١٩١٤ لم تكن هناك سوى بعض الدلائل على احتمال حدوث ذلك. فلم تَسِرِ العملية، باستثناء اليابان، لحد الكشف عن العواقب والتعقيدات.

لم تصبح الإمكانيات الكاملة للاتصالات والنقل السريع واضحة عندما

لم يتطور الطيران والراديو، وكانت السيارات لا تزال في مهدها. وكان التضامن الاجتماعي للإنتاج الضخم و التخصص المفرط للعمل لا يزالا في المستقبل[٨]. وقد تطورت وسائل الإعلام ذات الرأي العام والترفيه بقدر ما تطورت الصحافة الشعبية الرائعة، والتي لعبت دورًا كبيرًا في تشكيل الشجن والمنافسات الدولية للعقد الذي سبق عام ١٩١٤. كانت السينما موجودة لكن على نطاق ضيق. وكان البث الإذاعي والملاعب الرياضية الواسعة، الذي أصبح ممكنًا بفضل التوسع الكهربائي، بمثابة متع غير معروفة بعدُ. في البلدان المتعلمة أصبحت الروايات البوليسية ومجلات الإثارة بمثابة نظام أدبي شائع جدًّا: وشقت طريقها المطبوعات الفوضوية كما هو الحال دائمًا. في معظم دول أوروبا الغربية (باستثناء إسبانيا والبرتغال) كان التعليم الابتدائي على مستوى الدولة موجودًا منذ جيل، لكن أسلوب الفن والموسيقى والأدب كان يحدده النخبة أكثر من ذوق العامة. كان من المفترض للتعليم، الذي لا يزال أمرًا يستحق التقدير والدفع لنيله، أن يتطلب الجهد وبعض التضحية من قِبَلِ من يناله. كانت فرنسا، وسويسرا، البرتغال منذ عام ١٩١٠، هي الجمهوريات الوحيدة في أوروبا. وجذبت

٨ ولكن في ٦ يناير ١٩١٤، أعلن هنري فورد بشكل مثير أنه بدلًا من الحد الأدنى السابق للأجور وهو ٢,٣٤ دولارًا ليوم عمل مدته تسع ساعات، فإنه سيدفع ما لا يقل عن ٥ دولارات ليوم عمل مدته ثماني ساعات. لقد حسب بحق أن الرجال لن يقوموا بعمل أفضل في ساعات أقصر فحسب، بل إن الكثير من الأجر الإضافي الذي يكسبونه سيتم إنفاقه في المستقبل على السيارات. كان هذا علامة بارزة في تاريخ العمل في الولايات المتحدة.

الرؤوسُ المتوجة بالتيجان والأرستقراطيون ذوي الألقاب الاهتمامَ والانتباه وشاركهم في ذلك لاعبو كرة القدم، ونجوم السينما، وفنانو الراديو. فقد بدأ للتو عصر الترفيه الكبير.

اهتم العلم والفلسفة كثيرًا بدراسة ظواهر العصر الجديد.

وكانت النظرية الداروينية لا تزال موضوعَ جدلٍ عنيف، وقبول مبادئها دلالة على التنوير التقدمي. كما وجد علم النفس وعلم الاجتماع، من خلال أعمال سيغموند فرويد، وغابرييل تارد، وإيميل دوركهيل، قاعدة علمية جديدة وسبلًا للتطور.

كان هنري بيرجسون يبحث عن تفسير فلسفي للقوى الأكثر غموضًا في حياة الإنسان ونشاطه، بينما استكشف الاقتصاديون الظواهر الغامضة المماثلة للبطالة والعوز[٩]. كان كل الدارسين الجادين لمشاكل الإنسان في المجتمع على دراية بحداثة تغيرات المجتمع ومخاطر هذه التغيرات. وقد تم تحقيق التقدم الأكثر إثارة للإعجاب في العلوم البيولوجية والطبية، وفي العلوم الفيزيائية والتكنولوجية. وكان الانقسام الكبير في الفلسفة بين أولئك الذين يعتقدون أن تطبيقًا صادقًا للوسائل العلمية في دراسة الإنسان والمجتمع يمكن أن يعطي نتائج مرضية، وبين أولئك الذين يشكون بهذا

٩ ظهر كتاب ويليام بيفريدج "البطالة" في عام ١٩٠٩، وتُرجمت أعمال بيرجسون الرئيسية إلى الإنجليزية قبل عام ١٩١٤.

الأمر وينكروه. هذا الانقسام، الذي يمكن اقتفاء أثره من خلال التناقضات بين المدارس المتنافسة للأدب والفن بالإضافة إلى الفلسفة، ربما يكون السمة الرئيسية لثقافة العالم في القرن العشرين.

من القرن التاسع عشر تم توريث التقاليد القوية للوضعية المرتبطة باسم أوغست كونت الذي طورها ونظمها. وبحلول عام ١٩١٤ أصبحت العقيدة الأرثوذكسية للعديد من الفلاسفة ذوي النفوذ. كان معتقدها الرئيسي أن الفيلسوف يجب أن يتبنى معيار العالم للحقيقة: إنها نظرية أو مبدأ صحيح بقدر ما يمكِّن المرء من التنبؤ بالكون المادي والتحكم به إلى حد ما. ومن هنا كان من المغري الانتقال إلى البراغماتية التي لخصها الفيلسوف الأميركي وليام جيمس بأنها تعني "نحن لا يمكننا رفض أي فرضية إذا نتج عنها عواقب مفيدة للحياة". كانت هذه النظرة العقلية في بعض النواحي وريثة النظرية النفعية، وتتوافق بشكل ملائم مع عصر التصنيع والتقدم المادي لدرجة أنها حظيت بقبول واسع. كان نظيرها "النظرية الواقعية" أو "الطبيعية" في الفن: التي وجدت تعبيرًا في الروايات ذات الأهمية الاجتماعية، وفي دراما إبسن، وشو، وجالسورثي، والميول الفكرية القوية في جميع الفنون.

في رد فعل عنيف ضد هذه النظرة كانت هناك جدالات فلسفية تتراوح بين اللاأخلاقية والمعادية لفكر الألماني فريديريك نيتشه (الذي توفي في عام ١٩٠٠) إلى تمجيد الحدس ضد العقل في كتابات هينري بيرجسون (الذي

توفي عام ١٩٤١). على الرغم أنه كان لديها بعض الصلات مع حركة بدايات القرن التاسع عشر الرومانسية. نزعت هذه الأفكار لأَنْ تكون أرستقراطية ومعادية للديمقراطية. في الفن كان لديهم نظيرهم في روايات مارسيل بروست (الذي ظهرت معظم أعماله بعد عام ١٩١٨)، في إحيائها للرمزية، وفي النظرية التكعيبية لماتريس وبيكاسو. في بعض البلدان خاض الفلاسفة المثاليون أيضًا معركة قوية قادها أوكسفورد هيجليانز في إنكلترا وجينتيل وكروس في إيطاليا.

لكن الفلاسفة والفنانين غير التقليديين كانوا متقدمين على النظرية السياسية للرأي العام في تحديهم. إن اكتشاف أن الناس -خاصة الناس في الجماعة- كانوا مدفوعين في أفعالهم على الأقل بدوافع وغرائز غير عقلانية بقدر ما كانوا مدفوعين باعتبارات عقلانية أو فكرية، لم يلقوا بعدُ في الفوضى الافتراضات الراديكالية واللبرالية القديمة. في بريطانيا اعتبر الفابيانيون أنفسهم كطلاب وممارسين "للهندسة الاجتماعية": وإذا كان هناك الكثير من الكلام عن دور العنف و"الأسطورة " الاجتماعية في القوى التي تشكل المجتمع الصناعي المدني الحديث، فإن ذلك كان لا يزال مرتبطًا بالنقابيين الجامحين من أمثال سوريل (الذي تأثر كتابه تأملات حول العنف بنيتشه وبيرجسون، في عام ١٩٠٦). لم يأخذ معظم المفكرين اللبراليين والرجال العمليين الأمر على محمل الجد تمامًا كما تم التعامل مع التكعيبية على أنها

غريبة. حتى توحيد حركات العنف المتطرف في بريطانيا مثل الإضرابات الكبيرة، والتحريض على حق الاقتراع، والاضطرابات الأيرلندية، كان يعتبر اضطرابًا مؤقتًا والذي يمكن قمعه بتعامل الحكومة معه بحزم. لقد كانت الثورات حتى الآن أمورًا تحدث فقط في أوروبا الشرقية أو أميركا اللاتينية. ألم تتمكن فرنسا من الحفاظ على الجمهورية الثالثة لأربعين عامًا؟

كان للفجوة بين التفكير السياسي والواقع نظير لها في تزايد انفصال الفنان عن المجتمع. فقد عانى الفنان المبدع من نمو التخصص، وكان ينظر إليه على أنه اختصاصي من نوع خاص، ومن المحتمل أن يكون غير مفهوم لعامة الناس. الروائيون والمسرحيون المهتمون بالأمراض الاجتماعية لزمنهم -تولستوي و ويلز، إبسن وشو- بَقَوا مفهومين بشكل عام؛ لأنهم كانوا يتبعون التقليد الطبيعي. لكن الرسم والشعر والموسيقى عانَوا من اللامبالاة وعدم التعاطف من قِبَل العامة (لم تظهر جماعة تشارلز بيغي إلا بعد وفاته في معركة عام ١٩١٤). فكانت النتيجة الغموض والتقنية من جانب الفنانين المبدعين، وإفقار مقابل في الذوق العام. كان الفنان يميل إلى الانغماس إما في التعبير عن الذات الغريب الأطوار مثل التكعيبية والانطباعية المتطرفة، أو في السعي إلى الهروب، مثل غوغان، إلى أجزاء غريبة من العالم التي لا تزال خالية من التصنيع. من ناحية أخرى فإن الباليه الروسي على أوروبا الغربية، الذي بدأ في عام ١٩٠٩ مع الموسم الأول لشركة دياغيليف في فرنسا، كان له

تأثير كبير على الذوق العام.

ومع ذلك فإن عدم الاتساق الجديد -الذي أدى بعد الحرب إلى توليد السريالية- كان له جذور مع الوضعية والعلم. إن الرغبة الشديدة بالمادية، التي كانت موجودة دائمًا في القرن التاسع عشر، أوجدت تعابير فظة وبسيطة جدًّا. وأعطت الدارونية مكانًا "للدارونيين الاجتماعيين" الذين كانوا يرون التقدم البشري على أنه نتيجة لنضال جسدي، وحتى بالنسبة للعنصريين من أمثال هيوستون ستيوارد تشامبرلن الذي رأى في الدم مفتاحَ تحسينِ النسل للتاريخ البشري. وربما كان التراجع بالإيمان والالتزام الديني أحد أعراض أكثر من كونه سببًا لهذه المادية؛ لأن الدين في القرن التاسع عشر كان في كثير من الأحيان متوافقًا مع نظرة مادية خطيرة. ربما كانت موجودة في التفاني للتقدم العلمي الذي شجعته أحداث القرن التاسع عشر. لقد بدا من البديهي أنه بمجرد دراسة العالم المادية وكيفية عمله، وبمجرد القيام بذلك باستخدام تقنيات علمية تجريبية، يمكن تحصيل المعرفة وإحراز تقدم حقيقي. لكن إذا كان علم النفس الجديد قد كشف عن جوانب غير معروفة من الطبيعة البشرية، أليس من "الواقعي" أيضًا بنفس الدرجة استكشاف هذه الجوانب والتأكيد عليها في عملية لا تهاجم المذهب الفكري السائد فحسب، بل حتى الافتراضات العقلانية التي تطور عليها العلم نفسه وبحلول عام ١٩١٤ كانت النتيجة فوضى بالعقول وبعض الحيرة.

كان مشهد العالم في عام ١٩١٤، بأوسع معانيه، مشهدًا يتسم بترابط اجتماعي أكثر شدة مع انفصال سياسي أكثر حدة، مع تقدم اجتماعي واقتصادي، بمعنى ارتفاع مستويات المعيشة، مجتمع مع ازدياد التوتر داخل المجتمع بين رأس المال والعمل، ومع تقدم مادي كبير مجتمع مع افتقار ثقافي وفوضى. من الواضح أنه كان عالمًا في حالة من التقلب والتغير السريع. ومع ذلك ففي معظم الدول الغربية مقارنة مع عالم الستينات، كان ذلك زمن من الأمن والتفاؤل. إن الخطوات التي أصبح بها هذا العالم عالم الستينات، والتي بالقيام بها اكتسب الكثير من الثروة ونشر الرفاهية، لكنه خسر بشدة الأمن والتفاؤل، هي موضوع الفصول المتبقية من هذا الكتاب.

٢

الحرب العالمية الأولى

١٩١٤- ١٩١٨

١- مسائل متعلقة:

هناك العديد من الطرق التي كانت بها حرب ١٩١٤-١٨ غير مسبوقة في تاريخ البشرية. استمرت الحروب السابقة، مثل

الثورة الفرنسية والحروب النابليونية، لفترة أطول وشارك فيها عدد كبير من الشعوب. لكن كانت هذه أول حرب للجماهير، التي كما وضحناه فقد ازداد عددها بشكل كبير منذ عام ١٨١٥. لقد كانت أول صراع عام بين الدول القومية شديدة التنظيم في القرن العشرين، والتي كانت قادرة على السيطرة على طاقات جميع مواطنيها وأتباعها، لحشد القدرة الإنتاجية للصناعات الثقيلة، والاستفادة من جميع موارد التكنولوجيا الحديثة لإيجاد وسائل جديدة للتدمير. كما كانت أيضًا أول حرب على نطاق واسع كاف لزعزعة الاقتصاد في العالم، الذي أصبح في القرن الماضي متماسكًا. ربما كان واضحا من البداية أن حربًا كهذه ستكون أكثر تدميرًا للحياة البشرية والثروة المادية من أي حروب سابقة، كما أنها أبعد مدى، ولا يمكن حصرها،

ولا يمكن السيطرة على أعقاب كوارثها. إنها الحرب الكبرى الأولى في التاريخ التي كان يوجد فيها مثل هذا التباين الكبير بين عواقبها وإنجازاتها والأغراض المعلنة لأولئك الذين خاضوا الحرب أولًا. لهذا السبب من الضروري التمييز بوضوح بين المسائل المتعلقة بها بوضوح عندما بدأت، والمسائل التي أصبحت معنية بها قبل أن تنتهي، والتمييز بشكل خاص من كليهما العواقب التي أصبحنا نعرف الآن أنها انبثقت منها.

عندما دخلت الإمبراطورية النمساوية المجرية الحرب مع صربيا في عام ١٩١٤ وعندما وقفت روسيا إلى جانب صربيا، بلغت المسألة الشرقية في القرن التاسع عشر ذروتها. لم تستطع إمبراطورية السلالات القومية المتعددة للنمسا المجرية أن تتحمل نمو صربيا دون أن تتعرض لخطر أن تستمر بالتفكك إلى مكوناتها القومية. لم تتمكن إمبراطورية روسيا القيصرية من تحمل التوسع النمساوي في دول البلقان دون خسارتها جاذبيتها للشعوب السلافية في أوروبا الشرقية. عندما احتشدت ألمانيا إلى جانب النمسا المجرية وفرنسا إلى جانب روسيا وصربيا، كان ذلك؛ لأن أيًّا منها لا يمكنها تحمل خسارة دعم حليفتها في حساباتها الأمنية ضد الأخرى. وعندما غزت ألمانيا بلجيكا، التي تعهدت هي والقوى الغربية الأخرى احترام حيادها، كان ذلك بسبب خطة شليفن، المرسومة قبل عدة سنوات من أجل مثل هذه الحالة الطارئة، التي جعلت من الضروري للجيوش الألمانية أن تحاول توجيه

ضربة قاضية لشمال فرنسا و باريس قبل أن تتمكن روسيا من المهاجمة وقبل أن يصبح الدعم البريطاني المحتمل فعالًا. عندما أعلنت بريطانيا العظمى الحرب على ألمانيا، كان أحد أسبابه انتهاك ألمانيا لتعهد مشترك باحترام الحياد البلجيكي، وسببه الآخر؛ لأن كلًّا من الاتفاقيات البحرية المبرمة مع فرنسا والخوف من القوة البحرية الألمانية جعلا من الضروري أن تقف بريطانيا إلى جانب فرنسا في مواجهة هذا الهجوم. وعندما أعلنت اليابان الحرب على ألمانيا كان ذلك بهدف الاستيلاء على امتيازاتها في الصين وفي جزرها في المحيط الهادئ. وعندما انضمت الإمبراطورية العثمانية التركية وبلغاريا إلى ألمانيا، بعد بعض التأخير، كان ذلك؛ لأن إحداها كانت عدوة لروسيا والأخرى كانت ترعى المظالم ضد صربيا. وعندما انضمت إيطاليا في عام ١٩١٥ إلى بريطانيا وفرنسا وروسيا، كان السبب أنها، في معاهدة لندن السرية في ذلك العام، تم وعدها بمكاسب إقليمية على حساب تركيا والنمسا مما أدى إلى توقعها مكاسب استعمارية.

وهكذا فإن دخول كل من الأطراف المتحاربة كان يتحدد بسبب اعتبارات الأمن القومي والقوة القومية. فإذا كانت التجارة، كما اعتقد المتفائلون في القرن التاسع عشر، بمثابة رابطة للمصالح والصداقات بين الدول، فإن ألمانيا وبريطانيا يجب ألا تجدا نفسيهما على طرفي نقيض، ويجب على ألمانيا أن تكون على علاقات ممتازة مع معظم جيرانها الأوروبيين. كما

أشار اللورد كينز "لقد أرسلنا صادرات إلى ألمانيا أكثر من أي دولة أخرى في العالم باستثناء الهند، واشترينا منها أكثر من أي بلد في آخر في العالم باستثناء الولايات المتحدة"[١٠]. كانت أفضل عميل لروسيا، والنمسا المجرية، وإيطاليا، وسويسرا، وبلجيكا، وهولندا، والنرويج، وثالث أفضل عميل لفرنسا. وكل دولة تقع شرقها قامت بأكثر من ربع إجمالي تجارتها معها. هذه الروابط التجارية، التي تطورت على نطاق واسع بعد عام ١٨٩٠، لم تفعل شيئًا لمنع أو تغيير تنسيق الأطراف المتحاربة. ولم تؤدِ إلا إلى تفاقم الاضطراب الاقتصادي الناجم عن هزيمة ألمانيا في عام ١٩١٨.

كانت هذه المسائل تتعلق إلى حد كبير بالمخاوف وانعدام الثقة في القارة الأوروبية، لكن لم يكن لها علاقة تذكر بالمنافسات الاستعمارية خارجها. على الرغم من أنه تم سحب المستعمرات للتجنيد في القوات، واحتشدت مناطق السيادة عبر البحار إلى جانب بريطانيا، إلا أن الحرب في جوهرها كانت حربًا أوروبية القتال فيها من أجل قضايا أوروبية. لهذا السبب كان عنوانها الأصلي "الحرب العظمى" ملائم أكثر من عنوانها اللاحق "الحرب العالمية الأولى". لو أنها انتهت، كما أمل وخطط الألمان بعام ١٩١٥، بهزيمة فرنسا وانهيار روسيا المالي والإداري، ودون مشاركة بريطانيا العظمى، لكانت النتيجة توطيد الأسر الحاكمة للإمبراطوريات القارية في وسط وشرق أوروبا. ولكانت

١٠ جي إم. كينز: العواقب الاقتصادية للسلام (١٩١٩)، ص. ١٥.

عاقبتها الرئيسية توسيع النفوذ الألماني إلى البلقان والمستنقعات الشرقية، مع فتح الأبواب إلى الشرق الأدنى والأقصى، والتوسع الاستعماري عبر البحار. في هذه الحالة لن تعتبر تاريخيًّا حربًا عالمية أولى، وإنما الحرب الإمبراطورية الألمانية الرابعة[١١]، ومن المؤكد أنها كانت ستؤدي إلى حرب خامسة، ستكون بالتأكيد حربًا عالمية. بهذا المعنى، كان قبل كل شيء مشاركة الكومنولث البريطاني، القوة الأكثر انتشارًا على مستوى العالم، هو الذي حولها إلى حرب عالمية. كان للرفض البريطاني بالبقاء على الحياد كما كانت تأمل ألمانيا يعني أيضًا أن الولايات المتحدة ستضطر في النهاية إلى التخلي عن سياسة الحياد؛ لأن مشاركة الكومنولث ضمنت أنها ستكون حربًا طويلة، لن تسمح فيها أميركا للبحرية البريطانية بأن تضعف كثيرًا دون أن تنضم بنفسها لضمان أمنها.

لكن على الرغم من كل مزايا الإدراك التاريخي المتأخر، يمكننا أن نرى الآن أنَّ هذه التداعيات كانت موجودة منذ عام ١٩١٤ عندما فشلت خطة شليفن، إلا أنها لم تكن واضحة في ذلك الوقت. فما إن بدأت الحرب تغيرت الدوافع لاستمرارها. كان على فرنسا أن تستمر بالقتال من أجل البقاء؛ لأنها تعرضت للغزو، كذلك الأمر بالنسبة لروسيا وصربيا. وكان على ألمانيا، التي واجهت الرعب التقليدي للحرب على جبهتين، أن تضرب

١١ كانت الحروب الثلاثة الأولى هي حروب بسمارك في عام ١٨٦٤ ضد الدنمارك، وفي عام ١٨٦٦ ضد النمسا والمجر، وفي عام ١٨٧٠ ضد فرنسا.

بشدة أولًا في الغرب ثم في الشرق لحماية نفسها من الغزو والانهيار. ولم يكن أمام الإمبراطوريتين النمساوية والتركية سوى خياري الحرب أو الانهيار الداخلي. كان لدى بريطانيا العظمى وحدها قدر من حرية الاختيار، على الرغم من أنه لا يمكنها المخاطرة بنصر ألمانيا النهائي، بمعنى أنه يمكنها أن تخطط لحرب طويلة الأمد من الحصار والاستنزاف دون المخاطرة المباشرة بتعرضها للغزو. على نفس المنوال، كان للولايات المتحدة هامش أوسع للاختيار ووقت للقيام بذلك.

حتى عام ١٩١٧ لم يسمح توافق القوى بأي مسائل أيديولوجية واضحة. كانت الدول البرلمانية والديمقراطية، بريطانيا، وفرنسا، وبلجيكا، متحالفة مع الإمبراطورية الأكثر رجعية، روسيا القيصرية. وكانت ألمانيا متحالفة مع خصمها ومنافستها السابقة، النمسا المجرية، ومع ضحيتها المحتملة، الإمبراطورية العثمانية. زعمت القوى الغربية أنها تحارب النزعة العسكرية والإمبريالية الألمانية، لكنها كانت هي نفسها قوى استعمارية، وكانت فرنسا بشكل تقليدي إحدى أكثر الدول العسكرية في أوروبا. لم تكن الادعاءات المثالية صالحة إلا بقدر ما كانت القوى الغربية تدعم قضية تقرير المصير لصربيا والقضية الهامة المتمثلة في قدسية التزامات المعاهدات في قضية بلجيكا. بخلاف ذلك فإن مثل هذه الادعاءات تخفي حقيقة المخاوف الدولية المريرة التي كانت خلال السنوات منذ ١٨٧٠.

لكن منذ عام ١٩١٧ أصبح من الممكن الحديث بصدق عن صراع الأيديولوجيات. عندما وقَّعت روسيا في خضم الثورة الداخلية على معاهدة بريست سيلوفسك وانسحبت من الحرب، وعندما دخلت الولايات المتحدة إلى جانب التحالف الغربي، أصبح الانحياز واضحًا. فمن الآن فصاعدًا أصبحت الحرب في الأساس، حربًا بين القوى البحرية الغربية التي كانت أيضًا قوى استعمارية وديمقراطية، والقوى المركزية والشرقية للسلالات الحاكمة التي كانت إمبراطوريات قارية ومعادية للمثل الديمقراطية. هذا التحول في طبيعة الحرب كلها والذي حدث في عامها الثالث لم يكن يحدد نتيجته وحسب، بما أن ثقل أميركا ضمن النصر الغربي، بل أيضًا جهز المنصة لانتصار مثل مؤسسات الحكومة الديمقراطية التي سيطرت على عقد الأعوام ١٩٢٠. لا بد أن نكرر بأن هذه النتيجة لم تكن في أذهان أيٍّ من الدول المشاركة الأصلية في عام ١٩١٤. وبهذه الطريقة تحولت أكبر الحروب القومية في القرن التاسع عشر إلى الحروب الأيديولوجية الأولى في القرن العشرين.

استمرت الحرة اثنين وخمسين شهرًا وهي فترة طويلة بالمقارنة مع الحرب البسماركية الخاطفة، لكن بالمقارنة مع الحروب الأوروبية العامة الأخرى كانت قصيرة. الجديد لم يكن المدة، وإنما شدتها الشرسة والمركّزة: السرعة التي أثبتت بها القوى الصناعية الكبرى أنها تحشد جيوشًا وإمدادات جديدة،

وتنقلها لمئات الأميال، وتقذفها ضد بعضها البعض في تدمير متبادل. أظهر الطرفان أنهما متساويان تقريبًا في مهارتهما وقدرتهما على القيام بذلك بحيث إن السمة الرئيسية للحرب في الغرب كانت الجمود المطول، مع قوة مركزة جدًّا على كلا الجانبين بحيث بدا أن القوة التي لا تقاوم قد واجهت عقبات ثابتة. وهكذا، من المفارقة أن حرب السرعة والحركة السريعة أصبحت أرض معركة جمود واستنزاف.

كان لهذه الطبيعة المرهقة للحرب الحديثة أهمية بالنسبة لطبيعة المسائل المعنية. وكانت كل حكومة مدفوعة إلى الضغط على شعبها بشكل أكبر من أجل بذل المزيد من الجهود، ليس فقط في قواتها المسلحة بل أيضًا على الجبهة المادية وفي الإنتاج الصناعي. فلم تفرض بريطانيا التجنيد الإلزامي حتى عام ١٩١٦ ولم تفرض فرنسا ضريبة الدخل لتمويل الحرب حتى عام ١٩١٧: لكن كان على كليهما اللجوء إلى هذه الأساسيات للحرب الشاملة في النهاية. أدى الحصار البحري لألمانيا وغرق غواصات واردات بريطانيا الحيوية من الغذاء على فتح أعمال عدائية على الجبهات الداخلية. وأصبحت الحرب بشكل متزايد كصراع داروينى على البقاء. إن المناشدات من أجل بذل المزيد من الجهود الوطنية المتضافرة والشاقة لم تؤد إلى تكثيف المشاعر القومية فحسب، بل كانت مصحوبة بالمزيد والمزيد من الوعود لتحقيق عدالة اجتماعية كاملة بعد الحرب-"وجعل العالم آمنًا للديمقراطية"، "ومنازل صالحة

للأبطال"، والاعتراف الكامل بحقوق "تقرير المصير الوطني"، وما إلى ذلك. وبهذه الطريقة ساعد طابع الحرب ذاته على غرس المزيد من المثالية في أهداف سلم الحلفاء، وشجع على توقعات أكبر بالحرية والمساواة في السلم. وتزايد النقاش بأنه إذا تمكن التنظيم البشري والعزم على تحقيق مثل هذه المعجزات في الحرب، فإن بذل جهد مماثل في السلم بإمكانه أن يزيل جميع الأمراض الاجتماعية. وهكذا وسَّعت الحرب إلى حد كبير قائمة الشرور التي ظهرت في القرن التاسع عشر والتي اعتبرت قابلة للعلاج بالجهود البشرية، والتي لا يجب تحملها باعتبارها متأصلة في حسن الإدارة الخبيثة. لقد شجعت الإيمان بالكمال، والاستعداد لتجربة الإصلاح الاجتماعي والتخطيط الاقتصادي، وهو الأمر الذي كانت الثورة البلشفية لتعززه في الوقت المناسب بشكل أكبر. لقد تم تعزيز رفاهية الدولة بشكل كبير من قِبل دولة الحرب.

لقد أظهرت هزيمة روسيا وانسحابها أن الدول الاستبدادية غير مؤهلة للنجاة من ضغوط مثل هذه الحرب، وسرعان ما تم تأكيد هذا الأمر من خلال انهيار مماثل للإمبراطورية العثمانية والنمسا المجرية. في نفس الوقت أدى دخول الولايات المتحدة إلى غرس مثالية جديدة أكثر تفاؤلًا في أهداف الحلفاء للسلم. فقد جعل الرئيس ويلسون نفسه المتحدث الرسمي باسم المثالية والكمال. وقد أُسِيءَ فَهم نقاطه الأربع عشرة الشهيرة التي كتبها في شهر يناير عام ١٩١٨ من قِبَل أولئك الذين ناقشوها دون قراءتها. وبعيدًا

عن كونها بيانات عامة عن مبادئ أخلاقية غامضة، فقد تضمنت قائمة بأهداف محددة أعلن الحلفاء أنهم سيتبعونها في التسوية بعد الحرب: هذه الأهداف مثل استعادة الألزاك واللورين إلى فرنسا، وتحرير بلجيكا، وإعادة بناء بولندا، والجلاء الألماني عن أراضي روسيا والبلقان. لكنها بكونها ممزوجة بهذه الأهداف العادلة والقابلة للتحقيق فقد كانت هناك سلسلة من مقترحات ويلسون الأكثر إثارة للجدل: "تم التوصل إلى مواثيق مفتوحة علنًا" وهذا يعني نهاية ليس فقط للمعاهدات السرية وحسب بل أيضًا للدبلوماسية الحكيمة، "حرية البحار في السلم والحب على حد سواء"، وإزالة الحواجز وعدم المساواة في التجارة الدولية، وتخفيض التسلح، وتعديل على المطالبات والممتلكات الاستعمارية، وإعادة ترسيم لخريطة أوروبا وخاصة أوروبا الشرقية، على غرار "تقرير المصير القومي"، وفوق كل شيء إنشاء منظمة دولية جديدة لمنع الحرب. لقد بلور الرئيس مثل هذه الأفكار في سلسلة من الخطابات والتصريحات[١٢] اكتسبت جاذبية قوية كبرنامج ليبرالي مستنير لنوع جديد من صنع السلام. تتوافق هذه الصيغة القوية لأهداف السلم الأخلاقية مع التناقض الأكثر واقعية بين القوى المتحالفة وأعدائها. تمامًا كما كان الانتهاك الألماني الساخر للحقوق البلجيكية الذي جلب بريطانيا

١٢ وخاصة "المبادئ الأربعة" (فبراير)، و"النهايات الأربعة" (يوليو)، و"التفاصيل الخمسة" (سبتمبر). كانت هذه التصريحات اللاحقة مثالية وعامة بشكل متزايد، وتضمنت حتى "تدمير كل القوة التعسفية في أي مكان. . .' و"لا يوجد اتحادات أو تحالفات أو ميثاق خاص لأمم النمل" والتفاهمات داخل الأسرة العامة والمشتركة للعصبة.

موحدة إلى الحرب، فقد تم إشراك الولايات المتحدة من خلال الإعلان غير الإنساني عن حرب الغواصات غير المقيدة. كان الحلفاء قادرين على مناشدة القوميات المقسمة والمضطهدة في أوروبا الشرقية بشكل مباشر، كجزء من حربهم النفسية؛ لأن نجاحهم من شأنه أن يعطل تلقائيًّا إمبراطوريات السلالات الحاكمة: ويمكن تقديم هذه المناشدة بقوة أكبر بعد هزيمة روسيا، التي أحرج تحالفها بهذا الصدد الحلفاء، بحلول عامي ١٩١٧-١٨، تضافرت عدة عوامل بهذه الطريقة لتجعل الحرب بالنسبة إلى الحلفاء بمثابة حملة أخلاقية للمثل الليبرالية المميزة المتمثلة في احترام الالتزامات الدولية، والاستقلال الوطني، وتقرير المصير، وقيم الديمقراطية.

ومع ذلك فإن هذه المثالية القوية كانت، إن جاز التعبير، مفروضة بشكل كبير على الأهداف القومية الأكثر انفصالية، ولم تحل محلها. ولم يكن الحلفاء بأي حال من الأحوال على استعداد لتأييد مقترحات ويلسون. أصرت فرنسا، باعتبارها ساحة المعركة الغربية الرئيسية، على ضرورة قيام ألمانيا بدفع تعويضات عن أضرار الحرب. وكانت بريطانيا متشككة بشأن فكرة حرية البحار في "السلم والحرب"، مما يجعل حصارها لألمانيا مستحيلًا. كانت كلتاهما مترددتين بشأن إقامة تقرير المصير الوطني فيما كان ويلسون يميل إلى وصفه بأنه "مبدأ العمل الحتمي"، وتوقعتا صعوبات محاولة تطبيقه بشكل منطقي على مجموعة القوميات المتشابكة في البلقان. لقد اختبر الفرنسيون

أي تسوية ليس من خلال تأكيدها للعدالة المجردة بقدرٍ ما من خلال مدى تحقيقها للغايات الأساسية التي تقاتل من أجلها فرنسا: أي بقاؤها كدولة قومية وأمنها ضد الغزو الألماني. لقد حكمت بريطانيا عليها من خلال مدى قدرتها على إزالة خطر التنافس البحري الألماني بشكل دائم واستعادة توازن القوى المتساوية في أوروبا. كما حكمت عليها إيطاليا بالدرجة التي تنجز فيها الغايات التي نصت عليها معاهدة لندن، وبهذا المعيار كانت من البداية قوة غير راضية. وحكمت عليها قوميات دول البلقان من خلال مدى تمكينها لهم من تحقيق مطامحهم الوطنية في الوحدة والاستقلال، وهنا أيضًا كان من المحتم أن يصاب البعض بخيبة أمل؛ لأن أهدافهم غالبًا ما كانت متضاربة. وهكذا بالرغم من أن الحرب أثناء تقدمها انتقلت من مرحلة النضال القومي إلى مرحلة المثالية الأخلاقية والليبرالية، إلا أنها أُنهيت كمزيج من الاثنين: وكانت السمة الرئيسية للمشاكل التي واجهت صانعي السلام في عام ١٩١٩ هي على وجه التحديد هذا المزيج المحير من المناشدات الواقعية والأخلاقية.

٢- خدمة مارس:

يتطلب تقييم مكانة الحرب في تاريخ العالم الحديث بعض التقدير للجهد البشري والتضحيات المتعلقة به. كانت الحرب أقل ميكانيكية بكثير مما أصبحت عليه في الحرب العالمية الثانية، لذلك كانت في المقام الأول حرب

الجنود المشاة والمدفعية. حتى النقل بالمحركات كان لا يزال أمرًا جديدًا. وعلى الرغم من استخدام الحصار البحري من قِبَل كل الأطراف، إلا أن القتال البحري بين الوحدات الرئيسية كان بسيطًا بعد معركة جوتلاند عام ١٩١٦، لذا كانت حرب الجنود أكثر من كونها حرب بحَّارة. واستُخدِم الطيران للاستطلاع ومراقبة سلاح المدفعية والقصف العرضي: لكن قصف المناطق التي تقع بالمؤخرة حدث فقط خلال الأشهر القليلة الأخيرة. على الرغم من أن جهود الجبهة الداخلية في الأحداث والمعنويات المدنية كانت طوال الوقت أكثر أهمية مما كانت عليه في الحروب السابقة، فقد كانت لا تزال حرب جنود أكثر من حرب مدنيين. حتى انتشار المجاعة في روسيا وألمانيا ووباء الانفلونزا في نهاية الحرب، كان الجنود وليس المدنيون هم الذين أُصيبوا أو قُتلوا. ولم تسبب غارات زيبلين الألمانية على لندن الكثير من الأضرار. ونظرًا لحرب الاستنزاف الطويلة في الغرب والاشتباكات الضخمة بين القوات على الجبهة الشرقية، فقد كانت المشكلة المصيرية لكلا الجانبين طوال الوقت هي تجنيد الملايين من الرجال، وتدريبهم، ونقلهم، وتجهيزهم. كانت جهود الحكومات للتعامل مع هذه المشكلة دفعت بتأثيرات الحرب إلى قلب كل أسرة في كل دولة. باستثناء الولايات المتحدة التي كان لديها عند الهدنة ٤ ملايين رجل مسلح لكنها دخلت في الوقت المناسب لتكون حاسمة بما يكفي ولو أنها متأخرة أيضًا بما يكفي لتتكبد ١١٥٠٠٠ من الوفيات.

إن خدمة مارس في أوروبا كانت تعني مذبحة ممنهجة لعشرة ملايين رجلٍ معظمهم تحت سن الأربعين.

حتى المرحلة الأخيرة من الحرب كانت الأفضلية تقع بشكل كبير إلى جانب الدفاع، على الرغم من أن النظرية العسكرية الرائدة في كل من ألمانيا وفرنسا فضَّلت استراتيجية الهجوم. كان السبب الرئيسي لحرب الاستنزاف هو الرشاش. ولم يتمكن المشاة المسلحون بالبنادق والحِراب والقنابل اليدوية من التقدم ضده إلا بعد الاستعداد لنيران المدفعية الثقيلة. لذلك قام كل طرف بحفر خنادق محمية بالأسلاك الشائكة والمدافع الرشاشة، ولم يتمكنوا من إزاحته إلا بتكلفة باهظة من الأرواح[١٣]. في شهر أبريل ١٩١٥، استخدم الألمان في يبريس الغاز السام كعنصر مساعد لنيران المدفعية استعدادًا للهجوم. وثبت أنه غير حاسم، لكن بعد ذلك استخدم كل طرف الغاز أحيانًا حتى نهاية الحرب.

توضح معركة السوم في صيف ١٩١٦ المشكلة. فقد حشد الحلفاء ٢٠٠٠ مدفع ثقيل خلف جبهة طولها عشرة أميال، وقصفوا لمدة أسبوع بشكل متواصل خنادق العدو. في اليوم الأول للهجوم خسر البريطانيون ٦٠ ألف

١٣ من بين هؤلاء، قُتل أقل من نصفهم في معركة فعلية. أما الباقون فقد ماتوا بشكل رئيسي بسبب المرض، بما في ذلك حوالي ٢٥,٠٠٠ جندي ماتوا في وباء الأنفلونزا الكبير. خسرت المملكة المتحدة ٧٤٤٠٠٠ وبقية الكومنولث ٢٠٢,٠٠٠ وفرنسا ومستعمراتها خسرت حوالي ١,٤٠٠,٠٠٠ وألمانيا ١,٨٥٥,٠٠٠ والنمسا المجرية حوالي ١,٥٠٠,٠٠٠.

رجل. وبعد شهر لم يتقدموا سوى ميلين ونصف. في المعركة بأكملها خسر الألمان ٥٠٠ ألف رجل، وخسر البريطانيون والفرنسيون ٦٠٠ ألف. كان كل تقدم يجد العدو متحصنًا على بعد ميل أو ميلين إلى الخلف، ويجب أن تبدأ عملية القصف التحضيرية بأكملها من جديد. وهكذا استغرقت الهجمات الكبرى وقتًا طويلًا للتحضير ولم تحقق عادة سوى مكاسب قليلة جدًّا. لكن الحفاظ على مثل هذه الخطوط الدفاعية، وحتى شن هجوم مكلف للغاية يحتاج إلى ملايين من الرجال. كان استخدام الجيوش الكاملة، المحتشدة ككِباش ضارية، هو الشكل الأكثر براعة للحرب الذي يمكن أن يبتكره فن القيادة على كلا الجانبين. ونادرًا ما أدى إلى كسر خط الدفاع، وفي أحسن حالاته ضغطه إلى بعد بضعة أميال إلى الخلف.

سلاحان فقط يمكنهما انتزاع الأفضلية من الدفاع. كان أحدهما عبارة عن دبابة وعمود آلي. اخترع البريطانيون الدبابة واستخدموها مؤقتًا في معركة السوم. لكن العقل العسكري كان بطيئًا في إدراك احتمالاتها ودورها لم يكن حاسمًا. السلاح الآخر كان استخدام الطيران للقصف الذي اعتمد فقط في المرحلة الأخيرة للحرب. في هذه الأثناء من المحتمل أن أيًّا من المعارك الكبرى على الجبهة الغربية، بين معركة المارن الأولى في سبتمبر ١٩١٤ التي أحبطت خطة شليفن، ومعركة المارن الأخيرة في صيف ١٩١٨ التي حققت اختراقًا، يمكن أن يُقال: إنها فعلًا حاسمة. كان معظمها غير مربح؛ لأن

التقدم والمكاسب التي تم تحقيقها لم تكن متناسبة مع التكاليف. ففي عام ١٩١٦ صمد الفرنسيون في وجه الهجوم الألماني على فردان بتكلفة بلغت حوالي ثلث مليون رجل لكل منهما. وفي عام ١٩١٧ تقدم البريطانيون في معركة باسشيندیل خمسة أميال بالقرب من يبربس بتكلفة ٤٠٠ ألف رجل. حتى في عام ١٩١٨ كانت المكاسب الوحيدة في أي معركة كبرى في الغرب هي مكاسب سلبية مع أنها هامة متمثلة في إفقاد العدو السيطرة عليه. وهنا تكمن السخرية والمفارقة المتمثلة بأن ما يسمى الجمود وحرب الاستنزاف في الغرب استهلك الرجال كالمدافع بمعدل أكبر بكثير من أي حرب سابقة في التاريخ. حسب الفرنسيون أنه في فترة ما بين أغسطس ١٩١٤ وفبراير ١٩١٧ كان يُقتل رجل فرنسي كل دقيقة.

كما أن حرب الحركة الأكبر على الجبهة الشرقية لم تكن أقل تكلفة من الحياة البشرية، على الرغم من أن الأسباب كانت مختلفة بعض الشيء. فلم تكن الجبهة طويلة جدًّا بحيث لا يمكن السيطرة عليها بواسطة الخنادق الدفاعية وحسب، بل كان الروس يفتقرون إلى الرشاشات والمدفعيات. وبذلك استطاع الألمان، بأسلحتهم المتفوقة وتنظيمهم، أن يحققوا تقدمًا كبيرًا. لكن أثمن ما كان لدى الروس هو الفضاء والموارد البشرية الهائلة، وكان بوسعها تبديد كليهما ببذخ دون التعرض للهزيمة. في عام ١٩١٥ لوحده خسرت مليوني رجلٍ من القَتلَى أو المصابين أو الأسرى، وكان الألمان قد توغلوا

عميقًا في ليتوانيا وروسيا البيضاء. في عام ١٩١٦ خسرت مليونًا آخر. لكن كانت الجيوش الروسية لا تزال تسيطر على ساحة المعركة ورفضت التوقيع على هدنة. كان استيعاب الجيوش الألمانية بأكملها في الشرق على الرغم من مهارة ألمانيا في النقل السريع للرجال والإمدادات من جبهة إلى أخرى، بمثابة رصيد كبير للحلفاء الغربيين. كان هدفهم إبقاء روسيا في الحرب مهما كان الثمن ولكي يفعلوا ذلك أظهروا استعدادًا لوعدها بمكاسب على حساب تركيا بعد الحرب، بالإضافة لمساعدتها في تمويل مجهودها الحربي بكل طريقة ممكنة. نجحوا بهذه السياسة إلى درجة كبيرة. في عام ١٩١٧ عندما أطيح بالقيصر وشُكِّلت حكومة مؤقتة جديدة، هذه الحكومة أبقت روسيا في الحرب. ولم يتم إرسال تروتسكي للتفاوض على السلام مع ألمانيا إلا بعد الثورة البلشفية، والتي تم التوقيع عليها في بريست ليتوفسك في ٣ مارس ١٩١٨.

لقد أكدت القوميات ضمن الحدود الروسية الغربية، وبتشجيع ألماني، مطالبتها بالاستقلال: وبموجب المعاهدة وافق البلاشفة على خسارة فنلندا، وبولندا الروسية، وأوكرانيا، ومناطق البلطيق الثلاث: ليتوانيا ولاتفيا وإيستونيا. وعلى الرغم من أن ألمانيا لا يزال عليها المحافظة على بعض القوات في الشرق لتعزيز الاتفاقية، إلا أنها تحررت الآن من الحرب على جبهتين ويمكنها نقل الجيوش بأكملها إلى الجبهة الغربية. كما أنها حصلت

أيضًا على إمدادات إضافية في أوكرانيا مما ساعدها على النجاة من الحصار. لكن هذه المكاسب جاءت متأخرة جدًّا فلم تتمكن من التعويض عن التعزيزات الأميركية على الجانب الآخر.

لقد عَوَّض عنها أيضًا انهيار جميع حلفاء ألمانيا الرئيسيين. ففي أواخر عام ١٩١٧ كانت كلٌّ من تركيا والنمسا المجرية صامدتين وحتى إنهما حققتا انتصارات. فقد نجح الأتراك، المدعومين من قبل ضباط ألمان، بالسيطرة على الدردنيل ضد الهجوم العسكري والبحري البريطاني والفرنسي في عام ١٩١٥. وفي عام ١٩١٦ اجتاحت ألمانيا والنمسا المجرية صربيا ورومانيا (اللتين دخلتا الحرب مؤخرًا بشكل غير مناسب)، وفي عام ١٩١٧ هُزِم الإيطاليون في كابوريتو. لكن داخل كلتا الإمبراطوريتين كان الحلفاء قادرين على حشد القوميات المتمردة، وكانت التوترات الداخلية شديدة. فقد كانوا على استعداد للانقسام حالما بدت الهزيمة وشيكة، مما سبب قلقًا دائمًا لألمانيا. لهذه الأسباب عندما حانت النهاية، جاءت سريعة وكارثية. وكما لم يكن لدى أي قوة خطط جاهزة لحرب طويلة في عام ١٩١٤، كذلك الآن في عام ١٩١٨ لم يتوقع أحد أن تنتهي هذه الحرب بشكل مفاجئ بهذا الشكل. لقد قبض السلام في عام ١٩١٨ على رجال الدولة وهم غير مستعدين بشكل أكبر مما قبضت عليهم الحرب في عام ١٩١٤.

انتهت الحرب في الغرب كما بدأت بقرار بالغ الأهمية من القيادة العليا

الألمانية. وفي كل سنة من سنوات الحرب كانوا يضعون خطة جديدة تهدف إلى إنهاء الحرب بشكل سريع وحاسم. كانت خطة شليفن، التي نفذها مولتك في عام ١٩١٤، تهدف إلى تطويق شمال فرنسا وباريس بضربة قاضية واحدة. لكنها فشلت؛ لأنه أُجْبِر على سحب قواته إلى الشرق وإضعاف قوة الضربة، ولأن القوة الاستطلاعية البريطانية والفرنسية تصدت لها. قوبلت جهود هيندينبرغ في عام ١٩١٥ لضرب روسيا بإحباط مماثل. وتم إيقاف الهجوم على فردان، الذي كان يهدف إلى "نزف فرنسا إلى الموت"، من قبل بيتان. نجحت حملة الغواصات في عام ١٩١٧ تقريبًا في البداية لكن تم إحباطها من خلال التدابير الفعالة المضادة للغواصات وبمساعدة أميركية. كما أحبطت خطة لودينروف لعام ١٩١٨، التي كانت تهدف إلى فرض إسفين بين القوات البريطانية والفرنسية، من قبل القيادة الموحدة لفورش ووصول التعزيزات البريطانية والأميركية قوية وإمدادات.

الآن، في خريف عام ١٩١٨، مع إجهاد ألمانيا إلى أقصى حد، واستسلام حلفائها، وهبوط القوات الأميركية في أوروبا بمعدل ٢٥٠,٠٠٠ جندي كل شهر، أخطرت القيادة العليا الألمانية حكومتها أنها لا تستطيع الفوز بالحرب وأوصت بأنه يجب على ألمانيا أن تطالب بهدنة. وشدد الجنرال لودينروف على ضرورة تشكيل حكومة ديمقراطية خاصة بهذا الغرض، مصحوبة بإصلاحات دستورية تضمن ألا تقع مسؤولية قبول شروط الهزيمة على

عاتق الجيش والطبقة الأرستقراطية التي تسببت بالهزيمة. في هذه الأثناء، ولأسباب متناقضة تمامًا، كان الرئيس ويلسن يؤكد على أن السلام يجب أن يتم فقط مع ألمانيا الأكثر ديمقراطية. كما ترأس الأمير الليبرالي ماكس من بادين ائتلافًا ضم الاشتراكيين. وفي مواجهة التمرد في كيل في ٣ نوفمبر والإضراب العام في ٩ نوفمبر، تنازل القيصر فيلهلم الثاني عن العرش، وأُعلِنت ألمانيا جمهورية، وبعد يومين - في ١١ نوفمبر- تم التوقيع على هدنة. كانت القيادة العليا قد انتزعت النصر لنفسها من الهزيمة الوطنية. وانتهت الحرب بتواجد الجيوش الألمانية في فرنسا، لكن من دون تواجد قوات عدوة على الأراضي الألمانية، وهكذا نشأت أسطورة الجيش الذي لا يهزم. وبقي على الجمهورية الديمقراطية الجديد أن تتحمل اللوم على توقيع الهدنة وقبول شروط السلم. الطبقة العسكرية التي جعلت بروسيا قلب الرايخ الألماني عاشت لتقاتل يومًا آخر. حتى القيصر، الذي سرعان ما أُدِين كمجرم حرب، عاش بسلام في هولندا المحايدة حتى عام ١٩٤٢. هكذا كانت الثورة الألمانية في عام ١٩١٨، التي ولدت منها جمهورية فايمار البرلمانية.

في هذه الأثناء، قبل أن ينعقد مؤتمر السلام الموعود في باريس، تولت العديد من الدول الأخرى مسؤولية تقرير مصيرها. في أكتوبر ١٩١٨ اعترف الحلفاء باللجان القومية المتعددة التي تمثل المجموعات القومية للإمبراطورية الهنغارية النمساوية. في ١٣ نوفمبر ذهب آخر أباطرة هابسبرغ إلى المنفى،

وأصبحت كل من النمسا وهنغاريا جمهورية. وظهرت على الخريطة دول جديدة: تشيكوسلوفاكيا تحت قيادة تشيكية، ويوغوسلافيا تحت قيادة صربية، وبولندا التي تم إحياؤها، ورومانيا الموسعة. وظلت حكوماتها وحدودها غير محددة بالتفصيل، لكن مطالبتها بإنشائها والاعتراف بها كدول قومية جديدة أصبحت الآن أمرًا لا يمكن مقاومته. وظهرت في الشرق الأدنى بالمثل مجموعة من الدول العربية من أنقاض الإمبراطورية التركية. استمر القتال في تركيا لفترة طويلة بعد الهدنة الألمانية؛ لأن اليونانيين غزوا الأناضول بدعم بريطاني وفرنسي. فحشدت المقاومة التركية بقيادة مصطفى كمال، الذي بحلول عام ١٩٢٣ وبمساعدة حكومة روسيا السوفيتية الجديدة، طرد اليونانيين والحلفاء من شبه جزيرة الأناضول. وتم الإعلان عن جمهورية تركية جديدة تحت حكم كمال القوي في عام ١٩٢٣. ومن الشواطئ الشرقية لبحر البلطيق وصولًا إلى الخليج الفارسي، تم إنشاء حزام واسع من الدول الجديدة. وانفجرت الإمبراطوريات القديمة إلى شظايا، تاركة بين أوروبا وآسيا منطقة مضطربة من القوميات الجديدة، التي لا تزال تعاني من المظالم ضد بعضها البعض وتبحث عن دعم إحدى القوى العظمى أو أخرى. ومن المنظور الأطول للتاريخ، ربما كان هذا هو التغيير الأكثر أهمية في أوروبا الذي أحدثته الحرب.

أصبح ذلك ممكنًا بفضل الحقيقة الرائعة بأن كل من روسيا وألمانيا قد

هزمتا، لذلك كان هناك على طول الأراضي الشرقية ما يسمى "فراغ في السلطة". كان مصير الدول المتوسطة مثل بولندا الواقعة بين جارتين قويتين مثل ألمانيا وروسيا، يعتمد على التوصل إلى شروط مع إحدى جيرانها الأقوى أو أخرى. ومع إزالة كلا الضغطين في نفس الوقت، تمكنت هذه الدول من تأكيد استقلالها الكامل عن كل منهما، على الرغم من تطلعها الحتمي إلى القوى الغربية، وخاصة فرنسا، كمصدر للدعم الخارجي. كانت فرنسا، الحريصة على العثور على حلفاء في الشرق كحصن في وجه انتشار البلشفية الغربية وكسلاح ضد عودة ألمانيا، مستعدة بشكل كافي للعب دور الراعي لهذه الدول الجديدة. إلى هذه الدرجة كانت مستعدة لدعم مبدأ وودرو ويلسون في تقرير المصير القومي كما هو مطبق في شرق أوروبا. بهذه الطريقة نشأت تسوية إقليمية للحدود ونظام دبلوماسي للتحالفات، وكلاهما يعتمد على افتراض أن هذا الفراغ في السلطة في الشرق يمكن الحفاظ عليه، أو على الأقل يمكن ملؤه بالدول الجديدة. إن أي استعادة للقوة العسكرية والاقتصادية من قِبَل أيٍّ من ألمانيا أو روسيا سوف تشكل تحديًا لهذا الترتيب. بحلول عام ١٩٣٦ استعادت كلا القوتين قوتهما: وتبع ذلك حتمًا سلسلة من الأزمات الأوروبية التي أدت إلى الحرب العالمية الثانية عندما تحالفت ألمانيا وروسيا معًا لإعادة تقسيم بولندا. بهذه الطريقة أو بطرق أخرى، كانت بذور الحرب العالمية الثانية حاضرة في ذروة الحرب العالمية الأولى.

لقد كان انتقال السلطة في المحيط الهادئ بحلول عام ١٩١٨ على القدر نفسه من الأهمية تقريبًا. فكما ذكرنا سابقًا استولت اليابان خلال السنة الأولى من الحرب على الامتيازات الألمانية في الصين وعلى جزر ألمانيا في المحيط الهادئ - المارشال وكارولين. وفي عام ١٩١٥ فرضت على الصين معظم مطالبها الواحدة والعشرين مما منحها قدرًا كبيرًا من السيطرة على شمال الصين وجنوب مانشوريا. وازدهرت من خلال الاستيلاء على الأسواق الأوروبية السابقة في آسيا وجنوب إفريقيا، ونقلت الكثير من تجارة آسيا في سفنها. وفي المحيط الهادئ أيضًا، مع الصين الضعيفة، وروسيا المهزومة، واحتلال الولايات المتحدة والكومنولث البريطاني، كان هناك فراغ مؤقت في السلطة الذي كان اليابانيون طموحين جدًّا لملئه. أجَّلتِ الاتفاقيات التي تم التوصل إليها في مؤتمر واشنطن عام ١٩١٢، الصراع لمدة عشر سنوات من خلال تثبيت التكافؤ البحري بين الكومنولث والولايات المتحدة، تثبيت قوة اليابان في السفن الرئيسية بنسبة ٦٠٪ من الأرقام البريطانية والأميركية. لبعض الوقت بدا أن توازن القوى الذي كان سائدًا قبل الحرب في المحيط الهادئ قد تم استعادته. لكن هنا أيضًا، كان ميراث الحرب الذي لم يتمكن صانعو السلام من فعل الكثير لتغييره، يتضمن شروط الصراع المستقبلي. فقد تم إجراء خدمة مارس لفترات طويلة الأمد.

٣- تسوية ما بعد الحرب:

اجتمع ممثلو "القوى المتحالفة أو المتحاربة المرتبطة بها" في باريس في يناير عام ١٩١٩ لوضع شروط السلام. كان من بينهم متحدثون ليس فقط باسم الحلفاء الرئيسيين والدول المتنازلة، بل أيضًا باسم القوى التي، في مراحل لاحقة، قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع القوى المعادية. تلك الدول هي بوليفيا، الإكوادور، والبيرو، والأروغواي، وتم إدراج الصين وسيام، بعد أن أعلنتا الحرب في اللحظة الأخيرة، ضمن المتحاربين المتحالفين. وتم استبعاد الدول المعادية السابقة، وبذلك فإن جميع المعاهدات باستثناء معاهدة لوزان مع تركيا عام ١٩٢٣ تم إملاؤها لكن لم يتم التفاوض عليها.

تم تحديد الخطوط الرئيسية للتسوية من قبل "الثلاثة الكبار"- رئيس الولايات المتحدة ويلسون، ورئيس فرنسا جورج كليمينصو، ودافيد لويد جورج رئيس خارجية بريطانيا. كانت اليابان وإيطاليا مشمولتين في بادئ الأمر ضمن حلقة القوى الرائدة، لكن ممثليهما سرعان ما تغيبا. كانت أهداف ويلسون الرئيسية ضمان تطبيق المبادئ العامة التي أعلن عنها من أجل السلام العادل، وإنشاء عصبة الأمم. من أجل الحصول على موافقة عامة على العصبة، اضطر إلى المساومة في تطبيق مبادئه العامة في التسوية الإقليمية، وعزَّى نفسه بالتفكير في إمكانية تحسين أجزاء لم تعجبه من التسوية الإقليمية والسياسية في أوقات الفراغ من خلال عمل العصبة كوكالة للمصالحة

والتغيير السلمي. كانت التسوية الفعلية، كنتيجة لذلك، عبارة عن سلسلة من الصفقات والتسويات بين رغبات ويلسن النبيلة لكن غير الواقعية في كثير من الأحيان، ومطالب كليمانصو القومية والواقعية جدًّا، وأهداف لويد جورج غير المستقرة والانتهازية نوعًا ما.

غالبًا ما تعرضت التسوية، وخاصة ذلك الجزء منها المتضمن معاهدة فرساي مع ألمانيا، للانتقاد لكونها خليطًا من الأهداف المتعارضة. ومع ذلك لم تكن الأسوأ بالنسبة لذلك. ما الذي كان يهدف إليه مؤتمر دولي كبير كهذا، إن لم يكن إيجاد أعلى مقياس مشترك للاتفاق بين الدول التي تتعارض أهدافها ومصالحها بعدة نواحي؟ لو تم تطبيق مبادئ ويلسون العامة بشكل متواصل، لكانت لها غالبًا نتائج كارثية وسخيفة: ومع ذلك فقد نجحت مكانته الشخصية الضخمة وإصراره في غرس رؤية أوسع في الترتيبات. إن مطالب كليمانصو ولويد جورج المبالغ فيها، لو لم يتم تعديلها، لكانت أدت إلى سلام قرطاجي: ومع ذلك فقد عملت على تذكير ويلسون بالحقائق القائمة للسياسة الأوروبية. كان هناك انتقاد أكثر جدية بأن التسوية لم تكن مجرد خليط، بل كانت قاسية في الأماكن الخطأ ومتساهلة في الطرق الخاطئة. من الأفضل الحكم على مدى صحة هذا النقد من الترتيبات الرئيسية التي تم القيام بها ومن درجة الاستمرارية التي أثبتت أنها تملكها.

تمت استعادة استقلال بلجيكا، وتمت إعادة مقاطعتي الألزاك واللورين

إلى فرنسا التي أخذتها منها ألمانيا في عام ١٨٧١. كان هذا الأمر عادلًا بلا منازع. وحصلت فرنسا أيضًا على ملكية حقول الفحم في سار، وكان من المقرر أن تدير لجنة عصبة الأمم المنطقة لمدة خمسة عشر عامًا. في عام ١٩٣٥ بعد الاستفتاء بين السكان، أعيدت إلى ألمانيا. نجح هذا الترتيب إلى حد معقول مرة أخرى. كما كان من المقرر أن تبقى منطقة الراين تحت احتلال الحلفاء العسكري لمدة خمسة عشر عامًا كضمان بأن ألمانيا سوف تلتزم بالمعاهدة. كانت هذه تسوية، ومن وجهة النظر الفرنسية هي تسوية غير مرضية أبدًا. فطالب كليمانصو، بتحريض من فوش، في البداية بسيطرة غير محددة الأمد على رؤوس جسور نهر الراين كضمان عسكري للأمن الفرنسي. رفضت الولايات المتحدة وبريطانيا الموافقة وأقنعتا الفرنسيين بقبول بدلًا عنها ضمانة أنجلو أميركية لدعم فرنسا على الفور إذا تعرضت مرة أخرى لهجوم من قبل ألمانيا. ولكن عندما لم يصادق مجلس الشيوخ الأميركي على المعاهدة سقطت هذه الضمانة من جانب الولايات المتحدة، وادعت بريطانيا عندئذ بأن هذا الأمر يبطل الجزء الخاص بها من الصفقة. وشعرت فرنسا، نتيجة لذلك، أنه تم خداعها لتتنازل عن أمنها المادي مقابل ما قبلت الآن أنه ضمان دبلوماسي لا قيمة له. ومن هنا كان سعيها المحموم طوال سنوات ما بين الحربين إلى توفير ضمانات أكثر صرامة لأمنها القومي. وثبت أن احتلال منطقة الراين لخمسة عشر عامًا هو خداع بنفس القدر: إنه يعني أن القوى

المتحالفة سوف تنسحب بعد فترة من الزمن التي احتاجتها ألمانيا لإنعاش طموحاتها واستعادة قوتها العسكرية. من المؤكد أنه يمكن القول: إن الضمانات المادية التي تم الحصول عليها من ألمانيا كانت بهذه الطرق ضئيلة للغاية.

من ناحية أخرى، كانت محاولات الإصرار على قبول ألمانيا لما يسمى "مادة ذنب الحرب" غير واقعية على الإطلاق. لا يمكن خلق شعور بالمسؤولية الأخلاقية بإدراج بيان بذلك في وثيقة اضطر الممثلون الألمان إلى توقيعها: وكانت المطالبة بتعويضات عن أضرار الحرب التي ألحقتها الجيوش الألمانية، والتي يتوقف عليها هذا البيان، قد قدمت بأرقام فلكية دون أي اعتبار جدي لكيفية إمكانية ألمانيا اقتصاديًّا لتدفع أو الحلفاء ليحصلوا على مثل هذه الثروة. لم يتم تحديد أي رقم للتعويضات في المعاهدة، على الرغم من أن فرنسا وبلجيكا وبريطانيا قدمت مطالبات واسعة النطاق. تم إنشاء لجنة التعويضات لتحدد المبلغ المطلوب وترتب طرق وزمن الدفع. بهذه الطريقة وضعت الصعوبات التي لا مفر منها على الرف، وتركت لتكون مصدرًا متكررًا للأحقاد خلال العقد التالي. ومع ذلك تم فرض أشكال أخرى من التعويضات على الفور. فحرمت ألمانيا من جميع ممتلكاتها الاستعمارية ومعظم أسطولها. كما تمت مصادرة بعض البضائع والسلع، وأيضًا معظم الممتلكات المملوكة من قبل مواطنين ألمان في الخارج. وتم إغراق الأسطول

بغالبه من قبل طاقمه في سكابا فلو. ومنع التجنيد العسكري في ألمانيا، فكان جيشها يقتصر على ١٠٠ ألف جندي. كما منعت من امتلاك المدفعية الثقيلة أو الطيران أو الغواصات. ولم يكن بوسعها تحمل تكاليف صنع مثل هذه الأسلحة بأي شكل لعدة سنوات بعد الحرب، وعندما أصبح بإمكانها تحمل الأمر كانت هناك عدة طرق للتهرب من مراقبة لجان نزع السلاح. في هذه الأثناء، ونظرًا؛ لأن جيشها الصغير يجب أن يكون جيشًا محترفًا مجندًا طوعيًا، فقد تم الحفاظ على قوة طبقة الضباط وسمح لها بالتخطيط للتوسع السريع للقوة العسكرية الألمانية بأقرب وقت ممكن. كانت هذه السلسلة من الإجراءات التأديبية والتعويضية سيئة التصميم وغير عملية. وأدت إلى تعزيز الاستياء الوطني الألماني دون اتخاذ أي ضمانات لا لبس فيها ضد قدرتها على التعبير عن هذه الاستياء بالتصرف.

إن التسوية في أوروبا الشرقية المتجسدة في المعاهدات الأربع الأخرى التي صاغها وأبرمها المؤتمر، كانت تهتم بشكل أساسي بإعادة رسم الخريطة السياسية والسعي إلى بعض الحماية للأقليات القومية التي، حتى بعد رسم الخريطة الأكثر براعة، ظلت متروكة على الجوانب الخاطئة من الحدود. وهنا كان لا بد من تقديم تنازلات وتحسينات لا نهاية لها في تطبيق مبدأ "تقرير المصير الوطني". كانت الحركة السلافية الجنوبية راضية جدًّا عن اندماج صربيا، وسلوفينيا، وكرواتيا في يوغوسلافيا، على الرغم من أن إيطاليا، كما

تم وعدها في المعاهدة السرية عام ١٩١٥، قد منحت تريست وبعض جزر الدالماتيان. أعيد تشكيل بولندا كدولة مستقلة، وأعطيت منفذًا على البحر عبر "الممر البولندي" في بوسن وبروسيا الغربية. واحتوت هذه المناطق على أقليات ألمانية وكان لهباتها إلى بولندا أثر في فصل بروسيا الشرقية عن بقية ألمانيا. تم توسيع رومانيا بإضافة الأراضي الروسية والمجرية السابقة. كما تم توسيع اليونان على حساب تركيا. وتم إنشاء جمهورية مركبة جديدة في تشيكوسلوفاكيا تضم تشيك، وسلوفاكيا، وروثينيا، وألمانيا السديتين. وتم الاعتراف بدول البلطيق مثل فنلندا، ولاتفيا، وليتوانيا، وإستونيا كدول مستقلة. وأصبحت النمسا وهنغاريا دولتين صغيرتين ومنفصلتين غير مطلتين على البحر. وأصبحت تركيا أخيرًا دولة قوية جديدة في عهد مصطفى كمال لكنها اقتصرت على القسطنطينية وآسيا الصغرى. وعهد بسوريا ولبنان إلى الحكم الفرنسي، وفلسطين وشرق الأردن والعراق إلى الحكم البريطاني كمناطق انتداب. وهذا يعني أنها كانت تدار من قبل هذه البلدان التي كانت مسؤولة عنها أمام لجنة الانتداب الدائمة المنشأة حديثًا التابعة لعصبة الأمم. كما تم توزيع الممتلكات الاستعمارية الألمانية السابقة على نفس القاعدة، فانتقل جنوب غرب إفريقيا الألماني إلى اتحاد جنوب إفريقيا، وقسمت باقي مستعمراتها الإفريقية بين بريطانيا، وفرنسا، وبلجيكا. وتم انتداب جزر شمال المحيط الهادئ إلى اليابان، وغينيا الجديدة الألمانية إلى أستراليا، وساموا

الألمانية إلى نيوزلندا.

يجب التمييز بين انتقاد حكمة هذه الترتيبات وبين انتقاد صانعي السلام في باريس. كانت هناك أمور كثيرة لم يكن لديهم خيار حقيقي فيها. فقبل أن يلتقوا كانت الدول الجديدة في أوروبا الشرقية موجودة، وأقصى ما يمكن فعله في باريس هو ضمان أن تكون الحدود الجديدة معقولة. وبالمثل، فقد كانت القوى المعنية تحتل للتو الأراضي المنتدبة إليها، ووضع الشروط التي ينبغي حكمها بموجبها هو أقصى ما يمكن للمؤتمر القيام به. لم يكن بإمكانهم استعادة إمبراطوريات ما قبل الحرب حتى لو رغبوا بذلك؛ لأنها تفككت بالكامل.

كما لا يمكن لوم صانعي السلام على استمرار وجود أقليات قومية كبيرة مزعجة في أوروبا الشرقية. فقد أصبح يعيش الآن عدد أقل من الناس يعيشون في ظل ما شعروا بأنه حكم غريب مما كان عليه في السابق. الأمر الجديد هو أن الأدوار انقلبت الآن، وكان الألمان والهنغاريون هم الذين يعيشون تحت الحكم البولندي، أو التشيكي، أو الإيطالي. ومن الممكن أن تعود فائدة الشك إلى الدول المهزومة، لكن بخلاف ذلك تم ترتيب الأمور بشكل مختلف قليلًا. فقد تم إلغاء النقل المنظم للأقليات إلى نواحٍ مختلفة من الحدود باعتباره أنه يجلب المعاناة والمشقة للمنطقة المنكوبة بالحرب: على الرغم من أن البعض هاجر بشكل عفوي، وهروب الأقليات اليونانية من

تركيا وانتقال الأقليات التركية من اليونان عام ١٩٢٣ خدم هذا الغرض. لم يكن هناك أمر غير عادل بطبيعته في ترك أشخاص من جنسيات مختلفة داخل دولة واحدة، طالما يعاملون بعدل من قبل الأغلبية المهيمنة في هذه الدولة. الدول الموروثة، كما يطلق على الخليقة الجديدة، وقَّعت على معاهدات مع القوى المتحالفة تتعهد فيها بعدم تعرض الأقليات القومية للعجز: على الرغم من أن هذا الإجراء الحسن النية يعطي الأقلية المتضررة الحق بتقديم التماس ضد حكومتها إلى سلطة خارجية ليس لديها سوى وسائل قليلة تحت تصرفها لحمايتهم، فإنه لم يثبت أنه وسيلة جيدة للتوفيق بين المجموعات داخل دولة متعددة الجنسيات.

ظهرت معظم الهجمات على التسوية خلال العشرين سنة التالية من التفاوت بين الآمال الكبيرة التي علق عليها الناس وبين تشابكها مع التسويات غير الملهمة. نشأت هذه التسويات بشكل حتمي من أي محاولة لتطبيق المبادئ العقلانية أو الأخلاقية على المناطق المجزأة في أوروبا. العدالة في مثل هذه الأمور لا يمكن أن تكون أبدًا إلا نسبية: ومع ذلك فإن طبع الناس كان يميل إلى الكمال. لقد كان من المستحيل إشباع احتياجات بولندا بمنفذ على البلطيق وصولًا إلى فستولا وفي نفس الوقت تحقيق مطالب الألمان بأنه يجب ألا يكون شرق بروسيا منفصلًا إقليميًّا عن ألمانيا. لم يكن هناك أي حل نزيه مُرْضٍ للمطالبات المتنافسة لليهود والعرب في فلسطين. ولم

يكن هناك من وسيلة إنسانية لإزالة مشكلة الأقليات من سياسة البلقان. لقد تم دائمًا حل مثل هذه الصراعات للمصالح القومية، في النهاية، باستخدام القوة أو عن طريق عملية طويلة من الاعتياد والمعافاة التي تجعلها غير ذات أهمية. كما لا يمكن حلها من حيث العدالة المطلقة بمؤتمر سلام واحد. ومع ذلك كان هذا ما توقع صانعو السلام في باريس تحقيقه. وبالنظر إلى المشاعر التي أثارتها أكثر من أربع سنوات من الحرب، واستعصاء المشاكل نفسها، والعواقب المجهولة التي تلوح في الأفق، فقد حقق صناع التسوية أكثر مما يبدو ممكنًا عندما التقوا أولًا.

٤- التداعيات الاجتماعية:

إن أهم نتيجة للحرب على المجتمع كانت تعزيز المشاعر والعواطف القومية التي لم تكن مبادئ تقرير المصير المطبقة في التسوية إلا انعكاسًا لها. التعبئة الجماهيرية والخسائر، والعواطف المريرة التي أثارتها مذبحة عشرة ملايين شخص، والضغط الطويل الأمد للمجهود الحربي المستمر، ومشاركة الأحزان في الشدائد والانتصار في النصر، جميعها تعاونت لتملأ عقول الناس بالاعتزاز القومي والحماس الوطني. في كل بلد تم تصوير العدو على أنه متوحش، وعديم الضمير، وبغيض. منذ البداية أثبتت القومية أنها قوة أقوى بكثير من الاشتراكية. من قبل الجميع باستثناء القليل من الثوريين المتطرفين فإن الأطروحات الماركسية التي تقول إن العمال في جميع البلدان ليس لديهم

ما يخسرونه سوى قيودهم الاقتصادية، وأن الحروب كانت حروبًا رأسمالية لا ينبغي للعمال المشاركة بها، تم التخلي عنها تمامًا. في كل بلد في عام ١٩١٤، دعمت الأحزاب الاشتراكية البرلمانية حكوماتها الوطنية وصوتت لصالح التعبئة العسكرية وشرف الحرب. لم تكن الحرب، باستثناء روسيا مؤخرًا، بسبب الضربات والتخريب السلمي. لقد ترك الأمر لقليل من الاشتراكيين أو دعاة السلام لمقاومة جهود الحرب، لكن الاشتراكية في الأساس أصبحت اشتراكية قومية[١٤].

كان هذا التحالف بين أقوى حركتين في العالم الحديث، بأشكال أخرى مختلفة، يلازم كل السنوات التالية. وسع انتصار الجماعة المتطرفة في روسيا في عام ١٩١٧ وأدام الانشقاق داخل الطبقات الاشتراكية. لم يتمكن الاشتراكيون البرلمانيون من قبول طرق البلشفية الوحشية أكثر من قدرتهم على تحمل أطروحات الحرب الطبقية للماركسية. الشروط الواحدة والعشرون، التي وضعت في المؤتمر الثاني للشيوعية الدولية عام ١٩٢٠، حددت مفترق الطرق. ومنذ ذلك الوقت تباعدت الشيوعية والاشتراكية بشكل جوهري، على الرغم من أنه استلزم الأمر حدوث أحداث العقد التالي لتوضيع وتوسيع هذا التباعد.

١٤ كان رمز الانقسام المستقبلي هو "برنامج زيمروالد" لعام ١٩١٥ عندما اجتمعت مجموعات الأقليات الاشتراكية المناهضة للحرب من كل دولة معًا وصياغة مطلب السلام الفوري دون ضم أو تعويضات. وكان لينين نشطا بشكل خاص في هذه الحركة، جنين الكومنترن المستقبلي.

لقد رافق تعزيز القومية والنوع القومي من الاشتراكية ما يمكن تسميته تأميم الرأسمالية. فقد كان على كل حكومة أن تتولى درجة عالية من السيطرة والتوجيه على كامل الحياة الاقتصادية في بلدها. كما يجب التحكم بالتجارة الخارجية والاستثمار، وكان لا بد من تخطيط الإنتاج الزراعي والصناعي وتوجيههما لتلبية متطلبات التجنيد وإمدادات الحرب. كما كان لا بد أيضًا من تنظيم الإنتاج للاستعمالات المدنية وغير الضرورية، وتأمين إمدادات المواد الخام، وتوجيه القوى العاملة (وقوة النساء العاملة المتزايدة أيضًا) لكل دولة. وأصبح الرأسماليون الذين استغلوا النقص أو الذين حققوا الكثير من عقود الحرب، مكروهين بشدة باعتبارهم "مستفيدين": وكان عبء الضرائب المتزايد باستمرار يميل إلى تدمير الدخل ووضع قوة جديدة هائلة في أيدي الحكومات. ووضعت كل دولة آلية لتحقيق كل هذه الأغراض بالإضافة إلى تقنين على المواد الغذائية وسيطرة على الأسعار. وهذا ما جلب مشاكل جديدة للإدارة والسلطات البيروقراطية؛ لأن الولايات المتحدة دخلت الحرب متأخرة ولأن اقتصادها المتوسع جعلها أقل ضرورة، فقد قطعت في هذه العملية شوطًا أقل من الدول الأوروبية، لكنها هناك أيضًا أحرزت بعض التقدم. كما أحدثت الحرب ثورة في علاقة أميركا بأوروبا. فقد امتلك المواطنون والشركات البريطانية والفرنسية استثمارات ضخمة في الولايات المتحدة، كما امتلك الأوروبيون الآخرون. وفي عام ١٩١٤ بلغ مبلغ هذه

الاستثمارات نحو ٨٠٠ مليون جنيه إسترليني. وخلال الحرب استولت حكوماتهم على هذه الاستثمارات وباعتها في أميركا لشراء المؤن، وعوضت أصحابها بالجنيه الإسترليني أو الفرنك الفرنسي. بالإضافة إلى ذلك قامت الحكومات الأوروبية بجمع قروض حربية ضخمة في أميركا. ونتيجة لذلك خرجت الولايات المتحدة من الحرب باعتبارها الدائن الأعظم في العالم التي تدين لها الدول الأوروبية حوالي ٢٠٠٠ مليون جنيه إسترليني. وكان سداد ديون الحرب هذه يشكل مشكلة شائكة خلال العقد التالي.

كانت الاضطرابات الاجتماعية التي سببتها الحرب هائلة، وكان التوازن الطبيعي بين الفئات العمرية والجنسية مضطربًا؛ لأن الحياة الأسرية تعطلت أثناء التعبئة العسكرية، كما قُتل الملايين من الشباب، وهبط معدل الولادات بشكل حاد ليرتفع بنفس الحدة بعد انتهاء الحرب. دخلت النساء، العاملات في المصانع والخدمات الحربية سوق العمل على نطاق غير معروف من قبل. ولأنهن وجدن أساسًا اقتصاديًّا لمزيد من الاستقلال، بقيت الكثيرات فيه. إن دورهن في المجهود الحربي، وخاصة في بريطانيا، جعل مطالبتهن بحق التصويت لا يقاوم بعد الحرب. يُعَدُّ الوضع المتغير للنساء في المجتمع في جميع أنحاء العالم أحد أكثر الثورات الصامتة وغير الملحوظة في الزمن الحديث. فمن وضع التبعية القانونية والاجتماعية في أسوأ الأحوال، إلى التبعية الاقتصادية والسياسية في أحسن الأحوال، اكتسبت المرأة في بلد تلو

الآخر مكانة ذات مساواة أكبر مع الرجل. وامتدت هذه الثورة إلى آسيا، وفي نهاية المطاف أثرت في إفريقيا. وفي العملية برمتها لعبت الحرب في أوروبا الغربية دورًا هامًّا. تبع ذلك المزيد من التداعيات الاجتماعية بعد الحرب من تضخم الأسعار ومن عبء الضرائب الكبيرة. فكل من تعتمد معيشتهم على دخل ثابت من الاستثمارات، أو المنح، أو المدخرات، أو من لا يمكن زيادة أجورهم بسهولة، يعانون من انخفاض في مستوى معيشتهم. لقد تركت الضغوط والمصاعب والهستيريا والإرهاق الناجم عن الحرب دولًا مضطربة عاطفيًا وغير متوازنة لتتصارع مع أعقاب ما بعد الكارثة.

فقبل كل شيء، شهدت العلاقات الاقتصادية بين أوروبا والقارات الأخرى ثورة. ففي عالم ما قبل الحرب كانت كل دولة أوروبية متقدمة تستورد أكثر مما تصدر، وتدفع الفرق من الفوائد على استثماراتها الأجنبية ومن الشحن وخدمات أخرى. وكان مستوى معيشتها المرتفع يعتمد على ذلك. أما الدول الأوروبية الجديدة، لكي تدفع ديون الحرب وتستعيد تجارتها الخارجية في فترة ارتفاع الأسعار، كان عليها أن تحاول تصدير بضاعة أكثر مما تستورد. وفي المقابل عانت مستويات المعيشة. في عالم ما قبل الحرب، كما وصفنا أعلاه، تركز الإنتاج الصناعي في أوروبا وكانت وارداتها من القارات الأخرى عبارة عن المواد الخام والمواد الغذائية. واعتمدت الدول غير الأوروبية بشكل رئيسي على صادرات أوروبا من السلع التامة الصنع،

تمامًا كما اعتمدت على استثماراتها لرؤوس أموالها وعلى مهاجريها في مهاراتهم التقنية.

إن هذا الترابط الأساسي الذي يتضمن مكانة ذات امتياز للدول الأوروبية مقابل بقية الدول، ضعف تدريجيًّا بحلول عام ١٩١٤: لكن التوسع الصناعي السريع للولايات المتحدة، واليابان وبعض دول أميركا الجنوبية ليلبي الطلبات النهمة في زمن الحرب من الإمدادات، أزال إلى الأبد مكانة أوروبا الصناعية المتميزة. كما انضمت الآن دول عبر البحار إلى صفوف الدول الدولية المصدرة للسلع المصنعة، أو كانوا قادرين على تلبية نسبة أعلى من احتياجاتها الخاصة المحلية. وتم تأسيس علاقات تجارية جديدة مما جعل الدول الأوروبية خارج الحساب. تاجرت الولايات المتحدة بشكل مباشر مع أميركا الجنوبية والشرق الأقصى. وتاجرت اليابان مباشرة مع أميركا الجنوبية وأستراليا والهند. لكن كانت أوروبا لا تزال إحدى أكبر المراكز التجارية في العالم: فلم تعد محور الإنتاج الصناعي، وكانت خلال العقدين التاليين إلى حد ما، قادرة على إعادة ترسيخ مكانتها في العالم. لكنها لم تتمكن أبدًا من استعادة أرقامها القياسية المميزة لعام ١٩١٤. وكما انتقل ميزان الميزات الاقتصادية قبل عام ١٩١٤، بين قوة أوروبية وأخرى، كذلك انتقل الآن بين القارات وعانت جميع القوى الأوروبية من انخفاض نسبي في أهميتها العالمية.

لم يتم إدراك هذه التغيرات وطابعها الثوري بشكل كامل في عام ١٩١٩. فقد كانت المشاكل العملية المباشرة للتعافي من الدمار والاضطرابات التي خلفتها الحرب ملحة للغاية. لكن كانت هناك ثلاثة أشياء تلوح في أذهان الناس في ذلك الوقت. الأمر الأول: كان انتصار الديمقراطية، فقد كانت السلالات الحاكمة القديمة التي سقطت بعد الهزيمة والانهيار، والدول الديمقراطية الغربية التي نجت بانتصارها، وعلاوة على ذلك الدول الجديدة التي اعتمدت، مع استثناءات قليلة للغاية، دساتير ديمقراطية للغاية بما فيها ألمانيا. وبدا أن العالم أصبح آمنًا للديمقراطية. وهذا الأمر كان أكثر وضوحًا وأكثر أهمية من انتصارات القومية. الأمر الثاني: أنه كانت هناك عصبة الأمم والمنظمات المرافقة لها - محكمة العدل الدولية العليا في لاهاي، ومنظمة العمل الدولية، ولجنة الوصاية الدائمة، ولجنة الأقليات. وهنا يكمن الأمل في نظام سلم دولي أكثر عقلانية، وهو العلاج لما يسمى "الفوضى السياسية الدولية" لعام ١٩١٤ والتي يعتقد كثيرون أنها أدت إلى الحرب. في إطار جمعية العصبة ومجلسها الذي يمثل الامتداد المنطقي للمبادئ الديمقراطية الليبرالية إلى المنظمات الدولية، يمكن لدول العالم أن تلتقي وتزيل العقبات التي تعترض علاقاتها الجيدة وازدهارها والتي سببت الحروب في الماضي. نجح الرئيس ويلسون في إدراج ميثاق العصبة في نصوص جميع المعاهدات، وبذلك تم نسجه بالكامل في نسيج التسوية السلمية. في البداية كانت

الحكومات الأخرى، وخاصة الفرنسية والبريطانية، متشككة في مزاياه. لكن بدأت تؤمن كل منهما بأنه يمكن أن يخدم بعض مصالحها القومية من خلال العصبة، فتعلمت كيفية دعمه واستخدامه. لكنها عانت من ضربة قوية عندما منع مجلس الشيوخ الأميركي، الذي رفض تصديق المعاهدات، الولايات المتحدة من الانضمام إلى العصبة. فقد تخلى عنها راعيها الرئيسي. وبما أن جمعيتها تمثل الحكومات الوطنية والدول المخالفة اعتبرتها جزء من التسوية الكاملة التي تدين لها بوجودها الرسمي، فقد استمدت مصادر جديدة من الحماس والدعم. خلال العقد التالي، بينما كانت مشاكل إعادة البناء بعد الحرب تضغط بشدة على جميع البلدان، نشأ نوع من الجدال حول العصبة في أوروبا الغربية. وبدا أنها خط الحياة الوحيد لمستقبل أكثر تفاؤلًا. ومع ذلك، في تلك السنوات بالذات، أضعفتها قوى أخرى، القومية المتطرفة والمولعة بالحرب التي أدت في النهاية إلى تدميرها. الأمر الثالث: هو أنه كانت هناك البلشفية التي ربما كانت تلوح في أذهان الناس ومخاوفهم في عام ١٩١٩ أكثر من أي شيء آخر في عالم ما بعد الحرب. وقد رحب الغرب بطوق الولايات الجديدة في المستنقعات الشرقية كحاجز ضد انتشار هذا الإرهاب الجديد. هنا كان صانعو السلام عام ١٩١٩ مُحقين في تشخيصهم، على الرغم من أنهم عديمو الجدوى في علاجاتهم. وهنا في الواقع، كانت الظاهرة السياسية الأكثر أهمية في عالم ما بعد الحرب.

٣

العقد ما بعد الحرب

١٩١٩ - ١٩٢٩

١ - انقسام في النظام الاجتماعي:

خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر واجهت الحركات الاشتراكية في كل دولة متقدمة قرارًا مصيريًا. هل يجب عليها أن تلتزم بالعقيدة الماركسية الصارمة وبذلك تهدف إلى الإطاحة بالدولة واستبدالها بدولة بروليتارية جديدة؟ أو يجب عليها أن تنطلق للسيطرة على الدولة الموجودة وتستولي على السلطة فيها كنظام عمل وتستخدمها لتحقيق الإصلاحات الاشتراكية؟ شقت هذه المسألة الحركات الاشتراكية في معظم البلدان إلى قسمين ثوري واشتراكي، ولم يكن الاختلاف واحدًا فقط في التكتيك السياسي، وإنما كان ليتطور إلى تباين جوهري. فأينما وُجِد امتياز تجاري واسع، ونظام صناعي متطور جدًّا، وحركة اتحاد تجارة قوية، كان هناك إغراء قوي للبحث عن السلطة بوسائل برلمانية ودستورية. هذا ما حدث بشكل عام في المملكة المتحدة، وفرنسا، وألمانيا وسكاندانافيا. الاشتراكيون الذين اختاروا هذا النهج كان عليهم أن يَشرعوا إما بالفوز بأغلبية الناخبين لقضيتهم، أو

الانضمام إلى الأحزاب البرلمانية الأخرى لضمان نصيب في الحكومة. في كلا الحالتين، كان عليهم أن يضعوا أمام الناخبين ليس فقط أهدافهم القصوى ومبادئهم الرئيسية، بل برنامجًا عاجلًا للإصلاحات العملية التي يمكن الحصول عليها ضمن الإطار الاجتماعي والاقتصادي الموجود. وحالما التزموا بالوسائل الديمقراطية والدستورية، مالوا لِأَنْ يُصبحوا ديمقراطيين بشكل متزايد في الطبع والسلوك. وفي الدول التي كان فيها الامتياز التجاري لا يزال ضيقًا، كما في إيطاليا قبل عام ١٩١٣، وبلجيكا وهولندا قبل عام ١٩١٨، تابع الاشتراكيون في استعمال اللغة والأساليب الماركسية الأكثر ثورية لفترة أطول من زملائهم في بريطانيا وفرنسا. لكن بقيت الماركسية ذات معنى أكبر في المناطق التي تعايشت فيها درجة من التصنيع مع غياب أي آلية عمل للحكومة الدستورية: كما في روسيا بعد فشل مجلس الدوما عام ١٩٠٥. بهذه الطريقة كان هناك ارتباط وثيق بين النجاحات السابقة للديمقراطية الليبرالية ونمو الاشتراكية البرلمانية. وينشأ الانقسام اللاحق بين الديمقراطية الاجتماعية في أوروبا الغربية والشمولية الشيوعية في أوروبا الشرقية من هذا الارتباط.

إن الاختلاف الذي ظهر بوضوح في برنامج زيميروالد لعام ١٩١٥ قد تفاقم بسبب الثورة البلشفية الناجحة في عام ١٩١٧. وقد ناقش حزب العمال الديمقراطي الاشتراكي هذه القضية بالذات في عام ١٩٠٣. الجناح

الذي رأى أن الحزب يجب أن يكون ثوريًا، وبالتالي يجب أن يكون منظمًا بإحكام حول نواة صلبة من الثوريين الموثوق بهم والمختارون بعناية والذين يديرون نشاطات الحزب من خلال لجنة مركزية صغيرة ليست مسؤولة أمام طابور وصف الأعضاء، كان يقوده لينين. لقد انتصر في مواجهة المفهوم الأكثر ديمقراطية ومرونة لتنظيم الحرب الذي أضعف الحزب باعتباره أداة للثورة. في عام ١٩١٢ انشق الحزب حول هذه المسألة، وبعد ذلك وُجد الحزب البلشفي اللينيني ليكون مستعدًا إلى اغتنام الفرص الثورية التي يقدمها فشل نظام القيصر.

تكمن جذور الوضع الثوري في روسيا في نظامها الاستبدادي القاسي والفاسد للغاية في الحكم، وفي حياتها الاقتصادية المتخلّفة، وفي اختمار المثل في هذه الظروف المستمدة من الثورة الفرنسية لعام ١٧٨٩، وكذلك من الماركسية. أول ثمار هذا التخمر كانت مثيرة للإعجاب. فقد تضمنت روايات تولستوي ودوستويفسكي، وموسيقا تشايكوفسكي ورمسي كورساكوف. لقد اندمجت الثقافة الروسية في نهاية القرن التاسع عشر مع الثقافة الأوروبية بشكل أكثر تكاملًا من أي وقت مضى، وفي الوقت نفسه كانت الأساليب الصناعية الغربية تخترق روسيا الغربية. فكانت السكك الحديدية، والتلغراف، والمصانع، والاستثمارات الأجنبية، والتجارة الخارجية تربط بشكل متزايد روسيا مع بقية أوروبا. في عام ١٩٠٥ عندما

دعا القيصر نيقولا الثاني مجلس الدوما بدا أنها كانت تقترب أكثر فأكثر من نمط الحضارة الغربية. وعلى مدى العقد التالي أخذت مظهر ملكية شبه دستورية على الأقل. لكن مجلس الدوما لم يكن يتمتع بسلطة حقيقية، ولم يكن للدستورية الليبرالية جذور عميقة في التربة الروسية.

أثبت لينين أنه أعظم ثوري عبقري في العالم الحديث، وواحد من أعظم العباقرة على الإطلاق. فقد جمع بين قوى التحليل الفكري الرائعة والإيمان المتعصب بصحة استنتاجاته مع إحساس حاد بالوقائع السياسية وفن الحكم العملي. وقد استخدم هذا المزيج النادر من القوى غير العادية ليحول حزبه إلى سلاح لا يقاوم من العمل الثوري. ومن خلاله، حوَّل تطور روسيا بأكمله إلى قناة جديدة جعلتها تتباعد بشكل متزايد عن بقية أوروبا. لقد غير حرفيًا مسار تاريخ العالم.

ومع ذلك لم يفعل لينين والحزب البلشفي سوى القليل أو لا شيء على الإطلاق لإنتاج الثورة في روسيا. فقد نشأ الوضع في عام ١٩١٧ من أسباب أخرى تمامًا: من إفلاس النظام القديم وانهيار الحكومة بسبب ثلاث سنوات من الحرب. لقد تطلبت الإدارة الناجحة للحرب الحديثة التضامن القومي والثقة بالنفس بالإضافة إلى الكفاءة بالتوجيه الحكومي، وهذا ما لم تملكه روسيا القيصرية. عندما اندلعت الثورة في مارس ١٩١٧ تفاجأ القادة البلاشفة أكثر من الحكومة نفسها. كما كان معظمهم في المنفى في خارج

البلاد. شكلت لجنة طوارئ من مجلس الدوما والممثلين الشيوعين المنتخبين حديثًا من العمال والجنود في بيترغراد حكومة ليبرالية مؤقتة بقيادة الأمير لفوف. وعندما أجبر القيصر على التنازل عن العرش في ١٥ مارس، تم الإعلان عن الجمهورية.

الحكومة المؤقتة التي كانت تشارك الحلفاء الغربيين بمعظم مثلهم السياسية وتأمل بإنشاء نظام ديمقراطي دستوري في روسيا، استمرت في حربها ضد ألمانيا. في شهر أبريل عرضت الحكومة الألمانية عليهم، والتي كانت تعلم أن القادة البلاشفة يؤيدون السلام مع ألمانيا، ممرًا آمِنًا من سويسرا إلى روسيا عبر ألمانيا في قطار مغلق. كانت هذه الخدمة الثانية التي تقدمها القيادة الألمانية العليا للقضية البلشفية: فالخدمة الأولى كانت إلحاق روسيا بمثل هذه الخسائر الكبيرة. والآن بعد أن عاد لينين إلى روسيا، أصبح بإمكانه إدخال تحسينات على سلاحه الثوري ليكون جاهزًا للاستيلاء على السلطة في الوقت المناسب. سرعان ما وجدت الحكومة الجديدة أنها لا تستطيع تحمل الحرب والثورة في نفس الوقت. فطالبت بتوزيع الأراضي على الفلاحين. وتم حل الجيوش الروسية ببساطة؛ لأن الجنود الفلاحين عادوا إلى ديارهم ليتأكدوا من حصولهم على الأرض. لقد ذهب الارتباك والفوضى الإدارية إلى أبعد من ذلك بحيث لم يتم إنقاذ الوضع.

في ليل ٦ نوفمبر، استولى البلاشفة على السلطة. وكان عملاؤهم

الرئيسيون من سوفييت بيترغراد، ووحدات من الجيش والبحرية، وتنظيم الحزب نفسه. كانت الثورة البلشفية في مرحلتها الأولى بمثابة انقلاب وسط الفوضى. وكان برنامجها، الذي صاغه لينين، يتألف من أربعة جوانب: الأرض للفلاحين، والطعام للجياع، والسلطة للسوفييت، والسلام مع ألمانيا. الجانب الأول كان يحدث للتو، والأخير كان يتحقق في النهاية بمعاهدة بريست ليتوفسك. وكان الجانبان الثاني والثالث يتحققان معًا؛ لأن الطعام كان يوزع فقط على أولئك المستعدين لمنح السلطة للسوفييت. نشأت السوفييت أو "المجالس العمالية" في جميع أنحاء البلاد، وخاصة في المصانع ووحدات الجيش، تحت رعاية الحزب. وهكذا كانت السلطة في الواقع تدار من قبل الحزب المنضبط والمنظم الذي كان يشكله لينين منذ عام ١٩٠٣. وقد تم تعزيز سلطته على الفور بإنشاء منظمتين إضافيتين: اللجنة غير العادية لعموم روسيا للنضال ضد الثورة المضادة والمضاربة والتخريبية والمعروفة باختصار باسم CHEKA وفيما بعد باسم NKVD، OGPU، وMDV وبعد ذلك بشهر في يناير ١٩١٨ تم تأسيس الجيش الأحمر من قبل تروتسكي. بهذه الطريقة تم إنشاء الأعضاء الأربعة الرئيسين للنظام السياسي البلشفي خلال الأشهر الثلاثة الأولى. وباستخدام هذه الأدوات الأربعة للحزب (في مارس ١٩١٨ أعيد تسميته بالحزب الشيوعي)، السوفييت، والشرطة السرية، والجيش الأحمر، شرع لينين في إقامة أول دكتاتورية شمولية أحادية

الحزب في العالم الحديث.

لقد انتقلت كل مرحلة لاحقة من الثورة في روسيا من وجهة نظر تاريخ العالم في اتجاه واحد: نحو اندماج الشيوعية مع القومية. إن فترة التدخل الأجنبي التي استمرت حتى عام ١٩٢٢ خدمت في تعزيز قوة الحزب كحكومة وطنية. لقد شكل الجيش الأحمر كقوة محاربة أكثر كفاءة من أجل الدفاع الوطني. وانتصاره على القوى المختلطة المضادة للثورة والممثلين البريطانيين والفرنسيين والأميركيين واليابانيين، ترك الحزب وأدواته من دون معارضة جدية مسلحة. على الجبهة الداخلية أطلق CHEKA نظام حكم من الإرهاب الذي فاق كثيرًا بوحشيته وإراقته للدماء نظام الحكم الكلاسيكي الإرهابي في فرنسا في عام ١٧٩٣. لقد نجح في قسوته ومجازره في تدمير كل عناصر الرجعية البرجوازية، وأزال جميع منافسي البلاشفة من بين الحركات الثورية الأخرى. وبحلول عام ١٩٢٢ تمتع حزب لينين الشيوعي بدكتاتورية كاملة على روسيا بأكملها حتى الحدود الغربية التي حددها مؤتمر باريس.

لقد ساعدت فترة سياسة لينين الاقتصادية الجديدة (٧-١٩٢١) على شفاء بعض الجراح التي فتحها العمل الثوري المتسرع. كان يتقدم خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الخلف، وبواسطة مهارته في كبح ثورة اجتماعية كبيرة في منتصفها والتحكم في اتجاهها عمدًا، أظهر مدى اكتمال سيطرة الحزب على مسار التطور الروسي. يمكن لمنتقدي هذه السياسة، بما في ذلك تروتسكي،

أن يشيروا إلى عودة العادات البرجوازية، والملكية الخاصة، وطبقة "الأغنياء الجدد"، وخيبة الأمل بخصوص المنظمات الجماعية. لكن لا تزال الدولة تسيطر على جميع وسائل الإنتاج الرئيسية. وتمكن خليفة لينين في منصب سكرتير الحزب، الجورجي جوزيف ستالين، من إظهار كيف يمكن الآن المضي قدمًا في التخطيط الاقتصادي الطويل الأمد. إن انتصار ستالين، الذي فضل هدف "الشيوعية في بلد واحد" منتقديه التروتسكيتيين الذين فضلوا هدف الثورة العالمية "الدائمة"، كان انتصارًا للقومية على الشيوعية الدولية. نُفي تروتسكي إلى سيبيريا، وبعد أن عاش في تركيا، وفرنسا، والمكسيك، قُتل في عام ١٩٤٠. شُوهت سمعة أتباعه وطُردوا من الحزب خلال الثلاثينات. وتابع ستالين بعد عام ١٩٢٨ مع سلسة من خططه الخمسية المصمَّمة من أجل تجهيز روسيا بالصناعات الثقيلة ووسائل النقل الأفضل، وميكنة وتجميع الزراعة، وتطوير مصادر جديدة للطاقة والتجارة ما وراء جبال الأورال[١٥]. لم يتم تصور التخطيط الاقتصادي المفصل في عام ١٩١٧، وبالفعل بما أن العقيدة الماركسية تفترض مسبقًا أن البنية الاقتصادية للمجتمع تحدد بنيته السياسية، فقد تم النظر إلى تخطيط الدولة للحياة الاقتصادية في البداية على أنه انعكاس للتقدم الطبيعي للتاريخ. لكن تحت حكم ستالين أصبح وبقي

١٥ تم إطلاق الخطة الأولى في عام ١٩٢٨، والثانية في عام ١٩٣٢، والثالثة توقفت بسبب الحرب، والرابعة (١٩٤٦-١٩٥٠) خصصت لإعادة الإعمار بعد الحرب، والخامسة غطت الأعوام ١٩٥١-١٩٥٥. تم وضع خطة سبع سنوات للأعوام ١٩٥٩-١٩٦٥، وخطة خمسية أخرى للأعوام ١٩٦٦-١٩٧٠.

سمة دائمة. وكانت النتيجة إنتاج اقتصاد قومي متكامل للغاية في كافة أنحاء روسيا، ودمج مواطنيها في مجتمع موحد أكثر وعيًا من أي وقت مضى من تاريخهم.

لقد كانت هذه الخطط مجتمعة بمثابة ثورة صناعية في روسيا. بحلول عام ١٩٣٩ جاء أربعة أخماس إنتاجها الصناعي من المصانع التي تم بناؤها خلال السنوات العشر الماضية. وبما أن العديد منها كان يقع في شرق جبال الأورال، فإن المصانع نقلت تصنيعها الحديث بعيدًا إلى قلب آسيا. وفتحوا الموارد المعدنية في وسط آسيا، وبذلك أضافوا مخزونًا هائلًا إلى مخزون الثروة العالمية المتاحة. وأصبحت روسيا، اقتصاديًّا وسياسيًّا أيضًا، جزءًا من آسيا أكثر من كونها جزءًا من أوروبا. والمثال الذي أعطته حفز طلب الشعوب الآسيوية الأخرى وخاصة الصين والهند على تصنيع مماثل. إن التحول الاجتماعي الذي أصاب شعوب الاتحاد السوفيتي كان لا يحصى. فقد نشأت طبقة من البيروقراطيين، والإداريين، والمهندسين والتقنيين أكبر مما عرفته روسيا من قبل. وإنهم هم مَن تمتعوا بالمكانة والمزايا الاجتماعية الكبرى. وفي نفس الوقت عن طريق الميكنة والمزيد من التطوير العلمي للزراعة، مكنت الخطط البلد من الحفاظ على عدد متزايد من السكان في مستوى معيشة أعلى. وعلى الرغم من كفاءتها الإنتاجية، ونصيب الفرد من الناتج، بقيت روسيا متخلفة عن الولايات المتحدة، إن هذه التغيرات في اقتصادها هي

التي جعلتها في منتصف القرن العشرين المنافس الرئيسي للولايات المتحدة كقوة عالمية.

لقد مر موقف القوى الأوروبية من هذه الظاهرة الجديدة بمراحل مختلفة في العشرينات. ففي البداية أثارت الثورة والإرهاب رد فعل عنيف من الخوف. وكانت القوة الأولى التي عقدت اتفاقًا رسميًّا مع روسيا هي ألمانيا وبموجب اتفاقية رابالو في عام ١٩٢٢ اكتسبت كلتا القوتين مزايا. فاكتسبت روسيا اعترافًا دبلوماسيًّا، واكتسبت ألمانيا سوقًا وفرصة لضباطها العسكريين والتقنيين بنيل تدريب جيد بمساعدتهم لروسيا. كانت هذه المرة الثالثة التي قدمت فيها ألمانيا مساعدة ضرورية وفي الوقت المناسب للحزب البلشفي. وبالتدريج، خلال العقد التالي، عقد الاتحاد السوفيتي اتفاقيات تجارية مع الدول الأوروبية الغربية، وفي عام ١٩٣٤ تم الاعتراف بعضويتها في عصبة الأمم. لكن علاقاتها مع الغرب كانت تُشَوِّشها بشكل دوري حركات الكومينترن التي نشأت في مارس ١٩١٩، والتي أصر الروس على أنها لا تتمتع بوضع رسمي. عادة ما كانت فعالياتها تتوافق بشكل ملحوظ مع أهداف السياسة الخارجية السوفيتية. ففي الحقيقة كانت تتبع سياسة مزدوجة: من أجل بعض الأهداف، تعمل وفق المبدأ بأن مهمتها كانت تحقيق الشيوعية في دولة واحدة أولًا، ومن أجل الآخرين، تلتزم بالمبدأ بأن الثورة العالمية يجب أن تبقى الهدف الحتمي للشيوعية، بحيث يجب عدم تفويت أي

فرصة لتعزيز هذه الغاية. كانت الثمرة الرئيسية لهذه السياسة في الثلاثينات هي نمو الفاشية وغيرها من الحركات القوية المناهضة للشيوعية في معظم الدول الغربية. وقد ازدهرت هذه الحركات قبل أن تنال الشيوعية أي موطئ قدم في تلك البلدان، وبذلك كانت هي الخاسرة على الدوام.

بحلول عام ١٩٣٢، عندما تم الانتهاء من الخطة الخمسية الأولى، أدت التأثيرات الرئيسية للثورة البلشفية بالإضافة إلى تسوية ما بعد الحرب إلى دفع روسيا أكثر فأكثر خارج أوروبا وأكثر فأكثر إلى داخل آسيا. كما أنَّ كلًّا من العقيدة الماركسية التي تبنَّتها، وأساليب التصنيع التي استخدمتها كانتا مصنوعتين في أوروبا الغربية. لكنهما في روسيا أحدثتا تداعيات جديدة تمامًا. دكتاتورية حزب متراصة قوية، واقتصاد وطني متكامل التخطيط للغاية، وحركة ديناميكية تهدف إلى ثورة عالمية، لم ترافق التصنيع في أي بلد آخر. فالتصنيع في آسيا ارتبط من الآن فصاعدًا بالقوى السياسية المختلفة من التصنيع في أوروبا أو الولايات المتحدة.

كان الإنجاز الأكثر أهمية للثورة البلشفية لتاريخ العالم هو أنها أسست "الاشتراكية في بلد واحد"، وربطت الشيوعية في ذلك البلد بالتقاليد والمشاعر العميقة الجذور للقومية الروسية. كان من المهم أن الحزب البلشفي وسع سلطته على منطقة بوسع مساحة روسيا بأكملها؛ أي سدس مساحة اليابسة على الأرض. احتلت القوى السوفيتية أذربيجان، وأرمينيا، وجورجيا في

عام ١٩٢٠-١٩٢١ ومنغوليا في عام ١٩٢٢. لكن لا يقل أهميةً عن ذلك أنه حتى عام ١٩٤٠ انتهت توسعات السلطة البلشفية. فقد فشلوا في لاتفيا عام ١٩١٩. وفي العام نفسه تمت الإطاحة بالنظام الشيوعي في المجر برئاسة بيلا كون في غضون ستة أشهر. كما فشلت المحاولات الشيوعية للاستيلاء على السلطة في ألمانيا في عامي ١٩٢١ و١٩٢٣، وفي بلغاريا في عام ١٩٢٣، وفي الصين في عام ١٩٢٧، وفي إسبانيا أثناء حكومة الجبهة الشعبية. إن حصر النظام الشيوعي في الأراضي الروسية إلى ما بعد عام ١٩٤٠ كان بالغ الأهمية؛ لأنه أجبر الشيوعية على تكييف نفسها للبقاء على قيد الحياة في بلد محاط بدول غير شيوعية. وهذا ما جعل من الضروري إقامة تحالف، وبالتالي اندماج بين القوى والأفكار القومية والشيوعية. وقد تم تحسين هذا التحالف وتعزيزه من خلال إنجازات الخطط الخمسية، ومن خلال عبادة ستالين كبطل قومي روسي عظيم، ومن خلال تجربة المقاومة الوطنية المستمرة للغزو الألماني بعد عام ١٩٤١. النظام الشيوعي الناجح التالي في يوغسلافيا لم يتأسس إلا بحلول عام ١٩٤٤، وكان عندئذ ذا طابع قومي جدًّا لدرجة أنه عَصَى توجيهات الكرملين. في هذه الأثناء الاشتراكية الديمقراطية، من خلال زيادة المشاركة بالحياة البرلمانية في دول غرب أوروبا، كانت تصبح أيضًا ذات طابع أكثر قومية. وفي جميع أنحاء العالم بعد عام ١٩١٩ اتسع الانقسام في الاشتراكية: وكان كل جناح في الحركة يميل إلى الاندماج مع

القوى القومية[١٦].

٢- المنظمة الدولية:

أنشأ ميثاق عصبة الأمم المنظمة الدولية الأكثر دقة والأوسع انتشارًا على مستوى العالم حتى الآن. لكنها كانت دائمًا بعيدة عن كونها عالمية، وهذا كان عيبًا مصيريًّا. فمنذ البداية تم استبعاد روسيا وكذلك ألمانيا، واستبعدت الولايات المتحدة نفسها. بوجود أعظم ثلاث قوى في العالم خارج أسوارها، أصبحت فعالية العصبة تعتمد على الشراكة العاملة بين فرنسا والكومنولث البريطاني. في عام ١٩٣٣ زاد ضعفها بسبب انسحاب اليابان، على الرغم من قبول دخول ألمانيا في عام ١٩٢٦. في الوقت الذي سمح فيه للاتحاد السوفيتي بالدخول عام ١٩٣٤، انسحبت ألمانيا. حتى بصرف النظر عن الغياب الدائم للولايات المتحدة، لم تكن هناك لحظة كانت فيها جميع القوى الأوروبية العظمى أعضاء فيها في نفس الوقت. ولم تكن أبدًا منظمة عالمية بكل ما لهذه الكلمة من معنى.

بسبب استبعاد القوى الأكثر استياء من التسوية، وبسبب تضمن الميثاق في معاهدات السلام نفسها، كانت العصبة من البداية محددة بالحفاظ على التسوية. كان أمل ويلسون المعزي أن عيوب التسوية التي يمكن معالجتها من خلال العصبة محكوم عليها بخيبة الأمل. لم تثبت العصبة على أنها أداة

١٦ انظر المزيد في الفصل ٢-٤

مناسبة لما أصبح يعرف باسم "التغيير السلمي". دول الخلافة بالتحديد، وبدعم من فرنسا، كانت تميل للنظر في أي تغيير مقترح في التسوية باعتباره ضعف في القاعدة الأساسية لبقائهم. ولأنهم كانوا أقوياء داخل العصبة طوال الوقت، فقد كان ثقلهم حاسماً في منع أي تعديلات مهمة على التسوية من خلال اتفاق مدبر من خلال العصبة. أصبح من المؤكد والواضح أن أي تعديلات جوهرية ستأتي في تحدي للعصبة، وبالتالي عن طريق العنف. إن هذا الجانب الذي جعل منها اتفاق للقوى الأوروبية للحفاظ على الوضع الراهن جاء ليهيمن على جوانبها العالمية كوكالة عالمية للمصالحة الدولية.

في الوقت نفسه، بدأت بالانحلال بعض الافتراضات الرئيسية التي جعلت بنية العصبة تبدو معقولة ومفعمة بالأمل في عام ١٩١٩. عن الجمعية العامة، التي كانت كل دولة عضو فيها ممثلة بالتساوي والتي كان الإجماع فيها مطلوبًا لاتخاذ جميع القرارات الهامة، كانت منطقية طالما كان من المفترض أن الديمقراطية ستكون النمط المشترك على الأقل لمعظم الدول في أوروبا الحديثة، وأنهم سيكونون متشابهين في التفكير بما يكفي للتمسك بالمبادئ والمثل العامة للديمقراطية ويريدون السلام. كانت إحدى مُسلَّمات الفكر الليبرالي في عام ١٩١٩ أن الشعوب الديمقراطية محبة للسلام، ولديها حافز إيجابي لتنظيم نظام سلميّ. هذه الفرضية مغالطة في حد ذاتها، وبقايا لليبرالية المفرطة في الفكر.

علاوة على ذلك، وعلى الرغم من شعبية الدساتير الديمقراطية في أوروبا، كان هناك بعد عام ١٩٢٢ استثناء كبير وحاسم لإيطاليا الفاشية. حتى الحكومات التي كانت ديمقراطية في الأساس والهدف بدأت تسعى إلى تحقيق أهداف بعيدة كل البعد عن الأهداف السلمية أو الليبرالية. وعندما بدأت المنافسات والغيرة القومية، التي عززتها الحرب والاستيطان بدلًا من إضعافها، في السيطرة على العلاقات الدولية، أصبحت آلية العصبة بمثابة تمجيد ليس للديمقراطية الليبرالية بل للقومية. وأصبحت مبادئ التمثيل المتساوي لجميع الدول والتصويت بالإجماع بمثابة تقديس للسيادة الوطنية الانفصالية. من الصحيح أنه لم يكن من الممكن قبول الميثاق والموافقة عليه في عام ١٩١٩ لو تم حذف تلك الأحكام المتعلقة بالحفاظ على السيادة الوطنية: لكن زيف الافتراض بأن الديمقراطية الليبرالية ستنتصر الآن في عالم دمر القوة المتماسكة الوحيدة التي كان من الممكن تتفوق على القومية. عندما ثبت أن هذا الافتراض لا أساس له من الصحة، كان كل ما بقى هو مفارقة في آلية دولية تعمل على أساس مبدأ القومية الذرية، بالإضافة إلى منظمة عالمية لم تكن عالمية. ولم تكن عالمية بما يكفي لتحقيق مصلحة عامة، كما لم تكن متماسكة بما يكفي لإنجاز عمل حاسم كمجموعة من القوى.

كان ذلك بالتحديد عندما أصبحت هذه الحقائق لا تقبل الجدل عندما نما في الرأي العام غموض دولي يتطلع إلى العصبة والمنظمات التابعة لها

لتحقيق المعجزات. إن شعوب جميع الدول المتحاربة السابقة تقريبًا عانوا من نفور عميق من الحرب وأصبحوا مقتنعين أن حرب عالمية أخرى سيجلب الدمار للحضارة. تم تعزيز النظريات والمشاعر المناهضة للعنف في بريطانيا، وفرنسا، وسكاندنافيا والولايات المتحدة. وأصبح الناس يشعرون أنه يجب تجنب الحرب مهما كان الثمن، وبدا أن المنظمات الدولية كانت الوسيلة الوحيدة أكثر من حب السلم الصرف التي بها يعزز السلام. وعندما نصحت البلشفية في روسيا حتمية الحروب الرأسمالية، وعندما كان موسليني في إيطاليا يمجد الحرب باعتبارها قوة لتطهير وإنعاش الشعب الذي يطمح إلى قوة أكبر، وعندما كانت ألمانيا تتسلح من جديد سرًا بمساعدة روسيا، كانت القوى الغربية التي يعتمد نجاح العصبة على انحلالها مشبعة بروح السلام والانهزامية. وأصبحت الأممية بمعنى العزم على البقاء قوية بما يكفي لتعزيز تلك الضمانات "بالأمن الجماعي" المنصوص عليها بالمادتين ١٦ و١٧ من الميثاق مشوشة تمامًا مع حب السلم، بمعنى رفض التفكير في إجراء تقوم به قوة مسلحة، حتى لو كان للدفاع عن أحد أعضاء العصبة من عدوان. سمحت حكومات القوى الغربية لنفسها بنزع سلاحها جزئيًا بسبب الاحتياجات الاقتصادية، وجزئيًا بسبب الضغط من الرأي المحب للسلام، وجزئيًا بسبب العطالة. بما أن الميثاق لم ينص على وجود قوة مسلحة موحدة، وإنما اعتمد كليًّا على الاستخدام المنسق للتسليح الوطني لكبح أو مقاومة

العدوان، فقد سلبت العصبة من موارد قوتها العسكرية عندما كانت تتجمع القوة العسكرية للمعتدين المحتملين، وعندما ظهرت قطاعات واسعة من الرأي العام تعلق آمالها العظمى في توفير الأمن على عمل العصبة. وهكذا كانت الإغراءات الموضوعة أمام معتدي محتمل في ذروتها، في الوقت الذي كان فيه الأمل الوحيد ردعه بنجاح هو إبقاء مثل هذه الإغراءات في حدها الأدنى.

شعورًا منها بقصور العصبة، التي أدركته فرنسا تمامًا منذ البداية، دخلت القوى في سلسلة من الاتفاقيات المنفصلة والتكميلية، المصممة لدعم العصبة أو لمنحها أمنًا منفصلًا في حال فشلت العصبة. انتقل الفرنسيون أولًا إلى دول الخلافة التي كانت مصالحها أكثر انسجامًا مع مصالح فرنسا. فشكلوا تحالفًا مع بولندا في عام ١٩٢١ ثم مع الوفاق الصغير المكون من تشيكوسلوفاكيا، ويوغسلافيا، ورومانيا. في عام ١٩٢٥ نتج عن "روح لوكارنو" معاهدات التي بنتيجتها ضمنت ألمانيا حدود بلجيكا وفرنسا، وتعهدت باللجوء فقط إلى الاتفاق أو التحكيم لتغيير حدودها مع بولندا وتشيكوسلوفاكيا. وضمنت بريطانيا الحدود بين ألمانيا وفرنسا وبين ألمانيا وبلجيكا، ولمدة ثلاث سنوات بدا هناك أمل جديد بتسوية دائمة في أوروبا. في عام ١٩٢٦ تم قبول ألمانيا في العصبة. وأخذت الولايات المتحدة وفرنسا زمام المبادرة في صياغة ميثاق برياند كيلوغ في عام ١٩٢٨ الذي تخلى الموقعون بموجبه عن الحرب

كأداة للسياسة القومية أو- كما كان يقال- "حرَّموا الحرب". تم التوقيع عليه من قبل معظم دول العالم. ففكرة إمكانية خروج الحرب من الوجود عندما يكون هناك حكومات متشددة وعدوانية في العالم كانت تتويجًا لتلك المرحلة من التفكير المثالي والكمالي حول العلاقات الدولية[١٧].

في عام ١٩٣٠ نشر م. برياند اقتراحًا لما كان يضلل بتسميته "الاتحاد الفدرالي الأوروبي"، والذي كان في الواقع شكلًا إضافيًا من أشكال الاتفاق الإقليمي المتعدد الأطراف. لكن عند ذلك الوقت كانت القوى الاقتصادية، وليس السياسية، قد تولت مسؤولية الشؤون العالمية، وفي ألمانيا تم انتخاب ١٠٧ من الاشتراكيين الوطنيين لعضوية البرلمان. وكان شهر العسل بين فرنسا وألمانيا قد انتهى. لقد ارتكز الأمر لسوء الحظ على عوامل مؤقتة – على التردد الحقيقي لكلتا الحكومتين لتفكرا مليًا بالحرب، وعلى العلاقات الشخصية بين آرثر هيندرسون، ورامزي ماكدونالد، والسير أوستن تشامبرلين في بريطانيا، وأريستيد برياند، وإدوار هيريوت في فرنسا، وغوستاف ستريسمان في ألمانيا، كما ارتكز الأمر على انتشار المشاعر المناهضة للحرب في كل هذه الدول الثلاث. لكن تلك القوى كانت سريعة الزوال بحيث لم تتمكن من مواجهة القوى المثيرة للشغب في أوروبا: وكان أعظمها الخوف والفخر

١٧ ولكن مع الجهود المبذولة لإحياء التمييز القديم بين العادل والظالم الحروب وتعريف "الجرائم ضد السلام" في محاكمات نورمبرغ ربما يكون لميثاق كيلوج أهمية متجددة. انظر أدناه، الفصل ١-٥

القومي. وكانت الاضطرابات الاقتصادية تؤدي إلى تفاقم كليهما. وعانت ألمانيا على الخصوص من تضخم مالي حاد أدى، بعد الاحتلال الفرنسي لمنطقة الرور في عام ١٩٢٣، إلى انهيار كارثي للعملة. لقد كانت ثورة أكثر عمقًا من ثورة ١٩١٨؛ لأن الطبقات الكبيرة المتوسطة والمهنية في ألمانيا تدمرت عندما أصبحت المدخرات ومعاشات التقاعد عديمة القيمة. من هذه الثورة الاجتماعية، حتى أكثر من هزيمة عام ١٩١٨، استمدت القوى الهتلرية قوتها.

في هذه الأثناء كانت "مسألة الشرق الأقصى"، التي تذكرها في كثير من النواحي بالمشاكل التي اجتمعت لخلق المسألة الشرقية في القرن التاسع عشر، دخلت مرحلة جديدة. فقد كانت العناصر المكونة صِين ضعيفة وغير مستقرة، وروسيا ديناميكية جديدة، ويابان متوسعة وعدوانية. فالثورة الصينية في عام ١٩١١، التي هدفت إلى طرد كل من حكام مانشو والأجانب، حققت نجاحًا جزئيًا فقط، وتركت الصين فريسة للصراع الداخلي. وفي عام ١٩٢٢ دمرت الحرب الأهلية المقاطعات الشمالية والوسطى، وفي العام التالي الدكتور .صن يات سين، رئيس حزب الكومينتانغ الوطني، عين نفسه رئيسًا للحكومة في كانتون في الجنوب. حزب الكومينتانغ، الذي يقوده المفكرون الصينيون الشبان الذين تشربوا الأفكار الغربية في حق تقرير المصير، كانوا متأثرين كثيرًا بالثورة البلشفية، واتخذ الدكتور صن يات سين مستشارًا رئيسيًّا

له الروسي بورودين. ونما هناك قطاع شيوعي قوي في الحزب، وبسبب تأثير بورودين في الصين، أصبح من الممكن دمج القومية الصينية مع الأهداف السوفيتية للثورة العالمية[١٨]. كانت الثورتان الروسية والصينية وجهَيْن توأمَيْن لحركة عالمية واحدة للتحرر من قيود الرأسمالية الغربية. وكما أرسلت ألمانيا مستشارين وتقنيين إلى روسيا، كذلك أرسل الروس مستشارين وتقنيين إلى الصين. بحدود مشتركة على طول ٤٠٠٠ ميل، كان التأثير الروسي على الصين كبيرًا جدًّا حتمًا. إن مدى المصالح البريطانية في الصين جعلها الهدف الرئيسي للمظالم القومية، وحوادث شانغهاي وكانتون في عام ١٩٢٥ أدت إلى مقاطعة البضائع البريطانية التي كان المستفيد الرئيسي منها هو اليابان.

لكن بحلول عام ١٩٢٧ تغير المشهد. فقد تنبهت بريطانيا لقوة القومية الصينية، فاعتمدت سياسة المصالحة. ونقلت الامتياز في هانكو إلى الصين وأثبتت الحكومة الوطنية نفسها هناك باعتبارها عاصمة مركزية. ظهر هناك انشقاق بين الجناح الأكثر ثورية في حزب الكومينتانغ المتمسك بالانتماء السوفيتي، وجناح اليمين الذي وجد قائدًا جديدًا قويًا في الجنرال شيانغ كاي شيك. أنشأ شيانغ حكومة منافسة في نانكينغ، ونجح في طرد بورودين والمستشارين الروس الآخرين، ثم نقل مقر الحكومة الوطنية إلى نانكينغ.

١٨ يمكن ترجمة "مبادئ الشعب الثلاثة" للدكتور صن يات سين، وهي الأيديولوجية الرسمية للثورة الصينية، إلى "القومية والاشتراكية والديمقراطية"، وكانت بمثابة تكيف مع الظروف الصينية لمُثُل أوروبا الغربية.

وعلى الرغم من أن هذه الحكومة كانت تتمتع بسيطرة ضعيفة فقط أو لم تتمتع بأي سيطرة على الإطلاق على المقاطعات النائية، وأن الشيوعية كانت لا تزال قوية في بعض المقاطعات الوسطى، فإن المصالح البريطانية قد خدمها وجود دولة أكثر تنظيماً للتجارة معها.

من ناحية أخرى تنبهت اليابان من هذا الاحتمال بظهور صين أقوى وأكثر اتحادًا. ومع تضاؤل التأثيرات الروسية، أملت بتجديد هذا التوسع إلى الصين الذي اضطرت إلى التخلي عنه منذ عام ١٩٢١. وبعد عام ١٩٢٨ كان الاتحاد السوفيتي متضمنًا بشكل متزايد في خططها الخمسية الداخلية. سقطت السياسة اليابانية في أيدي العناصر الأكثر عسكرية الذين خططوا لضمان الهيمنة اليابانية على الصين. وكانت القوى الوحيدة التي يمكن أن تقمعها هي القوى الخارجية لبريطانيا والولايات المتحدة: لكن هذه القوى تم تحييدها إلى حد كبير من خلال اتفاقيات واشنطن بشأن القوة البحرية في عام ١٩٢١، وبسبب فشل الولايات المتحدة في تبني أي سياسة صارمة وواضحة تجاه التوسع الياباني في الشرق الأقصى. اليابان المحصنة بقوة بمكاسبها الاقتصادية خلال الحرب وبمكاسبها الإقليمية في التسوية السلمية، شعرت أن الوقت قد حان لتوسع قبضتها على مانشوريا والصين الشمالية. وكان من المقرر أن تبدأ حملة التوسع هذه في عام ١٩٣١ باحتلالها كل مانشوريا وغزو شانغهاي وجزء كبير من شمال الصين. لم يكن الصينيون، المنقسمون بشدة

وغير المنظمين، في وضع يسمح لهم بالمقاومة بفعالية. وعلى الرغم من أنه لم يتم الإعلان عن الحرب رسميًّا، فقد بقيت الصين في حالة عداء مع اليابان منذ عام ١٩٣١ حتى هزيمة اليابان في عام ١٩٤٥.

إن الأهمية العظمى لهذه الثورة في ميزان القوى في المحيط الهادئ والشرق الأقصى كانت مخفية حتى بعد الحرب العالمية الثانية. لكن النتيجة المباشرة كانت تشويه سمعة منظمة الأمن الدولية التابعة لعصبة الأمم. وعندما ناشدت الصين العصبة في عام ١٩٣١ كان ذلك بمثابة الاختبار الأول لقدرة هذه المنظمة على التعامل مع قضية تتضمن عدوان صريح من إحدى القوى الكبر ضد أخرى[١٩]. أرسلت العصبة لجنة برئاسة اللورد ليتون لتقديم تقرير عن الوضع. تجنب التقرير أي اقتراح بضرورة تنفيذ العقوبات بموجب المادة ١٦، ورفض الأعضاء القياديون في العصبة اتخاذ أي إجراء عسكري لمساعدة الصين. وقبلوا بالحل الذي ترك اليابانيين محتلين مانشوريا وشمال شرق الصين. ومن هنا فصاعدًا تم الاستنتاج بأنه لا يمكن الاعتماد على العصبة على الإطلاق كضامنة للأمن، مهما كانت أفعالها قيمة في تعزيز التعاون الدولي حول منع تجارة العبيد البيض أو المخدرات. لقد عانت من أول ضربة خطيرة لها باعتبارها أداة لمنع الحرب أو العدوان، وعادت فعليًا

١٩ بقصفه لكورفو وانتزاع تعويض من اليونان في عام ١٩٢٣، أجبر موسيليني بنجاح القوى للتصرف من خلال مؤتمر السفراء أكثر من العصبة والمحكمة الدولية: لكن كان أحد الأطراف يمثل قوة صغيرة. وبذلك كانت كورفو نذيرًا لأمور قادمة.

الفوضى الدولية التي كانت سائدة قبل عام ١٩١٤.

إن هذه التطورات في عشرينات القرن العشرين تركت المنظمة الدولية "غير متماسكة". وعلى المستوى غير الرسمي أو شبه الرسمي استمر تعاون أواخر القرن التاسع عشر البناء. إن العادات والمثل الفكرية التي أنتجت الصليب الأحمر الدولي، والاتحادات الفيدرالية للتجارة الدولية، وحركة الكشافة، وأربعمائة أو خمسمائة هيئة تطوعية مماثلة استمرت بلا هوادة. وتشير التقديرات على عقد ما معدله مائة مؤتمر دولي كل عام، ولا يمكن إغفال دور مثل هذه النشاطات في نسج نسيج المجتمع الدولي الحقيقي. كما عبر عنه أحد الكُتَّاب الإنكليز في عام ١٩٣٢:

إن دراسة استقصائية للمجتمع الدولي تظهر أنه ليس مكونًا فقط من علاقة كل دولة بكل دولة أخرى، وإنما من تعاون الأطباء، وخبراء الإحصاء، نقابيي التجارة، وأصحاب الفنادق، والكشافة، وغرف التجارة، والبرلمانيين، وأعداد لا تحصى من الاختصاصيين المجموعين من كل دولة في العالم تقريبًا في جمعية ليس باعتبارهم مواطنين في بلدانهم بل كممثلين لعمل معين أو مصلحة.[٢٠]

حتى إن الكثير من التعاون على مستوى رسمي أكثر كان يهتم بتوسيع الاتفاقيات السابقة حول الترتيبات البريدية، والتجارية، والتلغراف،

٢٠ اس إتش بيلي: إطار المجتمع الدولي (١٩٣٢)، ص. ٢٩.

والشحن. ومن خلال منظمة العمل الدولية وجمعيات الصحة والاقتصاد التابعة للعصبة، تم منح المزيد من الدعم الرسمي والمباركة للمنظمات التطوعية. من ناحية أخرى، وعلى مستويات سياسية ودبلوماسية أرفع، كانت "الدبلوماسية الجديدة" من خلال مؤتمر دولي وآلية دائمة للتشاور والتعاون في جنيف، تنهار بسرعة دون أي عودة علنية إلى أساليب "الدبلوماسية القديمة" المثيرة للسخرية. وكذلك ظهرت هناك خارج القارة الأميركية تجمعات إقليمية محدودة تضم دولًا ذات تفكير متماثل ولها مصالح مشتركة. كما تم تجنب التحالفات المفتوحة باعتبارها ارتدادًا إلى الأساليب القديمة السيئة، وتم تبرير التقاعس عن العمل بالاعتماد على آلية العصبة المحطمة. وفي النتيجة تم منح المعتدين والمعتدين المحتملين ضمانًا بأنه بإمكانهم المُضيّ قُدمًا بالإفلات من العقاب. كان فن الحكم الدولي في عشرينات القرن العَشرين، كما تم تطبيقه على القضية المصيرية بمنع العدوان، رثًّا بقدر ما أصبح فن القيادة العامة خلال الحرب العالمية الأولى. وانتقلت القيادة إلى السفن الديكتاتورية الجديدة المسلَّحة جدًّا، التي صادف أن تكون جميعها معارضة للتسوية وحريصة على تدميرها. وفي هذه الأثناء حلت بالعالم ثورة الكساد الاقتصادي الأكثر صمتًا ولكن ليست الأقل تهديدًا.

٣- الأزمة الاقتصادية:

تكمن جذور الأزمة الاقتصادية العالمية التي بدأت في عام ١٩٢٩ في

اختلال التجارة الدولية والاقتصاد القومي بسبب الحرب العالمية أكثر مما تكمن في مشاكل ديون الحرب ومدفوعات الإصلاح التي كانت تعطى اهتمامًا كبيرًا خلال عشرينات القرن العشرين. فاقمت هذه القضايا المتنازع عليها بشدة العواقب الاقتصادية للحرب؛ لأنها حولت الانتباه بعيدًا عن المشاكل الرئيسية، ولأنها لا تنطوي على حركة مرور في كلا الاتجاهين للبضائع، كما هي الحال في التجارة، بل على إلقاء الثروة في اتجاه واحد من المدين إلى المتلقي[٢١]. خلال الحرب انقطعت الاتصالات التجارية القائمة، ولم يتم إنتاج السلع من أجل التصدير بل كمستلزمات الحرب، كما تم التضحية بالسلع الاستهلاكية لصالح المنتجات الحربية، وتم بيع الاستثمارات الرأسمالية في الخارج. عند نهاية الحرب كانت الأسواق العالمية قد غيرت كليًّا طابعها وموقعها. وكانت حدود دولة جديدة تعني عادة حواجز جمركية جديدة خاصة في أوروبا الشرقية، وكان سور روسيا العظيم منعزلًا لبعض الوقت عن بقية الاقتصاد العالمي.

لكن في البداية، مع الحاجة إلى ترميم الأضرار وتأخر الإنتاج الناجم عن الحرب ومع عودة موارد جديدة من العمالة بعد تسريح الجيش، كان هناك بروز مفاجئ لرخاء عظيم. أدى الازدهار الذي حدث في أوائل العشرينات في كل دولة إلى اعتياد الناس على فكرة أن السلام والازدهار يسيران جنبًا إلى

٢١ تم دفن القضيتين فعليًا في مؤتمر لوزان عام ١٩٣٢.

جنب حقًّا. كما حفزت السلع الجديدة مطالب شعبية جديدة- للسيارات، وأجهزة الراديو، والأفلام خصوصًا: وحثت هذه بدورها مطالب فرعية من طرق وكراجات والمعدات الكهربائية ودور السينما. إن ميكنة الزراعة جلب الطلب للجرَّارات. وما كان تقريبًا مرحلة جديدة من الثورة الصناعية رافق الانتعاش بعد الحرب خاصة في الولايات المتحدة والدول الأوروبية الغربية.

إن الطلب لهذه السلع أصبح فعالًا من خلال أنظمة الائتمان الجديدة، بما فيها نظام الشراء بالتقسيط (أو بالأصح، الدفع المؤجل) الذي يمكن المستهلك من الاستمتاع بهذه السلع قبل أن يتمكنوا من دفع ثمنها. على المستوى الدولي أيضًا تم إطلاق مخططات إعادة الإعمار على أساس القروض. وكانت السوق العالمية تعتمد، كما كانت قبل الحرب، على آليات معقدة من الائتمان الدولي: وكانت القاعدة الاقتصادية "لروح لوكارنو" وجو المصالحة في منتصف العشرينات هي إعادة مؤقتة للائتمان الدولي. في هذه العملية لعبت قضايا ديون الحرب والإصلاح دورًا مهمًا. في عام ١٩٢١ تم تحديد مدفوعات الإصلاح المطلوبة من ألمانيا ٦,٦٠٠ مليون جنيه إسترليني. خطة دوز لعام ١٩٢٤، التي نظمت دفعات هذا المبلغ على شكل أقساط سنوية، نظمت أيضًا أن تتلقى ألمانيا قرضًا أجنبيًا بقيمة ٤٠ مليون جنيه إسترليني. تمت المساهمة بهذا القرض أكثر من اللازم، بحيث جاء أكثر من نصف المبلغ الإجمالي من الولايات المتحدة، وأكثر من الربع من بريطانيا العظمى. إن نجاح القرض

تبعه انغماس ألمانيا المفرط بالاستدانة بشكل رئيسي من الولايات المتحدة، وأطلق هذا التدفق في رأس المال موجة من الرخاء. قليلون هم الذين رأوا مخاطر المفارقة في إقراض ألمانيا المال لتسدده في تعويضات. وأصبحت ديون الحرب بين الحلفاء مرتبطة بشكل وثيق بالتعويضات؛ لأن فرنسا أصرت أن يعتمد سدادها للديون على تلقي تعويضات. بالإجمال وصل المبلغ إلى حوالي ٤,٠٠٠ مليون جنيه إسترليني، وكانت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى الدول الدائنة الكبرى. إن سداد هذه الديون (باستثناء ديون روسيا التي امتنعت الحكومة البلشفية عن دفعها) سبب مشاحنات دولية طويلة ومعقدة، ومرة أخرى جعلت عمليات التحويل غير ممكنة إلا عن طريق القروض والائتمان من الولايات المتحدة. وبالتالي كانت النتيجة تدفق من القروض القصيرة الأمد عبر المحيط الأطلسي إلى أوروبًا، مما خلق جوًا مؤقتًا من الرخاء والازدهار.

لقد أدى السداد الجزئي للقروض الأميركية بالذهب إلى تجريد الدول الأوروبية منه، في الوقت الذي كان فيه الذهب لا يزال القاعدة الأساسية لنظام النقد الدولي، بالإضافة إلى معظم العملات الوطنية. مع نهاية العقد، بدأت العملات الورقية في الانخفاض من حيث قيمتها. وكان الازدهار في أوروبا، وبالتالي في معظم بقية العالم، يعتمد على استعداد الأميركيين بالاستمرار في إرسال الدولارات عبر المحيط الأطلسي. وإذا توقف هذا

فجأة كما توقف في خريف عام ١٩٢٩، فلا بد أن تكون هناك عواقب كارثية في جميع أنحاء العالم. وتعرف هذه العواقب بالأزمة الاقتصادية العالمية.

على الرغم من أن الخبراء لا يزالون يختلفون حول الأسباب الدقيقة للأزمة، إلا أنها بدون شك كانت مرتبطة أيضًا بكساد الزراعة الغربية الذي أدى إلى وصول أسعار القمح في أواخر العشرينات إلى أدنى مستوياته منذ أربعمائة عام. ولأن الأساليب الزراعية الأكثر كفاءة في البلدان الغربية يمكن أن تنتج من القمح أكثر مما يمكن أن تستهلكه، ولأن البلدان الشرقية في آسيا تحتاج من القمح أكثر مما يمكنها دفع ثمنه، فإن البلدان الصغيرة المصدرة للمنتجات الزراعية هي التي عانت أولًا. دول مثل الأرجنتين، وتشيلي، والأوروغواي، وأستراليا، ونيوزيلاندا وجدت أنها بسبب عدم قدرة صادراتها الزراعية على سداد ثمن وارداتها، فيجب دفع المزيد من وارداتها بالذهب. فبدأ الركود يتبع الازدهار. ومع امتداد الكساد على سلع أخرى، وجدت بريطانيا أيضًا أن احتياطها من الذهب قد تضاءل. وبحلول عام ١٩٣١ خرجت عن معيار الذهب وبالتالي خفَّضت قيمة الجنيه الإسترليني. وحذت حذوها أكثر من عشرين دولة أخرى لحماية صناعاتها الخاصة من منافسة البضائع البريطانية الأرخص. وعلى الرغم من أن معظم ذهب العالم انتقل إلى الولايات المتحدة، إلا أنها اعتقدت أنه من الحكمة التخلي عن معيار الذهب لعملتها. ومع هذا الاضطراب في نظام النقد الدولي لجأت

الدول إما إلى السيطرة الحكومية على العملة، أو المقايضة البسيطة، وفي كلتا الحالتين تمت إعاقة التدفق السلس للتجارة الدولية. هذا الانكماش في السوق العالمية، بالإضافة إلى انكماش في الدخل القومي في الولايات المتحدة، أدى من الناحية الإنسانية إلى كارثة كبيرة: وهي البطالة الجماعية. فبحلول عام ١٩٣٢ كان عدد العاطلين عن العمل في الولايات المتحدة ١٥ مليون وفي ألمانيا ٦ مليون.

إن البطالة التي كانت موجودة إلى حد ما بشكل مستمر بعد الحرب، والتي كانت تعود جزئيًا إلى ميكنة و"ترشيد" الصناعة، ازدادت الآن مع انكماش السوق العالمية والأزمة الاقتصادية في عام ١٩٣١. لقد خلقت مناخًا مواتيًا للحركات السياسية الجديدة للثورة الجماهرية التي اكتسبت قوتها في الثلاثينات. وبدون قوة شرائية ضخمة لا يمكن أن ينفع الإنتاج الضخم: ومع بطالة واسعة النطاق، فإن القوة الشرائية تتضاءل. بحلول عام ١٩٣٢ كان هناك ٣٠ مليون شخص عاطل عن العمل في العالم، بالإضافة إلى عدة ملايين يعملون لساعات قصيرة وملايين أكثر في إفريقيا وآسيا لا توجد حولهم معرفة إحصائية. وكانت النتيجة المباشرة معاناة إنسانية، وإحباط شخصي، وصعوبات اجتماعية: وكانت النتيجة الأساسية هي أن الضحايا انتقلوا بسبب اليأس، إلى الحركات السياسية المتطرفة لكل من الشيوعية أو الفاشية اللتين وعدتا بمعالجة البطالة وتأمين قاعدة جديدة

للانتعاش الوطني والازدهار المادي. لم تكن الظروف في العالم الغربي قط مواتية أكثر لطموح أي زعيم عامِّي أو مغامر يتمتع بالبصيرة والمهارة اللازمة لاستغلال السخط الجماهيري. ولهذا السبب في هذه السنوات، أصبحت كل من الشيوعية والفاشية ظاهرتين دوليتين بطبيعتهما، ونهضتا من بلد تلو الآخر على هذه التربة الغنية بالإحباط والضيق الشعبي.

انفجرت الأزمة الاقتصادية العالمية مع انهيار بورصة الأوراق المالية في نيويورك عام ١٩٢٩. وقد أدت المضاربات الجامحة والمتهورة إلى ارتفاع قيمة الأسهم والأوراق المالية إلى أرقام خيالية. وحالما اهتزت الثقة قليلًا، تبع ذلك عمليات بيع جامحة للأسهم، التي تصاعدت إلى انهيار مذهل لسوق الأسهم. فخلال شهر واحد انهارت قيمة الأسهم ٤٠٪، وبحلول عام ١٩٣٢ أفلس ٥,٠٠٠ مصرف أميركي. بسبب سحب الأميركيين استثماراتهم من الخارج، ولأنهم اشتروا واردات أقل من الخارج، انتشر الانهيار بسرعة إلى بلدان أخرى. وتباطأ الإنتاج في كل مكان، وتقلصت التجارة، وازدادت البطالة. في عام ١٩٣١ البنك النمساوي الرئيسي "بنك كريديت انستالت" فشل مما أدى إلى حدوث أزمة مالية في أوروبا. وبين عامي ١٩٢٩ و١٩٣٢ تقلصت التجارة العالمية على ثلث حجمها، بينما ازدادت أعداد العاطلين عن العمل.

في مواجهة هذه الكوارث أظهرت الحكومات ومستشاريها الخبراء بعض التفهم وروح المبادرة كما أُظهِر بتعاملهم في السياسة والدبلوماسية الدولية.

وبدت الأمور في كل مجال أنها خرجت عن السيطرة. وبدا أن الجواب الواضح هو إعادة تأكيد السيطرة وهذا ما يعني إما اللجوء إلى التخطيط الاقتصادي المنهجي على الطريقة الروسية، أو إلى الانضباط الديكتاتوري للحياة الوطنية على الطريقة الإيطالية. فضلت الولايات المتحدة، حتى استلام الرئيس روزفلت عام ١٩٣٣، أن تثق بالمبادرات الشخصية لإخراج نظام من الفوضى. لقد فسر قادتها الأزمة على أنها شكل حاد استثنائي من دورة التجارة التي تتسم بالازدهار والركود، وانتظروا صعود الدورة لانتشال أميركا من الكساد. شكلت بريطانيا في عام ١٩٣١ حكومة وطنية منحت ما يسمى "وصاية الطبيب" لمعالجة المشكلة بأفضل شكل ممكن. فرنسا، التي كانت متوازنة ومكتفية ذاتيًّا أكثر في اقتصادها الوطني وأقل حساسية لتقلبات التجارة الدولية، عانت بشكل أقل حدة من جيرانها وفي وقت متأخر عنهم. لكن تم دفع الحكومات العامة إلى التلاعب والسيطرة على العملات ومنح الحماية لزراعتهم وصناعاتهم. كما انتابت أوروبا القومية الاقتصادية التي تزامنت مع العودة إلى الانفصالية الدبلوماسية. وأصبحت الآن كل دولة لنفسها. وأقرت الولايات المتحدة تعريفات هاولي سموت في عام ١٩٣٠، وفي عام ١٩٣٢ اعتمد الكومنولث البريطاني في مؤتمرات أوتاوا نظام تفضيلات التعريفات الجمركية الإمبريالي. لقد انهارت قوى التكامل في الاقتصاد العالمي بنفس الوضوح الذي انهارت فيه المنظمة الدولية لمنع

العدوان. وكانت الأعوام بين ١٩٢٩ و١٩٣١ هي سنوات الانحطاط الأدنى منذ عام ١٩١٤ للتعاون الدولي العام.

٤- الانحلال الثقافي بين الحربين:

مع هذه القوى القوية المتفككة التي عطلت النظام الدولي والاقتصاد العالمي لم تكن هناك داخل كل دولة قوى أقل قوة التي أتلفت الوحدة الثقافية والنزاهة الفكرية فضلًا عن التجانس الاجتماعي. تميزت فترة العشرينات في ألمانيا بثورة اجتماعية دمرت بنية الطبقة الوسطى فيها، وبانحدار أخلاقي حوَّل أعظم مدنها إلى مراكز للرذيلة، وتميزت هذه الفترة في الولايات المتحدة بكل الشرور الاجتماعية التي رافقت تجربة التحريم، وتميزت في فرنسا بالفضائح السياسية وتراجع في المعنويات العامة، كما تميزت في بريطانيا بالنزاعات بين رأس المال والعمال التي بلغت ذروتها في الاضراب العام عام ١٩٢٦، وتميزت في الهند بأعمال الشغب المتكررة وبجهود المهاتما غاندي لطرد البريطانيين من بلاده وبوقف التصنيع. وتميزت الثقافة الأوروبية ككل بتجارب غريبة في الفن والأدب ومغامرات عصابية في التعبير الفني عن الذات. ولم يبق أي من الأنظمة القديمة بمنأى عن زلازل الحرب وانعكاسات الكساد الاقتصادي. كانت أساليب رجال العصابات والمبتزين من جهة، والمضربين النقابيين والرابطات الفاشية من جهة أخرى، متشابهة بشكل ملحوظ: وقد قيل: إن المارشال جورينغ مد يده إلى مسدسه عندما سمع كلمة "ثقافة".

إن الانفصال بين الفنان المبدع وجمهوره الذي أظهر نفسه بحلول عام ١٩١٤، تطور الآن إلى جنون إلى الحلقات والتجارب المفهومة لفئة قليلة، ومن الجهود المحرفة للتعبير عن الذات التي لا يقدرها سوى فئة قليلة التي تتجاوز فهم بقية البشر. ففي الشعر، والموسيقا، والرسم، والنحت اعتبر الجيل الجديد من الفنانين أن الإيقاعات والخطوط الناعمة للأشكال المؤلفة غير مناسبة للتعبير عن الاضطراب وعدم الأمان الذي شعروا أنه سائد في عالم ما بعد الحرب. وبدا أن الشعر الحر، والتنافر، والسريالية أكثر ملائمة للتعبير عن رؤيتهم للحقيقة. وعلى حد سواء في الرسم والشعر، أدت التكعيبية من خلال "الدادية" إلى السريالية، معلنة في طريقها "عبثية الفن" و"تطابق المتناقضات". كانت الدادية التي بدأها تريستان تزارا في سويسرا، بمثابة تمرد اجتماعي وفني ضد جميع الأعراف. لكنها عبرت بشكل فوضوي لدرجة متطرفة عن نوع الدافع الذي أنتج شعر سيتويل. وفي الأدب تزامنت شعبية دي إتش لورانس مع الاهتمام المتزايد بعلم النفس الفرويدي واللا عقلانية، وكرس جيمس جويس ستة عشر عامًا لإنتاج عمل ضخم بعنوان "يقظة فينجان" الذي وجده أغلب القراء غير مفهوم. في بعض الأحيان يستطيع "التجديدي المعتدل" مثل تي اس إليوت، أن يجسد طابع ذلك الوقت في قصائد مثل "الأرض المفقودة" و"الرجال المجوفين".

كانت السمات الرئيسية للنشاط الثقافي في أوروبا هي تطور الصراعات

الداخلية التي كانت موجودة مسبقًا في عام ١٩١٤ [٢٢]، فقد أصبحت الآن مبالغ فيها ومعقدة بسبب ردود الفعل ضد القومية التي أعقبت الحرب. استمرت الثورة ضد الفكر، متوجة التجريب غير الواعي والمحموم بأساليب جديدة، وكلما كانت "بدائية" كلما كانت أفضل. لقد أدى تجريد الفكر والفن من الجنسية إلى التخلي عن القيم التقليدية فضلا عن الصيغ المألوفة، وقيل الكثير عن الحاجة إلى أدب منفتح. تماشى مع الثورة ضد القومية تعاطف أقوى مع الاشتراكية والشيوعية. وأصبح هذا التطور أقوى في الثلاثينات. كان أعظم شخصية أدبية فرنسية، أندريه جيد، يمتدح الشيوعية بعد عام ١٩٣٣ حتى زار فعلًا موسكو في عام ١٩٣٦. وهكذا اكتسبت فكرة "الأدب الملتزم" قوة تدريجية ثانية. وخلف أودن وسبيندر فرجينيا وولف وخلف سارتر كوكتو. وعادت الواقعية الصارخة والدنيئة لزولا التي بدت وقد عفا عليها الزمن في العشرينات في شكل الرواية "البروليتارية" التي غالبًا ما كانت تُكتب باللغة العامية للأحياء الفقيرة بواسطة "رجال من الشعب"؛ أي النوادل، واللصوص السابقين، والمتشردين. بعد فترة وجيزة من الحرب، ازدهرت الأوبرا "البروليتارية" في ألمانيا مع أوبرا "ثلاث بنسات" لكورت ويل في عام ١٩٢٨ وأوبرا "ووزيك" لألبان بيرغ في عام ١٩٢٢ على الرغم من أن جمهورهما كان من البرجوازيين بالتأكيد. الآن، وتحت وطأة الركود الاقتصادي العالمي، انتعشت بقوة جديدة حيث اكتشف المسرحيون

٢٢ انظر في الفصل ١، ٣.

والروائيون مأساة البطالة الجماعية وبؤس الأحياء الفقيرة. لكنهم كانوا بعيدين عن التواصل مع جماهير العامة، الذين أصبحوا متعطشين بشكل متزايد لأشكال جديدة من التسلية التي تتطلب مجهود فكري أقل. الثقافة الشعبية الفقيرة بعد انفصال الفنان عن الجمهور، يمكن بسهولة أن تصبح إحدى التسليات غير الفعالة، والرياضات الجماعية، والمقامرة، والمجلات الشعبية، والكتابات التافهة، وموسيقا الجاز، والاحتفالات الصاخبة.

على الرغم من أن الكثير من التاريخ الثقافي لسنوات ما بين الحربين كان سلبيًا ومحبطًا، إلا أنه يمكن أن يظهر إنجازات ذات قيمة أكثر ديمومة حيثما كان الجهد الفني يتوافق مع احتياجات المجتمع الحقيقية ودوافعه. لقد أنتجت ألمانيا ما قبل النازية أحد أعظم رؤائيي العصر، توماس مان. تمتع الباليه بشعبية كبيرة وازدهر فيها. وفي فن العمارة ابتكر رجال من أمثال والتر غروبيوس نماذج جديدة تتلاءم مع المواد الإنشائية الحديثة والمناسبة أيضًا لاحتياجات المصانع والمدارس التي يقضي فيها أفراد المجتمع المدني الحديث الكثير من وقتهم. بعض أجمل ناطحات السحاب والجسور في أميركا بنيت خلال هذه السنوات، وتطورت بأسلوب يتوافق مع موادها الأولية من حديد وأسمنت. وكما اقترح نيكولا بيفسنر "تقريبًا كل بناء يصمم في الوقت الحاضر يخدم جماهير الناس وليس الأفراد. لذلك يجب ألا يكون أسلوبنا متكيفًا مع إنتاج العامة، بمعنى أن الإنتاج ليس فقط كميات

وإنما للجماهير"[٢٣]. محطات أنفاق لندن التي صممها تشارلز هولدن هي أحد الأمثلة على هذه التكيفات. فحيث امتزج الابتكار والتجربة مع القيم التقليدية، كما هو الحال في شعر تي اس إليوت، وفلسفة ماريتين وبيرديف، وموسيقا فوغان ويليامز وديليوس، فقد حرر فنانو ذلك الوقت أنفسهم من مجرد المزاج العابر. ومن المهم أيضًا المكانة الدولية التي يتمتع بها الفيلسوف الإسباني المولد جورج سانتايانا، والأديب الهندي الأكثر موهبة وإنتاجًا في العصر الحديث رابيندرانات طاغور. إن امتداد نظرتهما وجاذبيتهما إلى قارات آسيا، وأوروبا، وأميركا، يمثل كلاهما دولية حقيقية للثقافة.

علاوة على ذلك، فإن استهلاك الثقافة في العصر الحديث أكبر بكثير من إنتاجها، ولا يمكن الحكم على التاريخ الثقافي لفترة ما بين الحربين فقط من خلال كتابها وفنانيها الجدد. فقد تكون تطوير وسائل إعلام أكثر لنشر الثقافة على نطاق أوسع بكثير من أي وقت مضى. يعد الراديو أقوى وسيلة تم اختراعها لإيصال الموسيقا، والأدب، والأفكار، إلى بيوت والعائلات العادية وحياتها اليومية. وأيضًا تم تطوير الأفلام، كشكل من أشكال الفن، خلال سنوات ما بين الحربين وجعلته دور السينما الرخيصة متاحًا للجميع. ووسعت وسائل النقل السهلة والرخيصة آفات الطبقات الوسطى. كما جعلت الطباعة الرخيصة الكتب الجيدة قابلة للشراء من قبل الأشخاص

٢٣ نيكولاوس بيفسنر: مخطط للعمارة الأوروبية (١٩٤٣)، ص. ٢٦٥'

ذوي الإمكانات البسيطة، وجعلتها المكتبات العامة متاحة للجميع. تم توسيع وتحسين التعليم الشعبي مع توفر المزيد من المعلمين المدرَّبين. في بلدان أوروبا الشرقية، وآسيا، وإفريقيا بدأ الهجوم بقوة على الأمية. ففي الاتحاد السوفيتي وتركيا بذلت الحكومات جهودًا حثيثة لرفع مستويات معرفة القراءة والكتابة. في كل هذه الطرق انتشرت الثقافة التقليدية بشكل واسع بين جماهير الناس. لكن قدمت مثل هذه التسهيلات أيضًا الفرص للتلقين والدعاية الوطنية التي تمكنت من مقاومتها القليل من الحكومات والتي استغلتها دول الحزب الواحد إلى درجة كبيرة.

حدثت الوطنية في الثقافة الشعبية على قدم المساواة مع الميول إلى "التجريد من الجنسية" والعالمية في الفن الحديث: مما أدى إلى اتساع الفجوة بين الفنانين المعاصرين وجمهورهم.

تمتعت الثقافة الأميركية إلى حد بعيد بالحصانة تجاه هذه الميول التي كانت مماثلة لسياستها الانعزالية. كان هذا جزئيًا؛ لأن الفلسفة الوضعية والبراغماتية كان لديها سطوة بدون منازع في الولايات المتحدة حيث احتفظ ويليام جيمس وجون ديوي بتأثير هائل، وتوافقت الظروف الاجتماعية في العشرينات مع هذه النظرة. لقد كان عصرًا من الانسجام والتعصب العام مع عدم مطابقة، على الرغم من التدفق المستمر للنقد الاجتماعي الذي حافظ عليه كاتب من أمثال سينكلير لويس، وترحيب معين ممتد إلى شعراء

الثورة. لكن الافتراضات العامة للمادية هي التي كانت سائدة، والتوسع المستمر للبلاد من حيث عدد السكان والثروة لم يولد أي تحدٍّ جذري للنظام القائم، حتى إلى القومية. وكما قال مؤرخان أميركيان بارزان: "كانت المدن أكبر، والمباني أعلى، والطرقات أطول، والثروات أكبر، والآليات أسرع، والجامعات أكبر، والنوادي الليلية أكثر مرحًا، والجرائم أكثر، والمؤسسات أقوى، من أي وقت مضى في التاريخ، وأعطت الإحصائيات المرتفعة معظم الأميركيين شعورًا بالرضا إن لم يكن بالأمان.[٢٤]

لقد جاء انهيار عام ١٩٢٩ مصحوبًا بصدمة أكبر، وفي الثلاثينات بدأ البحث عن القلب.

لم تكن الثقافة الروسية، التي جذبت بإبداعها الكثير من الاهتمام والإعجاب في الخارج، أقل مادية في لهجتها. كما لم تكن في نهاية الأمر أقل قومية، وعلى الرغم من أن فن العمارة، والنحت، والمسرح تمتعت بنهضة في ظل التشجيع الحكومي، إلا أن الفلسفة، والرواية، والدراسات الإنسانية عانت من قيود الماركسية أكثر مما اكتسبته من حافز من جمهور أكثر حرصًا متاحًا لهم.

أظهرت الأنظمة الفاشية في إيطاليا، وألمانيا، وإسبانيا منذ البداية عداء كبيرًا لحداثة الفن التي اعتبروها دليلًا على الانحطاط. لقد سَعَوا إلى إعادة

٢٤ أي نيفينز و إتش إس كوماجر: أميركا: قصة الشعب الحر (١٩٤٢) الصفحات ٥-٤٠٤.

التأكيد على الأشكال الوطنية التقليدية، لكن في ظل الظروف المتشنجة الخانقة التي فرضتها الدولة البوليسية، لم يكن من الممكن سوى القليل من النشاط الإبداعي في الفنون[٢٥]. لقد كان كلٌّ من إنتاج واستهلاك الأفكار الجديدة أكبر في العلوم مما كان في الفنون. وهنا على الأقل كان هناك انسجام وثيق بالاهتمام بين النخبة وعامة الناس. ومن المميز ربما، أن العلم الأكثر شعبية كان علم الفلك، وقد كتب السير جيمس جينز والسير آرثر إيدينغتون الكتب الأكثر مبيعًا. لكن طورت كل دولة غربية مرافق أكبر للتعليم العلمي والتكنولوجي، وأمطرت الحكومات بالأموال على الأبحاث العلمية والصناعية. ففي بريطانيا تم إنشاء دائرة البحوث العلمية والصناعية في عام ١٩١٦، وسرعان ما تبعتها الدول ذات السيادة وفرنسا. لقد عززت الحرب الأولى في كثير من النواحي نمو المعرفة العلمية ذات الطابع النفعي. وتم توسيع المرافق الطبية والمعرفة الطبية في معظم البلدان. كما حققت العلوم الفيزيائية والرياضية تقدمًا مذهلًا. في عام ١٩١٩ نجح اللورد روثرفورد في فعل ما فشل كيميائيو العصور الوسطى في فعله؛ فقد اخترق الحاجز حول النواة الذرية وحول النتروجين إلى أوكسجين. وتحت إشرافه أصبحت فترة العشرينات عصرًا ذهبيًا في مختبر كافينديش في كامبريدج، وكشف فريق رائع

٢٥ لا يحتاج المرء إلا أن يتذكر "حرق الكتب" الشهير لهير جوبلز، والذي أدان أعمال رجال مثل أينشتاين، وفرويد، وبروست، وويلز، بالإضافة إلى أعمال ماركس، وجيد، وأبتون سنكلير، وحتى جاك. لندن، لتقييم المفهوم الشمولي للثقافة.

من الباحثين من عدة دول عن أسرار الذرة والنيوترون، مما مهد الطريق بدون قصد إلى اختراع القنبلة الذرية. كان من بينهم الدانماركي نيلز بوهر، والألماني أوتو هاهن، والروسي بيتر كابيتزا.

بهذا المعنى بقي العلم دوليًا. خلال فترة الثلاثينات واجه إعاقات متزايدة من الدول ذات الحزب الواحد الغيورة، لكن في الدول الديمقراطية كانت المعرفة العلمية تتجمع وتتداول بحرية كافية. فقط بعد عام ١٩٤٥ كان لدى العلماء سببٌ للقلق بشدة بسبب الصراع بين الالتزامات والمطالب الوطنية وواجباتهم تجاه البشرية والحقيقة الموضوعية، الذي عانى منه الفنانون والأدباء قبل عقدين. لقد كان الانقسام في الاشتراكية العالمية، والانشقاقات في القومية، وانهيار الأممية، واضطراب الاقتصاد العالمي مصحوبًا بانقسام الذرة. وهذا ما أنتج بدوره، بسبب إمكاناته التي لا تحصى في عالم فوضوي، تأميمًا ما للعلم. ولقد كان تسخير العلم "لسباق الفضاء" بعد عام ١٩٥٨ هو ذروة هذه العملية.

٤

العقد ما قبل الحرب

١٩٢٩ - ١٩٣٩

١ - دول الحزب الواحد:

إن جوهر الدكتاتورية الحديثة هو احتكار الحكومة من قبل حزب سياسي تم تشكيله أساسًا لإحداث ثورة. إن إنجاز لينين في قيادة الحزب البلشفي الثوري إلى سلطة مطلقة في روسيا حدد نمط الثورات اللاحقة: لكن من المفارقة أن أكثر طلابه نجاحًا كانوا قادة الحركات المناهضة للشيوعية. وخلال خمس سنوات من الثورة البلشفية استخدم موسوليني حزبه الفاشي ليؤسس للدكتاتورية في إيطاليا، وبعد ذلك بسنتين حدد هتلر في كتابه "كفاحي" الاحتمالات أمام حزب ألماني مشابه شرس بما يكفي للإطاحة بجمهورية فايمار الجديدة. كما لم تنتج الدول الأوروبية الكبرى بما فيها بريطانيا العظمى وفرنسا حركات فاشية داخلية بمختلف أنواعها خلال الثلاثينات باستثناء الحركات الألمانية والإيطالية. كانت جذور الفاشية وديكتاتورية الحزب الواحد أوروبية في طابعها، وكانت جميع الظروف اللازمة لنموها موجودة خلال العشرينات باستثناء الظرف الحيوي المتمثل بالضائقة الاقتصادية

الحادة بين الطبقات الوسطى. هذا ما أنتجته الأزمة الاقتصادية العالمية في حينها. إن حقيقة وجود مثل هذه المعاناة سابقًا، لأسباب خاصة في إيطاليا وألمانيا، تفسر الجذور العميقة للفاشية في هذين البلدين.

بالمعنى الضيق، فإن الحركات الفاشية تمثلت في رد فعل ضد الخوف من انتشار الشيوعية. ففي إيطاليا عام ١٩٢٢، وفي ألمانيا عام ١٩٣٢، وفي إسبانيا عام ١٩٣٥، كانوا جزئيًا حركات قوية الشكيمة تشكلت بين الجنود السابقين أو المجموعات العسكرية لمحاربة نمو الشيوعية. لقد استمدوا الدعم من كل الذين خافوا من هجوم على الملكية الخاصة والرأسمالية، واستغلوا بشكل خاص التظلم القومي، واختزلوا القضايا المعقدة إلى أبسط العبارات - لم تكن ألمانيا قد هُزمت لكنها طُعنت في ظهرها، ربحت إيطاليا الحرب لكنها خسرت السلام، وفي كلتا الحالتين كان ذلك خطأ الليبراليين، والاشتراكيين، ودعاة السلم. وبهذا فقد جمعوا بين المناشدة الشعبية الغوغائية الواسعة وبين المناشدات الخاصة لمجموعات من المصالح والمخاوف.

لكن بالمعنى الأوسع ظهروا بسبب انتشار حق الاقتراع الدولي والحضارة العامة. لقد عملوا على مبدأ أن أفضل طريقة لتحقيق الثورة الحديثة (وربما لا يمكن تحقيقها في الدول المتقدمة إلا) من خلال حزب موجود للتو في السلطة. لذلك ركزوا على الوصول إلى السلطة قدر الإمكان بالوسائل الدستورية، ولكي يفعلوا ذلك يجب أن يقدموا مناشدة جماهيرية للمشاعر

الأكثر سهولة في إثارة الجماهير؛ لأنهم تعلموا شيئًا من أساليب الأحزاب الديمقراطية وأكثر من أساليب المعلنين التجاريين، وصلوا إلى السلطة على موجات محفزة من الخوف والغضب، ومن الكراهية والحسد. لقد درسوا تقنيات اللقاء الجماهيري والعرض العسكري. وأنكروا في أعمالهم أن يكون الإنسان مخلوقًا عاقلًا مفكرًا، وهو إنكار سبق أن نشره علماء النفس وفلاسفة القرن العشرين في مطبوعاتهم. لقد تم حث الاشتراكيين الوطنيين على "التفكير بدمائهم"، وكانت الهتلرية معادية للسامية بشكل رئيسي؛ لأن التعصب العنصري كان أسرع طريقة لتدمير أنماط التفكير العقلانية. ومرة أخرى؛ لأن الديمقراطية لا تزال تتمتع بجاذبية جماهيرية، فقد حرص الفاشيون على تقديم قدر كبير من الاحترام لها من خلال انتخابات مروعة، وبرلمانات مكتظة، واستفتاءات زائفة، حتى عندما أدانوها نظريًّا. ينحدر كل من موسوليني وهتلر من عائلة متواضعة، وحصل كل منهما على رتبة ضابط غير مفوض بالحرب، وادعى كل منهما بحماس أنه رجل من الشعب.

كان موسوليني اشتراكيًّا في بداية حياته، وكان حزب العمل الألماني يضم بعض الاشتراكيين. وتضمنت كلتا الحركتين بعض الأهداف الاشتراكية في برنامجهما حتى عندما نددتا بالاشتراكية الديمقراطية. تم تقديم الدولة النقابية على أنها طريقة مستنيرة لتسوية النزاعات بين رأس المال والعمل، وقد تحدثتْ كثيرًا النقاطُ الخمس والعشرون للاشتراكية الوطنية لعام ١٩٢٣

عن "إنهاء عبودية الفائدة". وطالب كل منها (وهنا كانوا أكثر صدقًا) بدولة قوية تسيطر على الاقتصاد الوطني بأكمله لصالح الدولة: لكنهم ربطوا الحزب بالدولة، وقوة الدولة يجب أن تأتي من قيادة شخصية للحزب.

لأنها استغلت كل صعوبة تواجهها الحكومات البرلمانية وكل تظلم شعبي، نجحت الأحزاب- وسط بعض مظاهر العنف- في الوصول إلى السلطة من خلال الشكليات الدستورية. وتلاها الثورات الفاشية الحقيقية، ومثل الثورة البلشفية كان ينفذها حزب يسيطر لتوه على كل آليات السلطة في الدولة. فقد عززت الشرطة والجيش بشرطة سرية وميليشيات الحزب، وكانت تستخدم لسحق أي شكل للمعارضة. فقد تم إقامة عهد من الإرهاب بينما كان الحزب يقوي قبضته. وبعد أن خدم الحرب كقوة لإحداث الثورة، تم الحفاظ عليه (بعد التطهير المناسب) كأداة للاستبداد الجديد. لقد كان منضبطًا، ومركزيًا، ومتشربًا، ومميزًا، فاحتل جميع المناصب الرئيسية في الدولة وفي الحياة الوطنية.

وهكذا أصبح من الممكن ليس الحصول على السلطة المطلقة وحسب، بل السلطة الديكتاتورية؛ لأنه لم يعترف بأي حدود لمدى كفاءة الدولة. فحولت الكنائس إلى ضعف سياسي، ودمرت اتحادات التجارة الحرة، ومنعت الإضرابات، وأوقفت الجمعيات الحرة أو امتصت، ووضعت كل وكالة لقولبة الرأي العام، -والمدارس، والصحافة، والإذاعة، والسينما، والاجتماعات العامة- تحت سيطرة الحزب. لم يقبل أي عنصر من عناصر

الحياة الاجتماعية كان سابقًا خارج سيطرة الحكومة. لم يسبق أنه كان هناك في تاريخ العالم رجال يتمتعون بديكتاتورية كهذه، إذا كانوا متساوين بالمطلق، لم يكونوا مستبدين بالتساوي في أهدافهم. فقد مزج الديكتاتوريون الفاشيون جماهيرية روبسبير الهستيرية مع الآلية الحكومية لنابليون، وأضافوا إلى كليهما المخزون الكامل للوسائل التي تميل إلى زيادة سلطة أي حكومة حديثة: المدفع الرشاش، والضرائب العلمية، والخدمة المدنية الكفء.

خلال عقد من الانتصار الجلي للديمقراطية الليبرالية في العالم، واجهت أوروبا وآسيا أشد أشكال الإنكار للمثل والأنظمة الديمقراطية. بمفارقة جديرة بالاهتمام، فإن الحضارة التي قامت على أساس احترام الشخصية الفردي، والحقيقة الموضوعية المكتسبة بالبحث الحر عن الروح والتضارب الحر للحجج، قد ولدت في داخلها حركات أنكرت جوهرها. عندما تم تفسير علاقة هذا التطور مع كل من الحرب العالمية والأزمة الاقتصادية بشكل كامل، بدا أن التفسير لا يزال ناقصًا. ويبدو أن الفاشية، في عدة نواحي والشيوعية أيضًا، لديها جاذبية عميقة في ظروف معينة إلى "الإنسان الصغير" في الحضارة الحديثة. أشار هتلر إلى هذا الارتباط عندما كتب في كتابه "كفاحي" "إن المظاهرات الحاشدة يجب أن تحرق في روح الإنسان الصغير الإيمان الراسخ الأبي بأنه على الرغم من كونه دودة صغيرة إلا أنه جزء من تنين كبير". هل يمكن أن يكون هناك تفسير أفضل لمعنى القومية

العدوانية؟

أدى الانجذاب الطبيعي للأنظمة الفاشية وأملها في تحقيق مكاسب متبادلة من العمل المشترك في عام ١٩٣٦ إلى ما يسمى بمحور روما-برلين والتدخل المشترك في الحرب الأهلية الإسبانية على جانب المتمردين ضد الحكومة الجمهورية الإسبانية. ساعد هذا التدخل، الذي رافقه عدم تدخل القوى الغربية، في ضمان انتصار المتمردين بقيادة الجنرال فرانكو في عام ١٩٣٩. النظام الذي أنشأه فرانكو عندئذ يدين بالكثير للنموذج الفاشي في إيطاليا. في عام ١٩٣٦ أيضًا، تم إحضار شريك ثالث إلى التحالف. كان للنظام الياباني بعض الانجذاب إلى الفاشيين، وأهم من كل شيء كان يشاركهم عداوة مشتركة تجاه الولايات المتحدة، وبريطانيا العظمى، والقوى الأوروبية الغربية، وكان يسعى إلى مكاسب اقتصادية وإقليمية على حسابهم. كانت اليابان، مثل ألمانيا، قد غادرت عصبة الأمم في عام ١٩٣٣. ولم تكن في صراع مباشر على المصالح مع ألمانيا أو إيطاليا، وكانت تجربتها في مواجهة الضعف الغربي لعدوانها المنشوري قد شجعتها على تحدي القوى الغربية ثانية. وبما أن العدو المعلن كان الشيوعية، فقد وقعت مع ألمانيا "ميثاق مناهضة الكومنترن" الذي كان يهدف ظاهريًا إلى مكافحة انتشار الشيوعية. بعد عام (في ١٩٣٧) انضمت إيطاليا إليه. فقد تم للتو رسم خطوط الانحياز المستقبلي للحرب العالمية الثانية.

كان الانقسام الأساسي بين دول الحزب الواحد من جهة (التي يمكن ضم اليابان إليها) والدول المتعددة الأحزاب من جهة ثانية، غير واضح حتى عام ١٩٣٩ بسبب النمط الثلاثي للصراعات على المصالح الوطنية في العالم. في الغرب كانت هناك قوتان بحريتان استعماريتان لبريطانيا وفرنسا، المعارضتان لتغيير التسوية السلمية لكنهما ليستا على اتفاق حول السياسة الخارجية ما عدا لفترة قصيرة بعد عام ١٩٢٤، وانضمت إليهما الدول الأصغر في غرب وشرق أوروبا، ودول السيادة للكومنولث البريطاني، والولايات المتحدة الأكثر حرية. في وسط أوروبا كانت هناك ألمانيا وإيطاليا، وفي الشرق الأقصى كانت اليابان، كل منها لأسبابها القومية الخاصة هي قوة رجعية، معادية للعصبة ومصممة على التوسع الإقليمي. كما كان الاتحاد السوفيتي ممتدًا على جانبي أوروبا وآسيا، وفعالًا بازدياد في الشؤون الأوروبية منذ دخوله في العصبة عام ١٩٣٤، لكنه كان معاديًا بشكل أساسي لكلا المجموعتين الأُخريين. كانت العلاقات بين أي مجموعتين من هذه المجموعات الثلاث تؤثر حتميًا بالمجموعة الثالثة. وأي تجمع بين المجموعتين الأوليين، كما حدث في لوكارنو في عام ١٩٢٥ أو ميونخ في عام ١٩٣٨، يبدو كأنه كتلة مناهضة للسوفييت. وأي تقارب بين الدول الغربية والاتحاد السوفيتي، كما حدث عندما انضمت روسيا إلى العصبة أو كما حدث في الحرب الأهلية الإسبانية، كان يعني تطويق لألمانيا وحتى إيطاليا ويبدو أنه يجلب المد الشيوعي بشكل

أقرب نحو أوروبا. كما أن أي إشارة على ارتباط ألماني- سوفييتي، كما حدث في رابالو في عام ١٩٢٢ أو في الحلف النازي- السوفييتي عام ١٩٣٩، كشفت عن الانشقاق بين دول الحزب الواحد والديمقراطيات المتعددة الأحزاب. وكما كان الحال قبل عام ١٩١٤، فإن نظام التقارب، والوفاق، والتحالفات جلب الخوف المستمر وعدم اليقين في العلاقات الدولية، الآن فقط أصبح نظامًا أكثر تعقيدًا وتغيرًا للتحالفات بدلًا من الانقسام الواضح المعالم نسبيًّا لعام ١٩١٤.

إن هذه المصالح القومية المتضاربة والتغيرات في التقارب التي أملتها عليهم كان يغطيها مثلث من الصراعات الاجتماعية والإيديولوجية. في عقد الثلاثينات أصبحت كل من مجموعات الدول الثلاث مميزة بشكل محدد من النظام السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وحتى بإيديولوجية معينة أو رؤية كونية. لكن هذه الاختلافات بالبنية الاجتماعية والنظرة الإيديولوجية لم تكن محددة بدقة، وتداخلت الأنظمة. ويمكن اعتبار أي اثنين منهم أن لديهما عناصر مشتركة. وهكذا تظهر "الجبهات الإيديولوجية" التي كانت عادة سلبية في الشكل: ميثاق مناهضة الكومينرن من أجل "الدفاع عن الحضارة الأوروبية ضد البلشفية"، والائتلاف المناهض للفاشية وحكومات الجبهة الشعبية للأعوام ١٩٣٥-١٩٣٧، والميثاق النازي- السوفييتي لعام ١٩٣٩ وتقسيم بولندا بين ألمانيا والاتحاد السوفييتي. إن كل منها كان نغمة تعزف

حسب التقارب والفرص في تلك اللحظة. ومع نهاية عام ١٩٤١ بدا أن هذه النماذج المتقاطعة قد توضحت في تصميم بسيط وثابت. لقد أجبر هجوم ألمانيا على الاتحاد السوفييتي على عقد تحالف قوي بين روسيا والغرب، كما أدى هجوم اليابان على بيرل هاربور على إعلان ألمانيا وإيطاليا الحرب على الولايات المتحدة وأجبر أميركا على التحالف مع كل من الاتحاد السوفييتي وقوى أوروبا الغربية. لكن بحلول عام ١٩٤٦ تبدد هذا الوضوح مرة أخرى، وظهر الانقسام الأساسي بين دول الحزب الواحد للكتلة السوفييتية والديمقراطيات المتعددة الأحزاب بكل وضوح.

في الحقيقة إن النظر في التوترات والصراعات الدولية في سنوات ما بين الحربين باعتبارها صراعات إيديولوجية كان بمثابة تبسيط مبالغ فيه بقدر اعتبارها صراعات مصالح وطنية بحتة. كانت الانقسامات بين الدول عبارة عن مزيج من الاثنين، وقد تغلغل الانقسام الإيديولوجي داخل كل دولة فضلًا عن تغلغله في العلاقات بين الدول. ومن هنا أنتجت معظم الدول كلًّا من الحركتين الشيوعية والفاشية على تربتها الخاصة، وأخذ الغزو عادة شكل استغلال الاختلافات الداخلية ودعم الحكومات الدُّمَى أو المتعاونة مع العدو. وبقدر ما أصبح العالم واحدًا، بقدر ما تجاوزت الصراعات المصالح والحدود الوطنية: وبقدر ما كان العالم مقسَّمًا إلى دول قومية ومجتمعات إقليمية مستقلة، بقدر ما وقعت الاختلافات على المصالح والتوقعات على

طول الحدود الوطنية. إن الطبيعة المعقدة لتحالفات فترة ما بين الحربين واضطرابات فترة الحرب نشأت من مرحلة من شبه التوحيد التي ترك فيها العالم نتيجة للتطورات التي طرأت في السنوات ما قبل ١٩١٤ [٢٦].

علاوة على ذلك، فحتى في الدول المتعددة الأحزاب أصبحت الحكومات مضطرة بشكل متزايد وبدرجات متفاوتة إلى تولي مسؤوليات أكثر فعالية من أجل رفاهية وأمن شعوبها. وأصبح ميل الحكومات لتصبح ذات سلطة أكبر وأكثر تنوعًا في أنشطتها منتشرًا في كافة أنحاء العالم. وكان على الأنظمة البرلمانية أن تتكيف مع الحاجة إلى عمل أقوى وتنفيذي بشكل جذري. في بريطانيا أخذ شكل ائتلاف وطني في عام ١٩٣١، على الرغم أن غالبية حزب العمال لم يتبعوا قادتهم في الائتلاف. وفي فرنسا أخذ شكل منح متكررة من سلطات الطوارئ، بحيث تستطيع الحكومات إصدار مراسيم قوانين لتواجه الأزمة الاقتصادية، وفي عام ١٩٣٦ حاولت الجبهة الشعبية، وهي ائتلاف يساري واسع النطاق، اللحاق بالتشريعات الاجتماعية التي طال انتظارها. في الولايات المتحدة حدث التطور الأكثر إثارة على الإطلاق في صفقة فرانكلن روزفلت الجديدة في عام ١٩٣٣. وكان هذا يعني توسع السلطة الفيدرالية وخاصة السلطة الرئاسية لمواجهة نتائج الأزمة الاقتصادية على الموارد المالية الوطنية، والبطالة الجماعية، والتفكك الصناعي. وهكذا فإن أحد التدابير

٢٦ انظر أعلاه، الفصل ٢، ١.

المبكرة والأقل إثارة التي اتخذها الرئيس، وهو قانون جلاس ستيغول في حزيران ١٩٣٣، كان مصممًا لاستعادة الثقة في المصارف الأميركية. ونتيجة لذلك فتح آفاقًا جديدة لسيطرة الدولة. وكما قال البروفسور دينيز بروغان فإن القانون "جنبًا إلى جنب مع السيطرة على الدولار التي أعطيت إلى الرئيس روزفلت، قد أنهى الاستقلال القديم للهيكل الائتماني الأميركي، وبدأ بشكل غير ملحوظ تقريبًا بتوسع استثنائي للسلطات الموجهة والمنظمة لدائرة خزانة الدولة[٢٧].

تكيفت بلدان أخرى مع العاصفة الاقتصادية بأساليب أخرى. فبالنسبة لبعضها كان ذلك يعني نهاية النظام البرلماني غير المستقر. وفي النمسا، الدولة الأوروبية الأولى التي أنتجت الأزمة الاقتصادية فيها نتائج كارثية، دمر المستشار دولفوس الجمهورية الديمقراطية، وقمع الحزب الاشتراكي، وحكم بمراسيم طوارئ حتى اغتيل على يد النازيين في عام ١٩٣٤. وفي بولندا، حيث كان أداء الحكومة البرلمانية سيئًا في ظل دستور عام ١٩٢١، مارس المارشال بيلسودسكي سلطة شبه استبدادية بعد انقلابه العسكري عام ١٩٣٠، وعندما توفي في عام ١٩٣٥، أعطى دستورٌ جديد وقوانين انتخابية جديدة السلطةَ لجماعة يقودها "عقداؤه" السابقون. في عام ١٩٣٤ أطاح انقلاب عسكري مشابه بالنظام البرلماني غير المرضي في بلغاريا، وفي

٢٧ دي دبليبو بروغان: روزفلت والصفقة الجديدة (١٩٥٢) صفحة ٣٦.

العام التالي تولى الملك بورس الديكتاتورية الملكية. في نهاية الثلاثينات أصبحت كل دولة من دول البلقان ديكتاتورية من نوع ما.

ظهرت نزعات مشابهة في أميركا الجنوبية. ففي عام ١٩٣٣ قام رئيس الأوروغواي تيرا، بحجة أن الكساد الاقتصادي العالمي ونتائجه على البلاد يستدعي إجراء سريعًا وحاسمًا، بتنظيم انقلاب وإعداد دستور جديد. وفي المكسيك دخلت الثورة التي بدأت عام ١٩١٠ مرحلة جديدة في عام ١٩٣٤ مع رئاسة كارياس، الذي كانت لخطته السداسية في توزيع الأراضي وتأميمها تأثيرات لا تقارن بتأثيرات الخطط الخمسية السوفييتية. بالنسبة إلى البلدان الأخرى التي انبثقت فيها الحكومة البرلمانية الدستورية من جذور أعمق وأكثر ثباتًا، كان ذلك يعني بذل جهود جديدة لإنتاج تحالفات وطنية واسعة النطاق بالتوازي مع الحكومة الوطنية في بريطانيا أو حكومة اتحاد دوميرج الوطنية في فرنسا. وهكذا بلجيكا، التي اعتمادها على التجارة الخارجية جعل اقتصادها حساسًا بشكل خاص تجاه الكساد، شكلت في عام ١٩٣٥ حكومة تضم جميع الأحزاب برئاسة بول فان زيلاند. صفقته البلجيكية الجديدة، القائمة على أساس تخفيض قيمة العملة والإصلاحات الهيكلية للنظامين المالي والمصرفي، قابلت معارضة عنيفة من مجموعة من الوطنيين الفلمنكيين والركسيزتيين، وقد فاز الركسيزتيون بواحد وعشرين

مقعدًا في الغرفة البلجيكية عام ١٩٣٦[٢٨]. وفي اتحاد جنوب إفريقيا، أجبر الكساد الاقتصادي الحزب الوطني بقيادة هيرتزوغ للاندماج مع حزب جنوب إفريقيا بقيادة سموتس، وهذا ما دشن مرحلة جديدة للحكومة الوطنية بعد عام ١٩٣٤. وقد جلب نفس العام حكومة ائتلافية في أستراليا.

كانت السمات العامة لمثل هذه التعديلات في البلدان الديمقراطية تتمثل في المعارضة العنيدة التي واجهها نشاط حكومي أكبر، والفتور في كثير من الإجراءات الحكومية. ففي بريطانيا كانت الحكومة الوطنية بطيئة ومترددة في تبني الأعمال العامة الواسعة النطاق، وهو العلاج الجدي الوحيد المقترح للبطالة الجماعية. وفي فرنسا منعت حكومة الجبهة الشعبية برئاسة إم ليون بلوم من الحصول على سلطات طوارئ من قبل مجلس الشيوخ المحافظ. وفي الولايات المتحدة واجه الرئيس روزفلت مقاومة عنيفة، أولًا من المحكمة العليا ثم من الحزب الجمهوري، الذي لا يزال متمسكًا بمبادئ الرئيسين هوفر وكوليدج في العشرينات بأن العمل الطبيعي لدورة العمل من شأنه أن يخرج البلاد من الكساد.

---

٢٨ إن صعود "الريكسية" في بلجيكا يكاد يكون نموذجًا مصغرًا لصعود "الحركات الفاشية في أماكن أخرى". تأسس الحزب في عام ١٩٣٤ على يد ليون ديجريل الذي أظهر ميلًا إلى مناشدة مزيج من القومية العنيفة، والكاثوليكية المحافظة، ومشاعر طبقة ضباط الجيش، وكبار الصناعيين، والطبقات الوسطى التي عانت من انخفاض قيمة العملة، والعاطلين عن العمل. لقد كانت في طريقها للانحدار بحلول عام ١٩٣٩. لكنَّ الناجين منها كانوا بمثابة دُمَى لألمانيا بعد عام ١٩٤٠.

إن التوترات السياسية في كل دولة الناجمة عن الصراع بين الحركات الشيوعية والفاشية هددت النظام العام، والكثير من الطاقة التي توجَّب على الحكومات بذلُها على تعزيز الانتعاش الاقتصادي وتأمين أمن اجتماعي أكبر كان يجب أن تصرف على إيقاف المتطرفين المتنافسين من تمزيق البلاد على اثنين والقضاء على السلام العام. واجه الديمقراطيون في كل مكان مشكلة إلى أي مدى يمكنهم تحمل المتعصبين. طالبت كلٌّ من الشيوعية والفاشية بناء على مبادئ ديمقراطية بحريةِ الكلام والمظاهرات التي كانوا يفرضونها للتدمير حالما يحصلون على السلطة بأنفسهم. ومع ذلك ربما كان الديمقراطيون؛ خوفًا من أنهم بقمع هذه الحركات قد يدمرون بأنفسهم الحقوق المدنية والحريات التي يعتزون بها، قد عانوا من شلل القرار والتصرف. في البلدان المتاخمة لألمانيا أصبحت هذه المشكلة أكثر حدة بسبب وجود مجموعات كبيرة من الأقليات القومية التي خلَّفتها تسوية فرساي. تم استخدام الأقليات الألمانية في تشيكوسلوفاكيا وبولندا، والأحزاب الفاشية في النمسا، كمجموعات ناشطة لتعطيل الأنظمة استعدادًا للفتوحات الهتلرية. وهنا أيضًا برز الصراع بين الأنظمة الديمقراطية الملتزمة بالسعي إلى الحكم عن طريق الأغلبية وأنظمة الحزب الواحد الملتزمة بتأسيس الحكم عن طريق الأقلية، كمشكلة سياسية رئيسية في أوروبا.

٢- اندماج القومية والاشتراكية:

كانت البلشفية والفاشية متشابهتين في جانب واحد وهو تمجيد الدولة القومية. وفي جانب آخر كانتا كلتاهما تنكران صلاحيته. عندما نجح لينين في تنظيم السلطة البلشفية على نطاق وطني في روسيا، وبعد أن أطلق ستالين الخطط الخمسية للتنمية الاقتصادية وعصرنة الاتحاد السوفييتي، وجدوا أنفسهم ملتزمين بتجربة تأسيس الاشتراكية في بلد واحد. واكتمل انتصار ستالين على تروتسكي بعمليات التطهير لعام ١٩٣٥، والدستور "الليبرالي" لعام ١٩٣٦ كان بمثابة ذروة هذه العملية. اكتشف البلاشفة أنه بإمكانهم إنقاذ الشيوعية فقط عن طريق تأميمها. وبالمثل وجد الفاشيون أنه بإمكانهم حشد تعاطف واهتمام غالبية شعوبهم فقط عن طريق التعهد بحمايتهم من انعدام الأمن الاجتماعي الناجم عن الأزمة الاقتصادية. لقد فضلوا سياسات الاكتفاء الذاتي وإعادة التنظيم الاجتماعي. إذا كانت هذه العملية التي من خلالها تعمل الأحزاب الحاكمة على إدامة وتوطيد سلطتهم عن طريق تأمين متطلبات شعوبهم العظمى في ظروف من "الاشتراكية"، عندئذ يمكن القول: إنهم أيضًا وجدوا أنه بإمكانهم إنقاذ القومية عن طريق جعلها اشتراكية.

وبالمثل، ففي الدول المتعددة الأحزاب، فإن الطلب الذي تقدمه من جميع الحكومات في الثلاثينات كان من أجل السعي بقوة وفعالية أكبر لتحقيق غايات الأمن الاجتماعي ورفاهية الإنسان. كانت الطريق معبدة أمام هذه

المطالب من خلال نمو حق الاقتراع العام قبل عام ١٩١٤. ففي كل مكان كان ذلك مصحوبًا بتوفير التعليم الشعبي، وتشريعات المصانع، وتوفير الصحة العامة، ورواتب التقاعد، وما من هنالك. وفي ظروف الكساد الاجتماعي بدت الحاجة لتوسيع مثل هذه الحماية واضحة. والتغلغل التدريجي، حتى خارج الحركات الشيوعية والاشتراكية، للأفكار الماركسية والإيمان بقدرة الحكومات على تأدية هذه المآثر المؤثرة في التنظيم الاجتماعي التي أنجزتها خلال الحرب العالمية الأولى، جعل الطلب لا يقاوم. في مواجهة القوى الشيوعية والفاشية المدمرة من وجهة النظر الوطنية، بالإضافة إلى قوى الفساد الاجتماعي للكساد الاقتصادي، بدا أنه حتى في الدول الديمقراطية أيضًا، يمكن إنقاذ القومية فقط عن طريق جعلها اشتراكية.

لهذه الأسباب فإن السمة الأكثر لفتًا للانتباه في تاريخ العالم خلال هذا العقد هي تداخل الأفكار القومية والاشتراكية. في كل مكان يهتم بأن تصبح الدولة ليس فقط قوية في سلطتها، وليس فقط أكثر شمولية اجتماعيًا في كفاءتها: لكنها تصبح أيضًا أكثر اشتراكية في أهدافها. كما أن هناك دولًا بقيت قوية في قدرها بإظهارها فعاليتها في تحقيق أهداف الأمن الاجتماعي ورفاهية الإنسان. ففي فرنسا فقدت الدولة ثقة الشعب؛ لأنها أظهرت نفسها مترددة أو غير مؤهلة لتنفيذ الإصلاحات الاجتماعية في حينها. وبريطانيا التي تتمتع للتو بتقاليد طويلة من الإصلاح الاجتماعي الليبرالي والاشتراكية الفابية،

بقيت قوية على الرغم من نقص التدابير الصارمة لمعالجة البطالة وإنقاذ العائلات من الفقر المدقع، ومما لا شك فيه أن الإعانات، أو نظام التخلص من البطالة قد فعل الكثير لإنقاذها من اضطرابات اجتماعية أكبر. وفي الولايات المتحدة تمت إدانة "الصفقة الجديدة" باعتبارها اشتراكية من الباب الخلفي عندما لم يتعرض قادتها للحجوم باعتبارهم الفاشيين الجدد. لقد قاومت التقاليد الأميركية الشديدة الفردية النطاق الجديد للنشاط الفيدرالي في تنظيم تجهيز المضخات الزراعية والصناعية، وفيلق الحماية المدني، وسلطة تينسي فالي. ولكن حتى حيث خففت المصادر الطبيعية والثروات الكبيرة ومستوى المعيشة المرتفع من وطأة الأزمة الاقتصادية، فإن الانتعاش الوطني يتضمن قدرًا معينًا من الاشتراكية.

وبالتالي لم يكن من قبيل الصدفة أن تكون الحركة الهتلرية في ألمانيا قد تمسكت بلقبها الاشتراكية القومية، وبذلت الكثير من الجهود للتخلص من البطالة عن طريق مشاريع الأشغال العامة وإعادة التسلح. المنبع الرئيسي للمطالبة بالاشتراكية كان اكتشاف الألمان خلال فترة انهيار العملة عام ١٩٢٣، واكتشاف معظم الشعوب الأخرى خلال الأزمة الاقتصادية، أن الفرد أو الأسرة عاجزان في مواجهة الركود الاقتصادي. كان من عادة الحكومات في مثل حالات الكساد هذه أن تتخذ بعض الإجراءات للتخفيف منه. فانكلترا في عهد إليزابيت وفرنسا في النظام القديم فعلتا ذلك. لكن

كانت هناك ثلاث مستجدات هذه المرة. كان الأول شدة الأزمة الاقتصادية وطبيعتها العالمية، وكان الثاني الإيمان الكبير بفعالية العمل الحكومي الناجم عن الحرب. أما الثالث فقد كان الحاجة إلى أي حزب حاكم لحث اهتمام ودعم أغلبية الشعب إذا تمكن من الاحتفاظ بالسلطة في ظل الظروف السائدة في القرن العشرين. وهكذا فإن الطريقة التي اندمجت بها القومية والاشتراكية اعتمدت على الاختلافات من بلد إلى آخر في فعالية هذه العوامل الجديدة الثلاث.

احتاج الاتحاد السوفييتي الملتزم ببرنامج الشيوعية إلى حشد قوى القومية الروسية إن أرادت النجاة في عالم القُوَى الرأسمالية. وعلى الرغم من أن اقتصادها المخطط له مكن الحكومة الستالينية من وقاية البلاد من أسوأ تخريب للعاصفة الاقتصادية، فإن التجارة الروسية مع بقية أنحاء العالم قد تأثرت بشدة بالانخفاض العالمي للأسعار. وشعر ستالين بضرورة تطهير الحزب من الترتسكيين وأي قوى أخرى تقاوم التركيز الكامل على تأسيس الشيوعية في بلد واحد. وكانت النتيجة جعل الشيوعية الروسية أكثر قومية بشكل حصري. وكانت ألمانيا، الملتزمة ببرنامج قومي مكثف لإعادة توحيد جميع الألمان في الرايخ الثالث وزعزعة آثار السيطرة الدولية، بحاجة إلى تدمير القوى داخل الحزب التي سعت إلى تأسيس "ثورة ثانية" والضغط بالطلب بإصلاحات اجتماعية أكثر شمولية مما كان ضروريًا. وهكذا كما حدث في

روسيا، فقد شهدت السنوات ١٩٣٤-١٩٣٥ عملية تطهير همجية للحزب. ففي "ليلة السكاكين الطويلة" (٣٠ يونيو ١٩٣٤) تخلص هتلر من "ثورته الثانية" المحرجة، من النظير الألماني للتوتسكيتيين.

كانت إحدى نتائج هذه الأحداث أن الاشتراكية فقدت معظم نكهتها القومية السابقة، وأصبحت متميزة بحدة عن الشيوعية. إن الانشقاق الذي ظهر في زيميروالد في عام ١٩١٥ أصبح واضحًا. حتى في حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا بينما كان الحزب الشيوعي يدعم الاشتراكية لم يشارك في الوزارات. لقد كانت في الأساس ظروفًا مرتبة زمنيًا أكثر من كونها تقاربًا منطقيًا ما وضع القومية الاشتراكية في الآفاق. ففي القرن التاسع عشر كانت الاشتراكية قومية بشكل أساسي؛ لأن الليبرالية كانت قومية: لكن تركيزها على سلطة الدولة في إحداث الإصلاحات يعني في ذلك العصر من الدول القومية أنه من المحتم مع مرور الوقت أن تصبح قومية أكثر. وقد تعثرت الدولية الثانية بنفس هذه الحجرة. الحركات الاشتراكية البرلمانية، التي تخلت عن العمل الثوري، أصبحت بشكل حتمي أكثر قومية في طابعها. وقد أظهر العمال في العالم أنهم غير مستعدين وغير قادرين على الاتحاد.

في هذه الأثناء سعى الديكتاتوريون الفاشيون المضطربون على تحفيز المشاعر القومية بأساليب أخرى. فباشروا باعتداءات خارجية مدعين دائمًا أنهم يؤكدون على حق وطني طبيعي حرموا منه. وفي وقت مبكر كعام

١٩٢٣ أرهب موسوليني اليونان وصد العصبة في كورفو. لكنه حتى عام ١٩٣٤ كان يتبع سياسة أجنبية تخدم مصالح إيطاليا الوطنية. لقد أنقذ دول البلقان من النفوذ الألماني وجرَّد إيطاليا من مناطقها الاقتصادية الطبيعية النائية عندما منع عملية الضم بين النمسا وألمانيا. وعندما اغتال النازيون النمساويون المستشار دولفوس في عام ١٩٣٤، حشد موسوليني القوات الإيطالية في ممر برينير كتحذير لهتلر بأنه لن يتمكن بعد الآن من ضم النمسا: وهتلر، الذي لم يكن مستعدًا للحرب، قبل التحذير. لكن من عام ١٩٣٥ فصاعدًا شرع الدوتشي في حملة إمبريالية للاستيلاء على الحبشة والمطالبة بتونس وسافوي من فرنسا وجعل البحر الأبيض المتوسط "بحيرة إيطالية". كانت المشاركة الإيطالية في الحرب الأهلية الإسبانية مدفوعة باعتبارات مماثلة.

إن انشغال إيطاليا بالجنوب، خاصة عندما دفعت عصبة الأمم على تطبيق عقوبات اقتصادية ضدها، أعطى هتلر الفرصة لاحتلال وإعادة تسليح الرينلاند في مارس ١٩٣٦ وتحقيق عملية الضم مع النمسا بحلول عام ١٩٣٨. في هذا العام بدأ أيضًا بشن حملة ضد تشيكوسلوفاكيا التي بلغت أوجها بالإخلال بتلك الدولة الديمقراطية المتعددة الجنسيات بموجب اتفاقية ميونخ والاحتلال الألماني للبلاد في مارس ١٩٣٩. إن هذه الحركات التوسعية التي قام بها الدكتاتوران الاثنان وعدم الفعالية النسبية للمقاومة

البريطانية والفرنسية لها، حشد المشاعر الوطنية في البلاد خلف هذين الدكتاتورين. وجاءت الشعبية بنجاح، واشتعلت المشاعر القومية المضطهدة بسبب المقاومة الأجنبية.

لم تتحالف القوى الاشتراكية والقومية في أوروبا والولايات المتحدة فقط. ففي جميع أنحاء العالم الاستعماري كانت الحركات القوية التي تطالب بقدر أكبر من الاستقلال والحكم الذاتي تكتسب صوتًا وقوة. ففي الصين كان الحزب الشيوعي ينافس حزب الكومينتانغ الوطني باعتباره الحركة الشعبية للمقاومة الوطنية لليابان والتي من شأنها أيضًا تأمين إصلاح اجتماعي جذري. وفي الهند كان يتقدم اشتراكي من أمثال جاواهرلال نهرو كبطل مغوار للاستقلال بدلًا المهاتما غاندي المناهض للعنف، على الرغم من أنه لا يزال الداعم والحليف للرجل الذي يعتبره الهندوس منقذًا. كان الاختلاف الرئيسي بينهما، وقد كان اختلافًا هامًّا، بينما قاوم غاندي التغريب والتصنيع، قبل نهرو وداعموه التصنيع واستخدموه لرفع مستويات المعيشة في الهند. وقد اتفقا على الحاجة لهز الحكم البريطاني أولًا. في كل أرجاء آسيا كان مثال وتأثير الاتحاد السوفييتي عظيمًا. وفي كل أنحاء العالم الاستعماري، في إفريقيا، وفي إندونيسيا، وفي الصين الهندية، كانت أفكار ومُثُل الرفاهية الاجتماعية تتبع بسرعة أعقاب التصنيع والإمبريالية. وتدفقوا في حركات تطالب بالاستقلال الوطني، وهيَّؤوا للثورة الاستعمارية الكبرى التي

عجلتها الحرب العالمية الثانية[٢٩].

في كل عملية الاندماج والخلط بين النزعات التي تصنع القومية والنزعات التي تصنع الاشتراكية، ليس هناك شك بأن أحدهما هو الحصان والآخر هو العربة. ومن الأصدق أن نعتبر كليهما سِمَتَيْن مختلفتين لنزعة كبيرة واحدة ساهمت فيها العديد من العوامل والأحداث المختلفة. وشملت هذه العوامل تعزيزًا متزامنًا لكل من القومية والاشتراكية من قبل ضرورات الحرب بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨، ورد الفعل الغريزي للناس والأمم تجاه الأزمة الاقتصادية العالمية، والمطلب الشعبي الواسع النطاق بمستويات معيشة أعلى وبأمن اجتماعي واقتصادي أكبر الذي تحاول الأحزاب التي تسعى إلى الحفاظ أو الحصول على السلطة تحقيقه، وحتى التطورات الاقتصادية الأساسية، مثل انتشار التصنيع في منطقة أكبر من الأرض جنبًا إلى جنبٍ مع العوائق المتزايدة للهجرة، والاحتمالات الجديدة لإمكانية الإنتاج التي فتحتها الاكتشافات العلمية والتكنولوجية.

وبما أنه غالبًا ما قيل: إن القومية هي حالة شاذة أو مفارقة تاريخية في الاستقلال العالمي الناجم عن التجارة العالمية والتقدم العلمي، ومن الهام أن نتذكر أنه حتى الاكتشافات العلمية قد تضعف الترابط وتحيي القومية. إن الاكتشاف، الذي حققه جزئيًا علماءُ ألمان خلال الحصار البريطاني لألمانيا،

٢٩ انظر أدناه الفصل٦، ٣.

من الوسائل الرخيصة لصنع النترات من أجل السماد من الهواء بدلًا من استيرادها من عبر البحار، قضى بشكل كبير على التجارة المزدهرة مع جنوب إفريقيا. ومن الآن فصاعدًا أصبح بإمكان أوروبا، إن رغبت بذلك، أن تكون مكتفية ذاتيًا بأسمدة النترات. كما أن اختراع الإضاءة بالنيون لتحل محل الأسلاك الكهربائية المصنوعة من التنغستين أو معادن نادرة أخرى، واختراع البلاستيك القادر أن يحل محل الخشب أو المعدن أو المنسوجات، واختراع المطاط الصناعي ومواد صناعية مشابهة، واختراع الألياف الصناعية لتحل محل الصوف أو القطن، واختراع المنظفات التي عن طريق التخلي عن كمية الدهون اللازمة لصناعة الصابون، يمكن أن يزيد موارد العالم من السمن النباتي: إن هذه التطورات والعديد من التطورات المشابهة هي مساعدة في تحقيق استقلال وطني أكبر في الحياة الاقتصادية بقدر مساعدتها في تحقيق ترابط عالمي أكبر. ما يمكن أن يكون سيئًا للتجارة العالمية قد يكون جيدًا للإنتاج الوطني، ويمكن أن يزيد في الواقع الإنتاجية الوطنية ومستويات المعيشة. وأفضل طريقة للحصول على شيء ما ليست دايماً بنقله من أركان الأرض البعيدة حيث يصادف وجوده في الإمدادات الطبيعية، على الرغم من أن وسائل النقل الحديقة جعلت الأمر سهلًا جدًّا.

وبشكل مشابه، طوال الفترة منذ عام ١٩١٤، أدى تطور الطاقة الكهرومائية إلى جعل بعض الدول أقل اعتمادًا على الإمدادات الخارجية من

نفط أو فحم مما كانت عليه قبل الآن: كما أن التطبيقات الصناعية للطاقة الذرية قد تنتج ثورة جذرية إلى الحد الذي يجب أن تعتمد فيه دولة ما على دولة أخرى من أجل مواردها من الطاقة الأساسية. في الواقع إن مثل هذه التطورات تكاد أن تكون تفسيرًا للنزعات الحديثة تجاه القومية ومنظمات أقوى للدولة بقدر ما هي نتائج لهذه النزعات. وبما أن الكثير من المناطق على الأرض قد طورت صناعات خاصة بها، فإن الانقسام القديم بين الدول الصناعية وتلك المناطق التي يحصلون منها على إمداداتهم من المواد الخام وعملائهم يصبح غير واضح حتمًا: ويصبح من المغري بازدياد لكل دولة أن تحاول بناء اقتصاد أكثر توازنًا ومكتفيًا ذاتيًا.

من الناحية الاقتصادية، كانت هذه العملية تعني أن القومية الاقتصادية لم تكن مجرد رد فعل للهروب من منافسة بلدان أخرى أو مذهب تجاري متجدد يهتم بشكل رئيسي بالسلطة والأمن الوطني. من المؤكد أن الاعتبارات السياسية والحماية العادية لعبت دورها في إحياء القومية الاقتصادية خلال فترة ما بين الحربين. والصناعات التي نمت مثل الفِطر خلال الحرب حصلت على الحماية بعد الحرب، ولم تكن المنظمات العمالية بطيئة في السعي وراء كل أنواع الضمانات ضد منافسة العمالة الأجنبية الرخيصة. لكن كان هناك عاملٌ هامٌ؛ أن الاكتفاء الذاتي الاقتصادي قد أصبح عمليًا ممكنًا أكثر، والترابط العضوي القديم للقارات، الذي يتضمن التفوق الأوروبي ومكانته، قد تحطم

بسبب الحرب وعواقبها التجارية. كما في التطورات السياسية كذلك الأمر في التطورات الاقتصادية، كانت العبادة الألمانية للديكتاتورية الاستبدادية والميل الألماني للاكتفاء الذاتي تعبيرًا عن النزعات العالمية التي وصلت إلى مرحلتها القصوى. كما كانت العواقب الاقتصادية للحرب أبعد وأخطر من العواقب الاقتصادية للسلم الذي كتب عند اللورد كينز ببلاغة شديدة.

من الناحية السياسية فإن هذه العملية تعني أن المُثُل الديمقراطية أيضًا كانت تحمل في داخلها دافعًا لإنشاء دولة قوية وأكثر إيجابية. إن العلاقة بين الأفكار والمؤسسات الديمقراطية ومفاهيم عدم التدخل، الواضحة للغاية عبر تاريخ بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، كانت إلى حد كبير نتيجة لظروف تاريخية وبالتالي مؤقتة. ففي فرنسا وفي العديد من البلدان الأوروبية الأخرى، كان للديمقراطية دائمًا ارتباطات أكثر شمولية وأكثر اشتراكية[٣٠]. حتى شعار النفعية "السعادة الأكبر لأكبر عدد من الناس" لم يكن له أي صلة أساسية في الفردية في الاقتصاد، وعدم التدخل في السياسة، على الرغم من أنه كان له صلة بالمساواة السياسية. لقد كان في جوهره بيانًا لهدف اجتماعي لا يمنع أنصاره بأي حال من الأحوال من تحقيقه بوسائل اشتراكية. حالما "السعادة الأكبر لأكبر عدد من الناس" يعتقد أنه يكمن في تقديم قدر أكبر من الأمن الاجتماعي، فضلًا عن حقوق سياسية ومدنية متساوية، عندئذ تصبح

٣٠ انظر: دراسة مثل هذه النزعات التي أجراها ج. تالمون: أصول الديمقراطية الشمولية (١٩٥٢).

الدولة النفعية دولة اشتراكية إيجابية.

كذلك فإن هذا الشكل من التنظيم السياسي ليس أكثر ارتباطًا بالوعي الوطني والوحدة، ومن الواضح أنه واسطة غير مناسبة لأداء مثل هذه الوظائف. إذا كان ذكيًا فسوف يتعاون، بقدر ما يستطيع، مع باقي الدول الأممية الأخرى لتحقيق تلك النواحي من مهمته التي تستدعي تعاونًا دوليًّا: لكن هناك العديد من النواحي في مهمته التي يمكنه إنجازها بشكل جيد والتي لا يمكن لأي واسطة أخرى أن تنجزه بهذه الجودة.

وأخيرًا، قد لا يكون من الخيال أن نكتشف في هذا التحالف العالمي والاندماج – بيتَ قُوى القومية والاشتراكية – نوعًا من الوعي المضطرب بأن جاذبية القومية تحتاج إلى تعزيز جاذبية الاشتراكية. وإذا كانت الاستبدادية المستنيرة في أواخر القرن الثامن عشر في أوروبا قد اكتسبت في تلك الحِقبة لقب "عصر الملكية التائبة" أفلا يمكن اعتبار القومية الاشتراكية في منتصف القرن العشرين إشارة على قومية تائبة؟ لقد بدا الأمر كما لو أن الدوافع الأصلية وجاذبية القومية والوطنية التي أرهقتها الحروب العالمية وأفقدتها مصداقيتها نوعًا ما، تسعى إلى الحصول على قوة جديدة كمبرر أخلاقي في خدمة مثل الرفاهية الاجتماعية. لقد بدأ المثال الأعلى للمساواة في ممارسة جاذبية أقوى من المثال الأعلى للحرية، وأصبحت مطالبات المجتمع ليست

أقل إلحاحًا من مطالبات الدولة القومية[٣١]. وإذا كان الأمر كذلك، فهذا سبب للتفاؤل؛ لأنه يعني أن القومية كانت تصبح في أذهان الناس ليست غايةً بحد ذاتها بقدر ما هي وسيلة لغايات أخرى. وعندما تسود الأساليب الديمقراطية على أساليب الحكم الاستبدادي المطلق، يمكن استخدام الدولة لخدمة احتياجات الإنسان بدلًا من جعل الإنسان خاضعًا للدولة.

٣- التعاون الدولي:

إن مدى التعاون الدولي خلال عقد ما قبل الحرب يُخْطَأُ في تقديره إذا أُخِذَ في عين الاعتبار فقط فشل عصبة الأمم في تأمين الأمن ضد العدوان وتحقيق تسوية سلمية للنزاعات الدولية. لم يَنْجُ مجال واسع من التعاون العام في المسائل التقنية، مثل نشاطات لجنة الصحة ومنظمة العمل الدولية، من تشويش الطغاة وضعف إرادة الديمقراطيات وحسب، لكن هناك واسطتان مهمتان أخريان للتعاون بين الدول قد اكتسبتا التماسك والقوة خلال هذه السنوات. لقد كانتا منظمتَيْ بان أميريكان وكومنولث الأمم البريطانية: وحتى باعتبارهما ترتيبات للدفاع المشترك والأمن الجماعي، فقد أثبتت كلٌّ منهما أنها فعَّالة أكثر بكثير من عصبة الأمم عندما تم تطبيق الاختبار الحاسم للحرب بعد عام ١٩٣٩.

٣١ لتوضيح هذه الفكرة، راجع كتاب "المساواة" للكاتب الحالي (١٩٤٩) وميردال، "ما وراء دولة الرفاهية" (١٩٦٠).

كانت المعالم الرئيسية في نمو جمعية بان أميركان التعاونية هي مؤتمر هافانا عام ١٩٢٨، وسياسة "الجار الصالح" للرئيس روزفلت التي أعلنها في عام ١٩٣٣، والمؤتمر الأميركي من أجل الحفاظ على السلام في بوينس آيرس في عام ١٩٣٦، ومؤتمر بان أميركان الثامن الذي عُقد في ليما في عام ١٩٣٩. تخلت الولايات المتحدة تدريجيًّا عن مطالبتها السابقة بالتدخل في شؤون دول بحر الكاريبي الصغرى، ووضعت سلسلة من إحدى عشرة اتفاقية تجارية متبادلة مع بلدان أميركا اللاتينية، وقادت الحركة من أجل التشاور الجماعي في حال طرأ أي تهديد لسلام القارة سواء كان من الداخل أو الخارج. وبحلول عام ١٩٣٩، وكنتيجة لهذه السياسات، تم تأسيس علاقات أقرب بكثير وتعاونية أكثر بين الجمهوريات الأميركية من أي وقت مضى في تاريخها، والتناقض الآن ليس بين الآمال المشرقة لعصبة الأمم والتقدم المتعثر لحركة بان أميركان، وإنما بين نشاط العصبة الفاشل وحركة بان أميركان المتشربة قوة جديدة[٣٢].

كان مسار تطور الكومنولث البريطاني في هذه السنوات يسير نحو تفكيك الروابط الرسمية والاعتراف بالاستقلال الذاتي الكامل لكل دولة سيادة على سياستها الخاصة التجارية والخارجية. كان قانون ويستمنستر الذي صدر في عام ١٩٣١ بمثابة تتويج لعملية استمرت قرنًا من الزمن من أجل الحكم

٣٢ آر أي همفريز: "تطور أميركا اللاتينية الحديثة" (١٩٤٦) صفحة ١٥٤.

الذاتي لدول السيادة وحق تقرير المصير. وكشف مؤتمر أوتاوا عام ١٩٣٢ عن استبعاد التخطيط الاقتصادي على معيار الكومنولث، وأن العلاقات التجارية لدول السيادة تتقاطع مع علاقاتها الاستبدادية، وأنها كانت جميعها حمائية في نظرتها. كان السبب الرئيس أنها منذ عام ١٩١٤ طورت صناعاتها الخاصة ولم تعد في المقام الأول منتجة للغذاء والمواد الخام للسوق البريطانية. أكثر ما أمكن تحقيقه من أوتاوا كان التوصل إلى اتفاقية عامة للحفاظ على رسوم الحماية عند مستوى يمنح المنتجين البريطانيين "فرصة كاملة للمنافسة المعقولة". بهذه الطرق، وبينما كان اتجاه علاقات بان أميركا نحو تعاون أقرب، بدا أن علاقات الكومنولث كانت تسير باتجاه انفصالية أكبر. ومع ذلك عندما أعلنت الحكومة البريطانية الحرب على ألمانيا في عام ١٩٣٩ حَذَتْ حَذْوَها مباشرة أستراليا ونيوزيلاندا، وخلال أسبوع كندا واتحاد جنوب إفريقيا. وبقيت أيرلندا وحدها محايدة. خلال فترة قصيرة جدًّا خلال الحرب الطويلة، لم يكن هناك أي خطر من انسحاب دول السيادة من الحرب، وأظهرت المستعمرات غير المتمتعة بحكم ذاتي الولاء والتضامن. كانت مساهماتها الجماعية في الحرب هائلة، وتحت اختبار العمل المشترك في الحرب، أثبت الكومنولث أنه أقوى من مجموعة بان أميركان[٣٣].

٣٣ عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب في ديسمبر/كانون الأول ١٩٤١، حذت حذوها على الفور دول أمريكا الوسطى الست وجمهوريات الجزر الثلاث. دخلت المكسيك والبرازيل الحرب في عام ١٩٤٢، وبوليفيا وكولومبيا في عام ١٩٤٣، لكن الأرجنتين وتشيلي والإكوادور وباراجواي وبيرو وفنزويلا وأوروغواي لم تدخل حتى ١٩٤٥..

بسبب النجاح النسبي لهذين النمطين من التعاون الدولي يجب الأخذ بعين الاعتبار سجل عصبة الأمم باعتبارها وسيلة للتعاون. ربما ساعد تراجع العصبة في تسريع نمو منظمات بان أميركان، تمامًا كما ساعدت الجهود البريطانية التوفيق بين المصالح التجارية للكومنولث في تفاقم آثار الكساد الاقتصادي على البلدان الأخرى. بالتأكيد لم يكن هناك أبدًا تعاون وثيق بين العصبة واتحاد بان أميركان (يرجع ذلك إلى حد كبير إلى غياب الولايات المتحدة عن العصبة)، ومالت دول أميركا اللاتينية التي كانت جميعها في السابق أعضاء في العصبة إلى الانسحاب منها خلال الثلاثينات والسعي إلى قدر أكبر من الأمن في البان أميركان. كانت هناك بعض المزايا في وجود مجموعة متنوعة من الأشكال والوسائط المختلفة للتعاون الدولي، وغالبًا ما كان يفترض الأمميون المتحمسون أنه ما لم تكن المنظمات عالمية أو عالمية محتملة فإنها لا قيمة لها. التعاون، مثل السلام، يمكن أن يكون له صروح عديدة. لا اتحاد بان أميركان ولا الكومنولث كان ناجحًا تمامًا في التوفيق بين المصالح الوطنية لأعضائه. كانت بوليفيا والباراغواي في حالة حرب بين العامين ١٩٣٣ و١٩٣٥، وفي عام ١٩٤١ لجأت البيرو والإكوادور إلى استخدام السلاح ضد بعضهما البعض. والأعمال العدائية بين الهند والباكستان حول كشمير، مثل الاضطرابات في اتحاد جنوب إفريقيا، كانت بمثابة عيوب في سجل الكومنولث. لكن على الأقل خلال الثلاثينات كان كلاهما أقوى

وأكثر تماسكًا بشكل ملحوظ أكثر من المنظمة الأكثر شمولية للعصبة.

إن الأسباب وراء هذا الأمر معقدة، لكن لا يمكن البحث عنها في مجال المصالح الاقتصادية فقط. إن الروابط التجارية بين بلدان أميركا اللاتينية كانت دائمًا أضعف من علاقاتها التجارية مع الولايات المتحدة أو بريطانيا العظمى. وبحلول عام ١٩٣٨ كانت التجارة بين بلدان أميركا اللاتينية أقل من عشر التجارة الإجمالية للمنطقة، وثلاثة أخماس من مجموع صادراتها ذهبت إلى بلدان خارج الكومنولث، ويبقى الأمر محلَّ جدلٍ كبير حول ما إذا كانت اتفاقيات أوتاوا قد نجحت في زيادة الحجم الإجمالي للتجارة داخل الكومنولث. ويبدو أنه من المرجح أنَّ داخل كلا المجموعتين من الدول كانت قوى التلاحم الرئيسية من إحدى النواحي عبارة عن قوى بعض التقاليد المشتركة والثقافة، ومن ناحية أخرى يقينٌ أكبر بأن أعضاء المجموعة سيتعاملون في الواقع مع هجوم على أحدها كأنه هجوم على الكل. وخلال سنوات ما بين الحربين كان من المؤكد أن أي عدوان من قبل قوة رئيسية خارجية على أحد أعضاء اتحاد بان أميركان أو على جزء من الكومنولث البريطاني سيقود إلى تسابق القوى من جانب الدول الأخرى فمن المؤكد أن العدوان على أحد أعضاء العصبة سيؤدي إلى عمل متلاحم من قبل الأعضاء الآخرين في العصبة.

إن عدم فعالية عصبة الأمم في منع أو كبح العدوان الياباني ضد الصين

كان بمثابة أول ضربة خطيرة لمكانتها كقوة لتوفير الأمن. لكن سرعان ما تَلَتْ ذلك مظاهرات أخرى: هجوم إيطاليا على الحبشة عام ١٩٣٥، واستيلاء ألمانيا على النمسا في مارس ١٩٣٨، وانتصارها على تشيكوسلوفاكيا في ميونخ في سبتمبر ١٩٣٨، ثم ضمها لبقية البلد في مارس ١٩٣٩، واحتلال إيطاليا لألبانيا في أبريل ١٩٣٩. إن هذه المظاهرات بأن بنود العقوبات في الميثاق كانت عديمة الفائدة كضمانات للإجراء الجماعي ضد العدوان قد أعطيت بخطى متساوية مع إلغاء البنود في معاهدة فرساي التي وُضِعت لقمع ألمانيا: خاصة إعادة تسليح راينلاند في عام ١٩٣٦ وإعادة تسليح ألمانيا الصارخ الذي انتهك البنود ٤-٤٢ والجزء الخامس بأكمله من الاتفاقية. كذلك فإن غزو ألمانيا للنمسا وتشيكوسلوفاكيا انتهك الأداتين ١-٨٠. لم تنتهك اتفاقية فرساي وحسب، بل العديد من الاتفاقيات اللاحقة قد انتهكت بعنف. كان هذا أمرًا هامًّا؛ لأنه تم التوصل إلى الاعتقاد بشكل عام بأن العديد من شروط معاهدة فرساي كانت في الأساس غير منطقية ويجب تعديلها الآن، وأن إملاءات عام ١٩١٩ تركت ألمانيا بدون التزامات أخلاقية واضحة لاحترام شروطها. لكن لم يتم تقديم مثل هذه الحجة عندما انتهكت ألمانيا اتفاقيات لوكارنو التي كانت قد وقعت عليها طوعًا، حلف كيلوغ عام ١٩٢٨، والاتفاقية النازية مع بولندا عام ١٩٣٤، وحتى الحلف النازي-السوفييتي لعام ١٩٣٩. كانت خيانة هتلر غير محدودة. إن انهيار العصبة جلب معه

فقدان كامل للإيمان بحرمة كل المعاهدات. لقد حطم الثقة بقيمة أي اتفاقية دولية مهما كانت رصينة. ومن الهام أن معظم التحالفات المحكمة بين الدول في عام ١٩٣٩ كانت من ذلك النوع الذي لا يقوم على أي اتفاقيات رسمية مهما كانت –الكومنولث البريطاني.

لذلك فإن الصفة الرئيسية الدولية في فترة ما بين الحربين لم تكن انهيار في آلية أو فقدان للتنظيم المناسب[٣٤]: بل كان فشل بالإرادة من أجل تنفيذ المبادئ التي تم تَبَنِّيها في عام ١٩١٩. وبما أن هذا الفشل قد يكون إما بسبب انعدام الإرادة من جانب أعضاء العصبة أو حقيقة أن المبادئ نفسها كانت غير قابلة للتطبيق في الظروف السائدة في ذلك الوقت، من المهم ملاحظة أن كلا هذين السببين كانا مؤثرين. وربما يمكن تلخيص مبادئ التعاون الدولي التي قامت عليها العصبة بثلاثة مبادئ:

١) مبدأ المساواة في السيادة بين جميع الدول الأعضاء، كما تم التعبير عنه في تساويها في التصويت في الجمعية العامة، وشرط الإجماع بالنسبة لجميع

٣٤ إن التنوع والتعقيد الكبير لآلية التعاون الدولي بين الحربين يجب أن تم تأكيده؛ لأنه بالإضافة إلى العدد الكبير لوسائط العصبة، فإن منظمة العمل الدولية، والمحكمة الدائمة للعدالة الدولية، واتحاد بان أميركان، والكومنولث، أنشأ كلٌّ منها عددًا من الأعضاء. ضم الأخير منظمات مثل: مكتب الكومنولث الزراعي، ومكاتب الاتصال العلمي، ولجنة الشحن، ومجلس النقل الجوي...إلخ. في هذه السنوات تطورت وازدهرت منظمات قديمة مثل: مكتب معلومات جامعات الإمبراطورية المؤرخ منذ عام ١٩١٢، عزز في عام ١٩١٩ وأصبح بعد عام ١٩٣٢ معروفًا باسم (منذ ١٩٤٨) جمعية جامعات الكومنولث البريطاني.

القرارات الهامة التي تأخذها الهيئة (المواد ٥ و ٣ و١).

٢) المبدأ القائل بأن كل دولة عضو ستمتنع عن خوض الحرب حتى يتم استخدام جميع الوسائل الأخرى (المفاوضات الدبلوماسية، والتحكيم، عرض النزاع على مجلس العصبة) وقد فشلت في تسوية النزاع (المواد ١٤-١٢).

٣) المبدأ القائل بأن كل دولة عضو ستساعد في الدفاع عن أي دولة عضو أخرى أصبحت ضحية للعدوان، وهذا ما يطلق عليه اسم مبدأ "الأمن الجماعي" (المواد ١١-١٠ و ١٧-١٥).

إن المبدأ الأول -بأنه على الدول أن تتعامل مع بعضها البعض على أساس "المساواة في السيادة"- كان مبدأ لكل من اتحاد بان أميركان والكومنولث البريطاني. ولم يتم التأكيد على هذا المبدأ من قبل العضوية المنفصلة للأعضاء المؤسسين في وقت ما أو آخر في عصبة الأمم، بل إن كل مجموعة نصت على هذا المبدأ بما يتعلق بمنظماتها الخاصة. عن ميثاق منظمة الدول الأميركية الذي وقع في مؤتمر بوغوتا عام ١٩٤٨، ردد تقاليد نصف قرن عندما نص (المادة ٦) بأن "الدول جميعها متساوية من الناحية القانونية، وتتمتع بحقوق متساوية وقدرة متساوية على ممارسة هذه الحقوق، كما لديها واجبات متساوية"[٣٥]. كما

٣٥ تغيرت الأسماء عدة مرات لكن الجوهر بقي إلى حد كبير مطابقًا: مؤتمر الدول الأميركية لعامي ٩٠-١٨٨٩ نتج عنه اتحاد بان أميركان، وهذا بدوره أنتج نظام الدول الأميركية، الذي أنتج في عام ١٩٤٨ منظمة الدول الأميركية.

نص تقرير بلفور لعام ١٩٢٦ أن "المساواة في المكانة، فيما يتعلق ببريطانيا العظمى ودول السيادة....هي المبدأ الأساسي لعلاقاتنا المتبادلة". لكن ضمن إطار المساواة القانونية هذه، يوجد هناك، في جميع المنظمات الثلاث، عدم مساواة حقيقية بالقوة. فضمن هياكل بان أميركان كان من الواضح دائمًا أن الولايات المتحدة كانت الشريك الرئيس، وأن نجاح المؤسسات كان يعتمد بشكل كبير على مدى قدرتها على التعاون مع قوى أميركا اللاتينية للأرجنتين والبرازيل. داخل الكومنولث تم الاعتراف في عام ١٩٢٦ بأن "مبادئ المساواة والتشابه، المناسبة للمكانة، لا تمتد عالميًا إلى العمل"، وقد قبلت قيادة حكومة لندن بشكل عام. يبدو أن التعاون الدولي الناجح يعتمد على الاعتراف المتزامن بالمساواة القانونية والمساواة بالاعتبار مع الاعتراف بالاختلاف الوظيفي والقدرات على القيادة. هنا اختلفت العصبة بشكل أساسي عن المنظمتين التابعتين لها، سواء في بنيتها الرسمية أو في طرق عملها.

النتيجة المباشرة للمساواة في السيادة كمبدأ هي أن المنظمات الدولية التي تقوم على هذا المبدأ هي طوعية في طبيعتها. أدرك الثلاثة جميعهم هذا الأمر بقبولهم حق الانسحاب عند الرغبة. لكن استعداد الدول لممارسة هذا الحق- ومعه حقوق الحياد في حالة الحرب- كان يعتمد على مدى إيمانهم بقدرة المنظمة على ضمان أمنهم. ولأن هذا الإيمان كان في أعلى مستوى داخل الكومنولث، وأعلى مستوى داخل منظمات بان أميركان مما هو عليه داخل

العصبة، فإن عدد المنسحبين من العصبة كان أكبر بكثير من أي منهما.

المبدأ الثاني بضرورة استنفاد جميع الوسائل الأخرى لتسوية النزاعات قبل اللجوء إلى الحرب يعتمد بطريقة مماثلة على مدى استعداد الدول للتعامل مع عدم المساواة في القوة باعتبارها لا علاقة بها بهذه النزاعات. بسبب تقاليدهم المشتركة واهتمامهم بالحفاظ على وحدة الكومنولث، فقد اعتبر أعضاء الكومنولث أنه ما من نزاع بينهم هام بما فيه الكفاية ليستحق اللجوء إلى الحرب. واتخذت الدول الأميركية، مع الاستثناءات القليلة المذكورة، موقفًا مماثلًا. لم يشارك أعضاء العصبة الأكثر تباينًا وتنوعًا هذا الرأي، وللدكتاتوريين العدوانيين كان انهيار العصبة ضروريًا لتحقيق طموحاتهم.

كذلك الأمر فيما يتعلق بالمبدأ الثالث الذي قامت عليه العصبة، وهو مبدأ الأمن الجماعي، فإن الاعتماد المتبادل الفعلي بين الدول كان أقل مما افترض رسل القومية، ومدى وجود اعتماد متبادل فِعلي قد قدِّر بشكل أقل مما تطلبته العملية الناجحة لنظام الأمن الجماعي. لم يكن الغزو الياباني لمانشوريا والهجوم الإيطالي على الحبشة، قد شعرت به كلا الحكومتين أو غالبية شعوب الدول الأخرى الأعضاء في العصبة، يشكلان تهديدًا مباشرًا لمصالحهم الوطنية المنفصلة بحيث يستدعي العقوبة القصوى باللجوء إلى الحرب ضد المعتدين. وحتى في عام ١٩٣٨ لم يدافع رئيس الوزراء البريطاني عن فشله في المساعدة على الحفاظ على استقلال تشيكوسلوفاكيا على أساس

أنها: "كانت بلاد بعيدة جدًّا لا نعرف عنها شيئًا".

بهذه الطرق تُركت العصبة دون قبول عام بمبادئها الأساسية، وعانت من انهيار كامل كوسيلة لحفظ السلام في العالم. بحلول الثلاثينات من القرن الماضي كانت مصالح أعضائها البارزين متباينة بما يكفي لجعل مبادئها دون أساس متين: وكانت بهذا المعنى غير قابلة للتطبيق في ظروف ذلك الزمان. لقد سعت الدول إلى اللجوء إلى تجمعات أقل عالمية لكنها أكثر تماسكًا مثل الكومنولث واتحاد بان أميركان اللذَيْن وجدت فيهما تجمعًا أكثر واقعية للمصالح. كما عانت العلاقات الدولية من العمل في حلقة مفرغة، حيث جعلت الظروف المتغيرة مبادئ العصبة غير قابلة للتطبيق بازدياد، وإدراك هذه الحقيقة جعل الأعضاء غير راغبين بشكل متزايد في محاولة تطبيقها. لم تكن دول العالم مستعدة للدولية من النوع الذي يتضمنه المؤتمر: تمامًا كما أن المؤتمر الاقتصادي العالمي لعام ١٩٣٣ الذي مُثِّلَت به ٦٤ دولة، قد خدم أغراضًا بسيطة لكنه أثبت أن العلل الاقتصادية للعالم لا يمكن معالجتها بأي صيغة مسكونية بسيطة.

نتيجة لذلك عادت العلاقات الدولية إلى حالة عدم التماسك. فلم يبق هناك أي آلية قادرة على منع العدوان أو ردعه، ولا إيمان بقدر أو رغبة الدول القومية في الحفاظ على السلام، ولم يبق أي نظام للمصالح الوطنية الواضحة يرتكز على تحالفات موثوقة أو حتى توازن للقوى في العالم. ولم يقتصر الأمر

على عدم شعور أي منها بإمكانية الاعتماد على الدول الأخرى في الوفاء بوعودها، بل لا يمكن الاعتماد عليها حتى في تحقيق مصالحهم الخاصة بشكل متماسك وبقوة. انقسمت الدول الهامة بعمق حول مصالحها: وهكذا انقادت فرنسا على إهمال ما كان مصلحة وطنية تقليدية مثل تجريد منطقة الراين من السلاح، كما تم حث بولندا على إنكار أساس مصالحها الوطنية الخاصة لدرجة المشاركة في تقطيع أوصال تشيكوسلوفاكيا. كانت الدول الأكثر اهتمامًا بشكل طبيعي بالحفاظ على تسوية عام ١٩١٩ ممزقة داخليًّا بين سياسة مقاومة الدكتاتورية وسياسة "الاسترضاء"، وهي الكلمة التي فقدت في الثلاثينات معناها اللطيف البناء الذي تمتعت به في العشرينيات، واكتسبت بدلًا عنه نغمة من الهزيمة والاستسلام. لقد انهارت الدبلوماسية الجديدة للمؤتمرات المفتوحة، على الرغم من أنه لم يكن هناك أي لجوء صريح إلى الدبلوماسية القديمة أو أي نظام واضح للتحالفات. بحلول عام ١٩٣٩ كان يوجد هيكل لمنظمة دولية لا يشجعه أي إيمان أو إرادة، وسلسلة من التحالفات المرتجلة لا يعززها أي توحيد للمصالح أو خطط مشتركة، وتوازن للقوى في العالم يعمل بقوة لصالح الديكتاتوريات الحازمة المعاد تسليحها.

بالرغم من ذلك، جاءت الحرب في عام ١٩٣٩ ليس لأن أي دولة أرادت الحرب لمصلحتها الخاصة. فجميع الدول اعتبرتها كارثة وحتى أكثر الزعماء عدوانية تظاهروا أنهم يعانون منذ وقت طوت من أجل قضية السلام. كان

هناك ارتياح واسع النطاق عندما تم تجنب الحرب في ميونخ، وموسوليني، الذي أطرى على الحرب؛ لأنها تضع "ختم النبل على الشعوب التي تملك الشجاعة لمواجهتها"، كان حريصًا على عدم مواجهة الحرب مع فرنسا حتى تمت هزيمتها، وحتى هتلر، الذي دفعته ميوله الشخصية وموقعه السياسي باتجاه الحرب، شعر أنه مجبر على بذل قصارى جهده من أجل التسوية السلمية والسياسات "المحبة للحرب" لخصومه. لقد جاءت الحرب؛ لأن بعض الحكومات (خاصة حكومتي ألمانيا واليابان) أرادت الحصول على أهداف كانت مستعدة لدفع الحرب ثمنًا لها، ولأنه تم تشجيعها على الاعتقاد أن ثمن الحرب لن يكون كبيرًا جدًّا، وأيضًا؛ لأن حكومات ودول أخرى، على الرغم من أنها غير مستعدة للحرب، كانت في النهاية مصممة على إيقافها بحيث إنها هي أيضًا كانت راغبة بدفع ثمن الحرب التي عرفت من البداية أنها ستكون ثقيلة. بالنتيجة، كان الثمن الذي توجب أن يدفعه كل طرف باهظ جدًّا، كما فقدت كل سياسة ما قبل الحرب مصداقيتها، ولم تربح من العدوان ألمانيا ولا إيطاليا ولا اليابان؛ لأنها هزمت جميعها. ولم تنقذ سياسة الاسترضاء بريطانيا وفرنسا من الذهاب إلى الحرب. وحياد بلجيكا لم ينقذها من الغزو، كما أن حياد الولايات المتحدة لم يبقها خارج الحرب. ولم يجنب التحالف النازي السوفييتي لعام ١٩٣٩ الاتحاد السوفييتي من الهجوم الألماني عام ١٩٤١، وكذلك الكم الهائل من التعاون الدولي البنَّاء الذي تحقق

على المستوى التقني والوظيفي من قبل وسائط متطوعة لم ينجح في خلق تلك الرابطة للمصالح الوطنية المشتركة التي كان أنصارها يأمَلون بتحقيق السلام عن طريق بناء مجتمع دولي. كان قدوم الحرب العالمية الثانية أحد أكبر إخفاقات الذكاء والتنظيم البشري في تاريخ العالم.

٥

الحرب العالمية الثانية

١٩٣٩- ١٩٤٥

١- مسائل متعلقة:

بدأت الحرب العالمية الثانية، مثل الأولى، ظاهريًا بسبب نزاع يتعلق بالأقليات القومية في أوروبا الشرقية. في شهري مارس وأبريل عام ١٩٣٩ قدم هتلر مطالبَ لبولندا من أجل دمج دانزيغ مع الأراضي الألمانية وامتياز ربط طريق وسكة حديد عبر مقاطعة بومورز البولندية. رفضت الحكومة البولندية الأمر، وبعد مهزلة من الإنذارات الألمانية التي لم تتح لها الفرصة للوفاء بها، غزت الجيوش الألمانية بولندا في سبتمبر ١٩٣٩. وبعد أن ضمنت بريطانيا العظمى في شهر مارس الدفاع عن بولندا ضد هذا الهجوم، أعلنت الحرب على ألمانيا وانضمت إليها في غضون أسبوع جميع دول السيادة باستثناء أيرلندا. وبما أن فرنسا أيضًا تعهدت بالدفاع عن بولندا، أعلنت خلال ست ساعات الحرب على ألمانيا. وإلى أن أعلنت إيطاليا الحرب على فرنسا وبريطانيا في يونيو ١٩٤٠، لم تدخل أي دولة أخرى الحرب ما عدا تلك الدول التي غزتها ألمانيا واحتلتها كمقدمة لهجومها على فرنسا في ربيع

عام ١٩٤٠ (النرويج، وبلجيكا، وهولندا). وعلى الرغم من أن الدنمارك كانت محتلة إلا أنها لم تصبح دولة محاربة.

كانت المرحلة الأولى من الحرب، قبل انهيار فرنسا في يونيو ١٩٤٠، محدودة في نطاقها إقليميًّا وسياسيًّا. ولم تكن حربًا عالمية بالمعنى الدقيق للكلمة على الرغم من أن دخول الكومنولث جعلها تؤثر إلى حد ما على كل قارات العالم. كانت لا تزال حربًا أوروبية جوهريًّا -سباقًا لمنع ديكتاتورية ألمانيا النازية من الهيمنة على القارة الأوروبية: وعلى هذه النحو، وفي الوقت الذي طُرِد فيه البريطانيون من دنكيرك ووقَّعت الحكومة الفرنسية الهدنة مع ألمانيا وإيطاليا في يونيو ١٩٤٠، كانت قد فشلت في منع الهيمنة الألمانية في أوروبا. فبهذا التاريخ سيطرت ألمانيا على كامل النمسا، وتشيكوسلوفاكيا، والدنمارك، والنرويج، وبلجيكا، وهولندا، ونصف بولندا، ومعظم فرنسا. وكانت سواحل أوروبا الغربية من القطب الشمالي على خليج بيسكاي في أيدي الألمان. ولم تبق أي قوات بريطانية في القارة.

لكن الظروف التي بدأت فيها الحرب أشارت إلى اضطرابات أكبر بكثير وأكثر انتشارًا. فقد كان المسرح الآسيوي للحرب العالمية نشطًا منذ يوليو ١٩٣٧ عندما هاجمت اليابان الصين في صراع استمر حتى عام ١٩٤٥. في أغسطس ١٩٣٩ دخل الاتحاد السوفييتي في تحالف مع ألمانيا رضخت فيه ألمانيا للضم الروسي لدول البلقان الثلاث ليتوانيا، ولاتفيا، وإيستونيا، وجزء

من بولندا، وقطاع في فينلندا. وبعد ثلاثة أشهر شن الاتحاد السوفييتي غزوًا على فنلندا، ولهذا السبب تم طرده من عصبة الأمم في شهر ديسمبر. لكن بحلول شهر مارس ١٩٤٠ اضطرت فنلندا إلى التنازل عن أجزاء جنوبية مختلفة من أراضيها. واحتلت القوات الروسية الجزء الشرقي (وهو الأكبر) من بولندا. أنذرت هذه الاعتداءات بالانهيار الأخير لتسوية عام ١٩١٩ وفتح حِقبة جديدة. فمن الآن فصاعدًا سيتوقف الكثير من الأمور على تداعيات حرب اليابان داخل الصين، وعلى العلاقات بين شركاء التحالف النازي-السوفييتي: التي تتعارض بشدة من حيث الإيديولوجية والتقاليد الوطنية الطويلة، بوضوح في الصراع على المصالح الاقتصادية والاستراتيجية، ومع ذلك فهي تتفق مؤقتًا على ضمان مزايا متبادلة على حساب دول أخرى. لكن المستقبل القريب معلق على مسألة مختلفة: على ما إذا كانت ألمانيا قدرة على تحقيق هدفها إما بإقناع بريطانيا العظمة بعقد هدنة أو بالتغلب عليها بواسطة القصف الجوي والغزو. لقد حتمت معركة بريطانيا، التي تمت في السماء خلال أواخر صيف عام ١٩٤٠، أن الكومنولث لن يوقع أي هدنة مع ألمانيا.

وبالتالي، كان هذا يعني أن الحرب في الغرب، التي كانت بشكل رئيسي في البحر والجو، سوف تستمر لعام ١٩٤١: والأهداف المعلنة "بنظام جديد" ألماني في أوروبا، الذي بدأت على الفور بتنفيذه في البلدان المحتلة، ضمنت أن الحرب في أوروبا، كما هي في الصين، قد أصبحت الآن حربًا من أجل البقاء

الوطني، ضد سيطرة "العِرق السيد". كانت القضايا في هذه المرحلة واضحة بما فيه الكفاية. المعاملة الألمانية للبولنديين، الذين كانوا يُعامَلون كالسُّلافيين باعتبارهم عِرقًا أدنى يجب إخضاعه بالكامل لحاجات ومصالح الألمان، والمعاملة الألمانية لليهود، الذين كانت إبادتهم هدفًا أساسيًا للإيديولوجية النازية، جعلها حربًا في سبيل القومية ضد العنصرية. كما أن إنشاء أنظمة دُمَى الحزب الواحد في معظم الدول المحتلة جعلها أيضًا حربًا في سبيل الحريات الديمقراطية ضد الطغاة الفاشيين. أدى انتخاب الرئيس روزفلت لولاية ثالثة عام ١٩٤٠ إلى ضمان أن نفوذ الولايات المتحدة ومساعدتها الاقتصادية والدبلوماسية- بقدر ما يَسمح الكونغرس والرأي العام- سوف يُلقَى على الجانب البريطاني في هذا السباق. انتهت هذه المرحلة بشكل حاد مع هجوم ألمانيا على الاتحاد السوفييتي في يونيو ١٩٤١. وفي هذه الأثناء استمرت الحرب في الصين بشكل غير حاسم.

أصبحت الحرب الآن أقل وضوحًا للديمقراطيات ضد أنظمة الحزب الواحد، حيث أصبح الاتحاد السوفييتي على الفور حليفًا لهذه الديمقراطيات. وبقيت حربًا للقومية ضد العنصرية والهيمنة الألمانية؛ لأن الجيش الأحمر حارب لصد الغزاة الأجانب من الأراضي الروسية. والآن بما أن ألمانيا كانت متورطة في حرب على جبهتين، وفشلت استراتيجية بليتزكريغ الأصلية، أصبح محكومًا عليها بتكبّد خسائر فادحة للغاية سواء من القصف الجوي

من الغرب أو في القتال البري على الجبهة الشرقية. وبحلول نهاية عام ١٩٤١ كان دفاع موسكو بمثابة فشل بليتزكريغ الألماني في الشرق. وبموجب سياستها "الأرض المحروقة"، التي تذكرنا بالتكتيكات الروسية ضد نابليون في عام ١٨١٢، اشترى الاتحاد السوفييتي الوقت بالمكان وألحق خسائر فادحة جدًّا بالجيوش الألمانية. إن صناعات ما وراء جبال الأورال، التي استكملت بالإمدادات المشحونة أو المنقولة جوًا إلى روسيا من قبل حلفائها الغربيين، أبقت على إمدادات الجيش الأحمر.

في ٧ ديسمبر أدى قيام اليابان بقصف كل قاعدة للولايات المتحدة وبريطانيا في متناول يدها إلى تحويل الحربين إلى حرب عالمية. وفي يوليو ضمت الهند الصينية الفرنسية. إن الخسائر التي ألحقتها الآن بالأسطول الأميركي في بيرل هاربور، وبالأسطول الفرنسي بإغراقها السفينة الحربية "أمير ويلز" والمطوفة الحربية "ريبولس"، منحتها التفوق البحري في المحيط الهادئ وفي مياه شرق آسيا. وقد استخدمت هذا التفوق في التغلب، وبسرعة كبيرة، على هونغ كونغ، وماليزيا، وسنغافورة، وجزر الهند الشرقية الهولندية، وبورنيو، والفيليبين، وجزر الأندامان، وبورما. وبعد أربعة أيام من الهجوم على بيرل هاربور أعلنت ألمانيا وإيطاليا الحرب على الولايات المتحدة فأحاطت الحرب الكرة الأرضية. ومنذ ذلك الحين انخرطت كل القوى العظمى في الحرب، وأصبحت كل قارة وكل محيط في العالم مسرح عمليات. وأصبح

انحياز القوى الآن هو انحياز "لميثاق مناهضة كومينترن" -ألمانيا، وإيطاليا، واليابان- ضد ائتلاف عالمي للقوى بقيادة بريطانيا والولايات المتحدة، ويضم الاتحاد السوفييتي والصين التي كانت في حالة حرب مع اليابان منذ عام ١٩٣٧. إن الطموح الألماني بإنشاء نظام جديد في أوروبا كان يتوافق مع الطموح الياباني بإنشاء منطقة سيادة واسعة في آسيا والمحيط الهادئ، وقد حقق كل منهما فتوحات كبيرة. كان هناك حلقة مهمة مفقودة من السلسلة. فعلى الرغم من انضمامها إلى ميثاق مناهضة كومينترن فإن اليابان لم تكن في حالة حرب مع الاتحاد السوفييتي. ولم يعلن الاتحاد السوفيتي الحرب على اليابان إلى ما بعد هزيمة ألمانيا في عام ١٩٤٥، وفي غضون بضعة أيام من استسلام اليابان.

إن هذه الحقيقة بمثابة تحذير من اعتبار المسائل الإيديولوجية حاسمة في انحياز القوى. لقد تصرفت كل دولة بناء على حسابات دقيقة لمصالحها الوطنية المنفصلة، ومن الجدير بالذكر أنه لم يشارك الاتحاد السوفيتي ولا الولايات المتحدة في الحرب حتى أصبحتا ضحية لعدوان. كانت الصراعات الأشد للإيديولوجية قد تم إهمالها عندما تقاطعت مع المصالح الوطنية: من قبل الاتحاد السوفييتي عندما وضع التحالف النازي-السوفييتي في عام ١٩٣٩، ومن قبل بريطانيا العظمى عندما رحبت بالاتحاد السوفييتي كحليف لها في عام ١٩٤١، ومن قبل اليابان عندما امتنعت عن مهاجمة الاتحاد

السوفييتي. لكن الآن، كما في الحرب العالمية الأولى، فإن التجربة وضرورات إجراء حملات حديثة حفزت الحكومات والشعوب على حد سواء لصياغة أهداف للحرب وأهداف للسلام في شروط أيديولوجية. كما أن نمو حركات المقاومة المنظمة في البلدان المحتلة من أوروبا والشرق الأقصى أدى إلى بلورة الأهداف، ورافقت حملات التحرير في عامي ١٩٤٤ و١٩٤٥ برامج إعادة إعمار. إن القيام بحرب نفسية عبر الراديو والمنشورات ضد الدول الأعداء تطلب قاعدة ما في النظرية السياسية. الحاجة للحفاظ على الروح المعنوية على الجبهة الداخلية في مواجهة الاضطرابات الاجتماعية الكبيرة وفي كثير من الأحيان إصابات مدنية كبيرة بسبب القصف، أدت إلى صياغة أهداف ومُثُل ما بعد الحرب. على الناس في كل مكان معرفة ما الذي كانوا يقاتلون من أجله إن كان عليهم الذهاب إلى القتال على الإطلاق: على الرغم من أن الجاذب الأساسي بقي القومية -الاستقلال الوطني والحكم الذاتي- فإن ذلك وُجِد غير كافٍ بحد ذاته. فقد تم استكماله بجاذب الشيوعية و"جعل القومية شيوعية" انتشر جدًّا خلال الحرب[٣٦].

كانت أول صياغة نظامية لأهداف الحرب هي "ميثاق الأطلسي" الذي وضعه السيد تشرشل والرئيس روزفلت في ١٤ أغسطس ١٩٤١، قبل أن يأتي انحياز الدول الذي سبق وصفه إلى الوجود. كان هدفهما وضع "المبادئ

٣٦ المعنى الأوسع موصوف أعلاه، الفصل ٤، ٢.

المشتركة في السياسات الوطنية لبلديهما التي يبنيان عليهما آمالهما من أجل مستقبل أفضل للعالم". إن عبء النقاط الثمانية التي لخصا بها هذه المبادئ المشتركة كان في الحفاظ على السيادة الوطنية والاستقلال، إلى جانب التعاون الدولي من أجل تعزيز الازدهار الاقتصادي، ونزع السلاح، والسلام. لكنهما ذكرا أيضًا "هدف ضمان تحسين معايير العمل، والتقدم الاقتصادي، والأمن الاجتماعي" والتأكيد على "التحرر من الخوف والعوز"[٣٧]. وبعد شهر قامت الحكومات المتحالفة في المنفى في لندن (بلجيكا، تشيكوسلوفاكيا، اليونان، لوكسمبورغ، هولندا، النرويج، بولندا، ويوغوسلافيا) بالإضافة إلى فرنسا الحرة والاتحاد السوفييتي، بالمصادقة على بيان الأهداف هذا. وقد تم إقراره في المادة السابعة من اتفاقية المساعدة المتبادلة بين بريطانيا والولايات المتحدة في فبراير ١٩٤٢ وأعيد في اتفاقيات الإقراض والتأجير اللاحقة مع الاتحاد السوفييتي، والصين، وأثيوبيا، وليبيريا، وأستراليا، وكندا، ونيوزلندا. وكرر في المعاهدة الأنجلو-سوفيتية في مارس ١٩٤٢. إن هذا الإعلان المشترك للدول الأربع بشأن الأمن العام، الصادر بعد مؤتمر موسكو في أكتوبر ١٩٤٣ لصالح المملكة المتحدة، والولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي، والصين، شدد على القومية بشكل شبه حصري. لقد تحدث عن الحاجة إلى

٣٧ للاطلاع على نصوص هذا الإعلان والإعلانات اللاحقة، انظر وثيقة الأمم المتحدة ١٩٤١-١٩٤٥، التي نشرها (١٩٤٦) المعهد الملكي للشؤون الدولية. وقد تضمن الرئيس روزفلت، في خطابه الذي ألقاه في يناير ١٩٤١ بعد انتخابه لمرة ثالثة، "التحرر من "العوز والخوف" باعتبارهما اثنتين من "الحريات الأربع الأساسية".

إنشاء "منظمة دولية عامة تقوم على مبدأ المساواة في السيادة بين جميع الدول المحبة للسلام". تصريحات مشتركة لاحقة في القاهرة (نوفمبر ١٩٤٣)، وفي طهران (ديسمبر ١٩٤٣)، وفي يالطا (فبراير ١٩٤٥) كانت مهتمة في المقام الأول بسير الحرب والمشاكل السياسية المباشرة لتسوية ما بعد الحرب. كما أنها صيغت أيضًا بمصطلحات قومية بشكل أساسي.

لكنَّ مُثُلًا عليا كالأمن الاجتماعي والديمقراطية الاقتصادية والتحرر من العوز ذكرت بقوة في سلسلة من التصريحات المنفصلة وتم الاعتراف بها كهدف للمنظمة الدولية في إنشاء مختلف وكالات الأمم المتحدة الجديدة. في مايو ١٩٤٤ أصدر المؤتمر العام لمنظمة العمل الدولية، المنعقد في فيلاديلفيا ويمثل ٤١ دولة عضو، بيانًا عن "المبادئ التي يجب أن تلهم سياسة أعضائها". إنه بيان رائع عن اندماج مثل الوطنية والاشتراكية. مبدؤه الرئيسي هو أن "جميع البشر، بغض النظر عن العرق أو العقيدة أو الجنس، لديهم الحق في السعي وراء رفاهيتهم المادية وتطورهم الروحي في ظروف من الحرية والكرامة والأمن الاقتصادي وتكافؤ الفرص". ويعلن أن "الحصول على الظروف التي يكون فيها ذلك ممكنًا يجب أن يشكل الهدف الرئيسي للسياسة الوطنية والدولية". ثم يُدرج عشرة أهداف محددة محسوبة لإعطاء مثل هذه الظروف. وهي تتضمن "التوظيف الكامل ورفع مستويات المعيشة"، "سياسات متعلقة بالأجور والرواتب، وساعات وظروف العمل

الأخرى المحسوبة لضمان حصة عادلة من ثمار التقدم للجميع، وحد أدنى لأجور المعيشة لجميع العاملين المحتاجين لهذه الحماية"، "توسيع نطاق تدابير الأمن الاجتماعي لتوفير دخل أساسي لجميع المحتاجين لهذه الحماية والرعاية الطبية الشاملة"، "حماية مناسبة لحياة وصحة العاملين في جميع المهن"، "توفير الرفاهية للطفل وحماية الأمومة"، "توفير التغذية المناسبة، والسكن، والمرافق للترفيه والثقافة"، " تأمين المساواة في الفرص التعليمية والمهنية". ومرة أخرى أعطت دولة الحرب زخمًا قويًا لنمو دولة الرفاهية.

على الصعيد الدولي تم إنشاء سلسلة من الوكالات لتعالج بالعمل المنسق المشكلات الاقتصادية والاجتماعية الطويلة الأمد. في عام ١٩٤٣ تم إنشاء إدارة الأمم المتحدة للإغاثة وإعادة التأهيل (UNRRA) لتتعامل مع أعمال الإغاثة الفورية. وفي عام ١٩٤٥ تم إنشاء منظمة الأغذية والزراعة للعمل على رفع مستويات التغذية، وتحسين أساليب إنتاج وتوزيع المواد الغذائية، وتحسين ظروف سكان الريف، وبالتالي "المساهمة في توسيع الاقتصاد العالمي". ووضعت المشاكل المالية والعملة، المتعلقة بتسهيلات الائتمان الدولي، في محل اهتمام صندوق النقد الدولي والبنك الدولي للإنشاء والتعمير الذي تم إنشاؤه في بريتون وودز في عام ١٩٤٤. وكان تعاون اجتماعي وثقافي أوسع من مهام منظمة الأمم المتحدة للتربية والتعليم والثقافة (UNESCO). أعلنت مقدمة دستورها أن السلام يجب أن يقوم "على التضامن الفكري والأخلاقي

للبشرية".

من خلال هذه التدابير وغيرها[٣٨] تم تحويل المثل العليا والتطلعات الناتجة عن القتال في الحرب من بيانات وكلمات إلى منظمات دولية صلبة ودقيقة. وقد قوبلت على المستوى المحلي بخطط وطنية جديدة. ففي عام ١٩٤٢ ظهر تقرير بيفيريدج بخصوص التأمين الاجتماعي والخدمات المرتبطة به في بريطانيا، وتمت مناقشة الخطة من أجل الأمن الاجتماعي التي حددها على نطاق واسع بشكل وطني ودولي. وبعد سنتين ظهرت تتمة له حول "التوظيف الكامل في المجتمع الحر". نفذت حكومات زمن الحرب وما بعد الحرب، خاصة حكومة العمال التي حكمت بأغلبية عظمى من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٥٠، معظم مشاريع إعادة تنظيم التعليم، والخدمة الصحية الوطنية، والعلاوات العائلية، والأمن الاجتماعي، والتأميم التي تم إعدادها خلال الحرب. في مارس ١٩٤٤ رسم المجلس الوطني للمقاومة في فرنسا، الذي يمثل حركات المقاومة الداخلية الرئيسية، "ميثاق المقاومة" الذي وضع التدابير التي يجب اتخاذها بعد التحرير لضمان "نظام اجتماعي أكثر عدلاً" و"ديمقراطية اقتصادية واجتماعية حقيقية" وهذا ما يتضمن "خطة

٣٨ إن عدد وتنوع الوكالات الدولية التي تم إنشاؤها في هذا الوقت يمنع اعتباركم الكامل هنا: قد تكون أنشطتها قد درست بشكل ملائم في "المصالحة الدولية" التي نشرتها مؤسسة كارنيجي للسلام الدولي. اعتمدت كلها في نجاحها على التعاون الطوعي للحكومات الوطنية، ولم يشكل أي منها سلطة فيدرالية أو فوق وطنية مثل خطة شومان التي تمت مناقشتها أدناه (الفصل ٦، ١).

كاملة لتحقيق الأمن الاجتماعي"، وتأميم وسائل الإنتاج والائتمان الرئيسية، وتأمين التوظيف. في عام ١٩٤٥ تم قبوله من قبل جميع الأحزاب السياسية الرئيسية باعتباره برنامجًا لإعادة الإعمار، وشرعت الحكومات المؤقتة، القائمة على تحالف بين الشيوعيين والاشتراكيين والديمقراطيين الكاثوليك بتقديم تدابير التأميم، والعلاوات العائلية، ومعاشات التقاعد، والرعاية الاجتماعية. وكانت خطط مونيه لتحديث وإعادة تجهيز الاقتصاد الوطني الجزء الأكثر منهجية للتخطيط الاقتصادي والاجتماعي المعروف في التاريخ الفرنسي.

إن طابع الصراع الطويل الأمد أثَّر في حد ذاته بهذه الطرق على المفهوم العالمي للقضايا التي على المحك. كل الأمم المتحدة، طالما يُنشِؤون تحالفًا كبيرًا ضد الديكتاتوريات، يمكنهم الاتفاق على أن الهدف الأول للنصر كان القضاء على الديكتاتوريين والأنظمة الاستبدادية التي أسسوها في البلدان المحتلة. جميعهم أجبروا على وعد أنفسهم والآخرين باستعادة الاستقلال الوطني وحقوق السيادة جنبًا إلى جنب مع تعاون وثيق في مهام سنوات ما بعد الحرب. كما تم دفعهم أيضًا، ولو بدرجات متفاوتة من التركيز، إلى تبرير إعادة التأكيد على القومية من خلال الإقرار بالمثل العليا للرعاية والأمن الاجتماعي لجميع الناس. لقد طاردتهم تجربة الأزمة الاقتصادية العالمية والبطالة الجماعية التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، وكانوا مدركين الحاجة

إلى منع تكرار الكساد الاقتصادي الذي ولَّد وغذَّى الحركات الفاشية. إن النمو الهائل لسيطرة الدولة والتنظيم المفصل للحياة اليومية، اللذَيْن كانا المرافقين الحتميين للحرب الحديثة، جعلا الناس في كل مكان يعتادون على العمل الحكومي من أجل الصالح العام. وقد برزت الآن وتوسعت النزعات التي كانت واضحة في الحرب العالمية الأولى: والأهداف مثل الأمن الاجتماعي من "المهد إلى اللحد" والحفاظ على العمالة الكاملة تطلبت تنظيم دولة أكثر استمرارية وأبعد مدى مما كان متوقعًا. لقد تعاون كل شيء لجعل النشاطات الاجتماعية وحياتها الاجتماعية من اهتمام الحكومات الوطنية بشكل أكثر عمقًا من أي وقت مضى. وأصبح التخطيط الاقتصادي الطويل الأمد هو الأداة المقبولة للدولة[٣٩] على الرغم من أنه في عام ١٩٦٨ كان الإيمان بالتخطط يتراجع بشكل حاد.

خلف هذا المزيج من القضايا القومية والاشتراكية يكمن نوعان آخران من القضايا الأقل ثباتًا في أذهان المتحاربين لكنَّ كليهما لهما أهمية كبيرة لمستقبل العالم. أحدهما كان تحديد التوازن الكامل لعلاقات القوى في المحيطات الرئيسية في العالم. فهل ستبقى بريطانيا وفرنسا، وليس إيطاليا وألمانيا، القوتين المهيمنتين في البحر الأبيض المتوسط؟ وهل ستبقى الولايات المتحدة وبريطانيا، وليس ألمانيا، القوتين المسيطرتين على المحيط الأطلسي؟ وهل

٣٩ حتى للولايات المتحدة: انظر في "خطة وبرنامج فترة ما بعد الحرب للولايات المتحدة" الصادر في عام ١٩٤٣ من قبل المجلس الوطني لتخطيط الموارد.

سيحتفظ الكومنولث البريطاني بالمحيط الهندي كأحد أهم نقاط وجوده، أو سيتم تقسيم هذه المنطقة بين الهند واليابان لاستبعاد بريطانيا؟ وهل ستقع الهيمنة على المحيط الهادئ في يد اليابان وليس في يد الولايات المتحدة؟ إن انتصارات الأمم المتحدة حددت كل هذه القضايا لصالح الحلفاء.

وراء هذه القضية تكمن قضية أخرى أبعد مدى في تطبيقاتها. فهل كانت إمبراطوريات الأمم البيضاء خلف البحار ستبقى بعلاقة استعمارية مع أوروبا، أو أنها ستنتقل إلى الاستقلال التام؟ في العديد منها، وقبل الحرب قامت حركات وحتى قُدِّمت تنازلات من أجل الحصول على حكم ذاتي أوسع وعلى الاستقلال. إن الهزائم الملفتة للنظر للحكومات البيضاء التي ألحقها بها اليابانيون في معظم المناطق والاحتلال اللاحق للأراضي الاستعمارية من قِبَلِ اليابانيين، غَيَّر الوضع بأكمله. إن وضع البريطانيين في سنغافورة، ومالايا، وبورما لا يمكن أن يعود إلى ما كان عليه ثانية. وكذلك الأمر بالنسبة لوضع الهولنديين في أندونيسا، أو الفرنسيين في الهند الصينية، وحتى الصينيين في مانشوريا. فقد كان للاضطرابات في أوروبا تداعيات مشابهة في كل قارة إفريقيا، مؤثرة في وضع الفرنسيين في الجزائر وتونس والمغرب، ووضع الإيطاليين في ليبيا، ووضع البريطانيين في مصر، ووضع البلجيكيين في الكونغو. كانت إحدى عواقب الحرب الهامة هي ثورة استعمارية تؤثر إلى مدى بعيد في المستقبل، وإذا قتلت الحرب العالمية الأولى الإمبريالية ذات

العلاقة بالسلالات الحاكمة، فإن الحرب العالمية الثانية كانت ضربة قاضية للإمبريالية الاستعمارية. وأعطيت القومية فرصة جديدة للحياة.

كما نشأ أيضًا من مسار الحرب مفهوم جديد ذو اهتمام خاص بتاريخ العالم: المحاكمة المنهجية لمجرمي الحرب، ولا يتضمن ذلك أولئك الذين اقترفوا جُنَحًا ضد أحكام الحرب المقبولة وحسب بل أيضًا أولئك المتهمين "بجرائم ضد الإنسانية" و"جرائم ضد السلم" من خلال التخطيط أو شن "حرب عدوانية". وتم إنشاء محكمة دولية في نوريمبرغ تضم قضاة ومُدَّعين عامِّين في القوى الأربع الكبرى التي أنشأتها (الولايات المتحدة، وبريطانيا العظمى، والاتحاد السوفيتي، وفرنسا)، وتم تعبئة لوائح الاتهام ضد ٢٤ فردًا و ٦ مجموعات أو منظمات. شمل الأفراد: هيرمان جورنغ، رودولف هيس، فون ريبينتروب، وفون نيراث من بين القادة السياسيين والأدميرالين ريدر ودونيتز والجنرالين كيتيل وجودل من بين قادة الخدمة، وبعض الإداريين البارزين مثل: لي، فريك، سوكل، وسبير، وضمت المنظمات مجلس الرايخ، وهيئة الأركان العامة، والقيادة العليا والجستابو.

كانت محاكمات قادة الأعداء السابقين على هذا النطاق أمام محكمة دولية بدون سابقة. وكانت تدار الإجراءات على الرغم من الصعوبات الكبيرة في اللغة والتقنية بوقار ولياقة قضائية التي لم تكن دائمًا ملحوظة في محاكمات الخونة الوطنيين الآخرين. كما لم تكن الأحكام متطرفة حتى إنها كانت

عرضة للانتقاد بأنها كانت خفيفة جدًّا بالأخذ بالاعتبار خطورة الجرائم، فقد تمت تبرئة اثنين من المتهمين. ولا يمكن وصف الأحكام بأنها متسرعة، واستمرت المحاكمات حتى عام ١٩٤٩. الأمر الأكثر جدية كان الانتقاد القائل بأن القضاة يضمون ممثلين من الاتحاد السوفييتي الذي طرد من عصبة الأمم في عام ١٩٣٩ بسبب عدوانه على فنلندا، والذي غزا بولندا باعتبارها حليفة ألمانيا في عام ١٩٣٩، والذي أيد معسكرات الاعتقال ومعسكرات العمل القسري التي لا تختلف في طبيعتها عن تلك التي تمت إدانتها الآن في ألمانيا النازية. وأجريت محاكمات مماثلة "لمجرمي الحرب" اليابانيين، ومحاكم عسكرية محلية للقوى المحتلة حاكمت أولئك المتهمون بجرائم محلية. وبالإجمال قُدِّمَ الآلاف من الأشخاص للمحاكمة. ويبدو تقريبًا أن هذا الإجراء القضائي قد أقيم الآن كإجراء حتمي مناسب لما بعد حرب كبرى.

٢- عبء الحرب:

"الحرب تلقي عبئًا على الدولة المتهاوية، والسلام لا يفعل شيئًا لتخفيف الثقل".

هذا ما كتبه ويليام كوبر، وقبل النظر أعمق في خطط السلام "لتخفيف الثقل"، من الجيد تقييم عبء الحرب. كانت السمة الأكثر لفتًا للانتباه في مسار الحرب هي السرعة والمدى الكاسح للانتصارات الألمانية واليابانية خلال النصف الأول من الحرب، والنجاحات الدرامية والمدمرة للحلفاء

في النصف الثاني. كحرب عالمية فقد استمرت من ١ سبتمبر ١٩٣٩ عندما استسلمت اليابان رسميًّا لقوى الحلفاء. وهكذا استمرت لمدة ست سنوات ويوم، أو استمرت لأكثر من ثماني سنوات إذا أعيد تاريخها إلى هجوم اليابان على الصين في عام ١٩٣٧. حتى نوفمبر ١٩٤٢ كانت معظم المكاسب والميزات مع ألمانيا واليابان: وبعد ذلك الشهر، الذي شهد انتصارات إيل الأمين وستالينغراد، وإنزال قوات الحلفاء في شمال إفريقيا الفرنسية، وتأسيس قوات الولايات المتحدة في غادالكال في جزر سليمان، تغير المد وبدأت سلسلة طويلة من تقدم الحلفاء الذي انتهى بتحرير أوروبا الغربية وجنوب شرق آسيا، واستسلام ألمانيا واليابان.

هناك أسباب لهذا النمط الواضح المعالم والتي تكمن في طبيعة الحرب الحديثة وفي الموارد النسبية للمقاتلين. فأكثر من أي حرب سابقة، كانت حربًا للآليات، والطائرات والدبابات، والأعمدة الآلية والمدفعية الثقيلة، والسفن والغواصات. إن أدوات الحرب هذه هي في طبيعتها نتاج إبداع علمي ومهارة فنية عظيمين، وتعتمد في تصنيعها بكميات كافية على أساليب الإنتاج الضخم. مثل هذه الموارد متوفرة بشكل طبيعي فقط في البلدان الكبرى والعالية التصنيع.

على تجهيزات الدول من إمداداتها من الأسلحة الحديثة المناسبة للانخراط في الحرب، تفرض أساليب الإنتاج الضخم قيدين شديدين. الأول: هو أنه

قبل أن يتمكن المصنع اللازم لإنتاج فيض من الدبابات أو الطائرات من العمل، يجب أن تنقضي فترة زمنية تتراوح بين سنة وسنتين حتى يتم تصنيع الآليات نفسها اللازمة لتصنيع الآليات (المعروفة باسم أدوات الآلية). القيد الثاني: هو أنه حالما يتم إنشاء مثل هذا المصنع، فإن شكل الأسلحة التي ينتجها لا يمكن تغييره دون التسبب بمزيد من التأخير وانخفاض حاد في الإنتاج. لا يمكن حل مشكلة صنع الأسلحة بأقصى قدرة إلا فيما يتعلق بالوقت الدقيق الذي ستبدأ به العمليات الحربية. فإذا بدأت حكومة ما في الإنتاج الضخم في وقت مبكر جدًّا، فقد تجد أن مخزون معداتها قديماً: وإذا بدأت متأخرة جدًّا فسيكون إنتاجها صغيرًا جدًّا. تعطي هذه الحقيقة أفضلية أولية للمعتدي الذي يمكنه أن يحدد تاريخ بدء الحرب بشكل يتوافق مع إنتاجه الأقصى والأمثل لأسلحة الحرب. تم استغلال هذه الأفضلية بالكامل وبمهارة من قبل اليابان وألمانيا، وهذا ما فسر بشكل كبير نجاحاتهما الأولية العظيمة. إن سرعة الحملة البولندية (ثلاثة أسابيع) والحملة الفرنسية (ستة أسابيع)، والشراسة المركزة للتقدم الألماني في روسيا، الذي خلال ستة أشهر حمل الجيوش الألمانية إلى أبواب لينينغراد وسيفاستوبول وجعلها على مرأى موسكو، وزخم الهجوم الياباني الذي خلال ثلاثة أشهر جعلهم يفوزون بماليا، وسنغافورة، وبورما، والفيليبين وجزر الهند الشرقية الهولندية، كلها مظاهر لهذه الأفضلية التقنية.

لكن عوامل كلٍّ من الموارد المتفوقة من القوى العاملة والإمكانات الصناعية الأكبر كانت، إذا استخدمت بشكل مناسب، إلى جانب الأمم المتحدة. لقد أخرت فرنسا وبريطانيا العظمى برنامجيهما لإعادة التسليح كثيرًا بحيث إن إنتاجهما لم يتمكن خلال السنة الأولى من الحرب من منافسة إنتاج ألمانيا. لكن بحلول نهاية عام ١٩٤١ كان إنتاج بريطانيا يصل إلى هدفه، وتم إدخال موارد الإنتاج الضخم للاتحاد السوفييتي كانت في الميزان ضد ألمانيا. وقبل كل شيء أصبحت موارد الولايات المتحدة الضخمة، حتى قبل دخولها كدولة محاربة، متاحة بشكل متزايد لبريطانيا من خلال وسائل "ادفع واحمل" و(بعد مارس ١٩٤١) وسائل "الإقراض والتأجير". في مايو ١٩٤٠ بدأت الولايات المتحدة برنامجًا كبيرًا لإعادة التسليح، وكان الرئيس روزفلت قد حذر الكونغريس أن البلاد يجب أن تكون "مجهزة للقدرة على إنتاج ما لا يقل عن ٥٠ ألف طائرة سنويًا". كان من المحتم أنه مع نهاية عام ١٩٤٢ ستكون المنفعة الإجمالية في الحرب تتأرجح لصالح الحلفاء. في ذروة إنتاجها في عامي ١٩٤٣ و١٩٤٤ كانت الولايات المتحدة تنتج سفينة واحدة يوميًّا وطائرة كل خمس دقائق. لقد تحدث الرئيس روزفلت عن بلاده بأنها "ترسانة الديمقراطيات". خلال السنوات الست للحرب أنتجت هذه الترسانة ٨٧ ألف دبابة، و٢٩٦ ألف طائرة، و٣١٥ ألف مدفعية وشاحنات هاون، و٢,٤٣٤,٠٠٠ شاحنة، و٥٣ مليون طن من الشحنات.

فبالنسبة للأطراف المتحاربة الرئيسية كان العبء الأول للحرب هو إعادة التنظيم الكامل لإنتاجها الصناعي لإنتاج المعدات الحربية. وقد رافق ذلك في كل الدول ما عدا دول السيادة عبر البحار والولايات المتحدة دمارًا ماديًّا هائلًا: في المملكة المتحدة، وفرنسا، وألمانيا، واليابان وبقصف جوي في جميع البلدان المحتلة، الاتحاد السوفييتي، وألمانيا بغزو مسلح. في البحر وصل تدمير السفن بالألغام والغواصات والسفن السطحية والطائرات إلى مستوى غير معروف في الحرب العالمية الأولى. وتجاوزت الخسائر الإجمالية للحلفاء ٢٠ مليون طن، لكن هذا كما هو موضح أعلاه، يمكن أن أكثر بكثير مما تم استبداله من موارد بناء السفن الأميركية. لكن عانت كل دولة محاربة من لحظات الأزمة عندما بدا أن الإنتاج، في السباق على الإنتاج، كان متأخرًا خلف الاستهلاك. في شتاء عام ١٩٤١-١٩٤٢ كان الجزء الأكبر من الجيش الألماني متناثرًا فوق "الأراضي المحروقة" من غرب روسيا، وامتدت خطوط اتصالاته إلى أقصى حدودها، وعانى رجاله من أحد أسوأ فصول الشتاء في الذاكرة الحية. في تلك اللحظة شهدت ألمانيا أزمة في الإنتاج بسبب تضاؤل مخزونها، اهتراء مصنعها، وندرة الغذاء، كما عانت من نقص حاد في العمالة الماهرة. هذه الأزمة تذكرنا بأزمة عام ١٩١٦، وقد تعامل معها الحزب النازي ببرنامج طوارئ بتوجيه من ألبرت سبير وبمساعدة فريتز سوكل باعتباره مدير تخصيص العمالة. خلال عام ١٩٤٢ كانت كل أوروبا

المحتلة قد نقبت من أجل الحصول على إمدادات جديدة من العمالة وتم نقل الملايين من العمال إلى المصانع الألمانية. لكن الخسائر الضخمة لعام ١٩٤٢ بلغت ذروتها في هزيمة ستالينغراد حيث خسرت ألمانيا ٣٥٠,٠٠٠ رجل من جيشها السادس، وكانت "التعبئة الإجمالية" التي قام بها سوكل في يناير ١٩٤٢ مقياسًا لاستمرار أزمة الإنتاج. بذلك الوقت كان القصف الجوي أيضًا يُبطئ عملية الإنتاج، وكانت البلاد تشعر بنتائج "الحرب المروعة" على جبهتين.

تعرضت اليابان إلى أزمة مشابهة ولنفس الأسباب في شتاء عام ١٩٤٤-١٩٤٥. لكن الصين، التي كانت تفتقر إلى المعدات الصناعية التي تملكها الدول المتحاربة الرئيسية الأخرى، كانت تعمل على تطوير تقنيات لحرب العصابات التي، كما شرحها الزعيم الشيوعي ماو تسي تونغ، قد تم تقليدها في النزاعات الاستعمارية للخمسينات والستينات. وقد أظهرت الصين، بشكل أكثر دراماتيكية من روسيا عام ١٩١٨، فردية الحرب والثورة في القرن العشرين.

كانت استراتيجية الاستخدام الأكثر فعالية للمعدات تتوقف على التجميع المنهجي لها على الحد الذي يجعل فيه الثقل الساحق والتفوق من الممكن شن هجوم مركز لا يمكن مقاومته. كان هذا هو الأسلوب الكلاسيكي الذي اعتمدته الدول المعتدية في إعداد هجماتها المفاجئة الأولية،

وهو أيضًا بالمثل كان الأسلوب الذي اعتمده الحلفاء في هجماتهم المضادة. وقد قدمت الحملات في شمال إفريقيا أكثر من مثال على هذا الأسلوب. واعتمد النجاح على التنسيق الدقيق بين الأنواع المختلفة للأسلحة: القوات المسلحة في البر، والقوة الجوية المجتمعة معها، وعلى كليهما عندما يكون ذلك ممكنًا، بالتنسيق مع الاستخدام المناسب للقوة البحرية. لقد كان الاستخدام الماهر لمثل هذه العمليات المجتمعة هو الذي رفع فيلق رومل الإفريقي إلى طبرق في أول شهرين من عام ١٩٤٢ وإلى العلمين بيونيو في حملته للاستيلاء على مصر والشرق الأوسط. حتى إنه كان استخدامًا أكثر مهارة له الذي مكن جيش الجنرال مونتغومري الثامن من صد رومل في العلمين وفي أوتوبر ١٩٤٢ من طرد الفيلق الإفريقي على طول الطريق الساحلي الذي تعرض للقصف الجوي والبحري. افتتح الهجوم بوابل من ١٠٠٠ مدفع بطريقة تذكرنا بالهجمات على الجبهة الغربية في الحرب العالمية الأولى. خسر الألمان ٦٠,٠٠٠ رجلٍ في المعركة.

لكن الخسائر في الأرواح بهذا الحجم في المعركة، ما عدا على الجبهة الروسية الشاسعة، كانت نادرة في الحرب العالمية الثانية. لقد تحققت آمال بُناة خط ماجينو الفرنسي في أن تكون الحرب العِلْمية والآلية موفرة في الأرواح وإن لم يكن بالطريقة التي تَوَقَّعوها. كان التركيز والسرعة في معظم العمليات الكبرى يعني أنه في العادة كان يتم أَسرِ عدد الأسرى أكبر من عدد القتلى.

لقد تجنبت الحرب الحركية فترات الاستنزاف الطويلة والمميتة التي أعقبتها إبادة كاملة للأرواح التي كانت قد ميزت الحرب العالمية الأولى. ففرنسا التي كانت مرتين ساحة معركة كبرى والتي كانت عرضة للهجوم الجوي طوال الوقت، فقدت حوالي ٥٠٠,٠٠٠ شخص، بمن فيهم أولئك الذين قُتلوا في المقاومة: أي ثلث خسائرها في الحرب العالمية الأولى. والولايات المتحدة التي كان لديها أكثر من ١٢ مليون جندي في الحرب، تكبدت خسائر تقدر بحوالي ٣٢٥,٠٠٠ جندي، كما خسرت قوات الإمبراطورية والكومنولث البريطاني بين قتيل ومفقود حوالي ٤٤٥,٠٠٠ جاء أكثر من نصفهم من المملكة المتحدة لوحدها.

لكن القوى المهزومة والاتحاد السوفيتي الذي عانى من هزائم أولية ثقيلة على الأرض، خسرت أرواحًا على نطاق يتجاوز ما فقدته في الحرب العالمية الأولى. فخسرت ألمانيا ٢,٢٥٠,٠٠٠ مقاتلًا قُتلوا في المعارك. واليابان، التي كانت في حالة حرب مستمرة من عام ١٩٣٧ حتى ١٩٤٥ خسرت بالإجمال حوالي ١,١٧٤,٠٠٠ بالإضافة إلى ٣٣٠,٠٠٠ مدنيًا قتلوا في الغارات الجوية منهم ٩٢,٠٠٠ قُتلوا في هيروشيما. ويُزعَم أن خسائر روسيا وصلت إلى ١٥ مليونًا، وبدون شك فقد تجاوزت ١٠ ملايين، لكن لا تتوفر أرقام موثوقة وكلا الجانبين كان لديهما مصلحة معينة في تضخيم الخسائر الروسية. ويبدو أنه من المحتمل أنه في سياق الحرب بأكملها، تجاوز العدد

الإجمالي للمدنيين الذين قُتلوا عدد الذين قُتلوا في الزي العسكري. ففي المملكة المتحدة قُتل أكثر من ٦٠,٠٠٠ مدني بالقنابل والصواريخ. وكما لم تكن من قبل، كانت حربًا بين الدول بأكملها، وأرقام النساء والأطفال كانت عالية جدًّا في قوائم الموت. وفي الشرق عندما انتهى كل شيء، كانت أعلى الأرقام هي أرقام "المفقودين". إن الحرب السريعة الحركة جعلت مفاهيم "الجبهات" غير قابلة للتطبيق تقريبًا، والتركيز على قصف "الجبهة الداخلية" جعلها باعتبارها مسرحًا للحرب كغيرها. إن النظرية الألمانية القائلة "أمة في السلاح" انتصرت في الحرب الأولى"لكن في الحرب الثانية تم استبدالها بمبدأ مختلف تمامًا القائل: "الأمم في حرب".

من السمات الأخرى كان النزوح الهائل للناس. فمنذ البداية استخدم الألمان في بولندا وفرنسا حشود اللاجئين المدنيين كوسيلة لإرباك العدو وإحراجه. لقد جعل القصف الملايين من الناس بدون مأوى. وكان التدبير الوقائي المفضل وهو الإخلاء لا يزال يعني التهجير. أدى نظام هتلر الجديد والتجنيد الألماني للعمال من البلدان المحتلة إلى نقل الملايين من الأوروبيين من ديارهم. وأخذ كل جانب الملايين من الأسرى. على الجبهة الأوروبية الشرقية قضى مد وجزر المعارك على آلاف المدن والقرى. وكان اللاجئون، والمنفيون، وأسرى الحرب والنازحون هم الضحايا الأكثر شيوعًا للحرب الحديثة. لقد ورَّثوا عالم ما بعد الحرب مشكلة ضخمة في إعادة التوطين

وإعادة الإسكان، التي جعلها تقسيم ألمانيا وإعادة رسم الخريطة في أوروبا الشرقية والشرق الأوسط أصعب حلًا.

مع كل الدمار، والموت، والتشريد والقلع من الجذور جاءت حتميًا المجاعة والمديونية الهائلة. من حسن الحظ أن أغنى موارد العالم في الولايات المتحدة ودول السيادة عبر البحار لم تُمَسّ. إن قدرة أميركا على إنتاج المواد الغذائية والسلع، والسفن لنقلها، بالإضافة إلى استعدادها لفعل ما بوسعها لوضع الاقتصاد العالمي على قدميه ثانية، منعت أهوال المجاعة الأسوأ من الحدوث. عن طريق آلية "الإقراض والتأجير" خلال الحرب وآلية "مساعدة المارشال" بعد الحرب، بقيت أوروبا وأجزاء كبيرة من الشرق مزودة بالضروريات إلى أن تمكنوا ثانية من إنتاج المزيد لأنفسهم. وتمت الموافقة على مساعدات "سد الفجوة" بقيمة ٥٩٧ مليون دولار من قِبَلِ قانون المساعدات المؤقتة الذي أقره كونغرس الولايات المتحدة في ديسمبر ١٩٤٧، ثم تلاه في أبريل ١٩٤٨ قانون المساعدات الأجنبية. وهذا ما قدم ٥,٣٠٠ مليون دولار في السنة الأولى "لبرنامج الانتعاش الأوروبي"، و٤٦٥ مليون دولار للصين، و٢٧٥ مليون دولار لتركيا واليونان. بدون هذه الإجراءات يبدو من المؤكد أن النقص الحاد في المؤن في أوروبا والشرق الأقصى سيكون مصحوبًا بكساد اقتصادي في الولايات المتحدة. فقد بقيت القدرة الإنتاجية الأميركية جاهزة في أعلى مستوياتها في زمن الحرب من أجل تقديم المساعدة

إلى معظم بقية العالم. في هذه الأثناء قدمت إدارة الأمم المتحدة للإغاثة والتأهيل (UNRRA) وخليفتها المنظمة الدولية للاجئين (IRO) المساعدات الأولية الأساسية للدول الأكثر تضررًا في العالم.

إن مدى كونها فعلًا "حربًا عالمية" يمكن قياسه من خلال العدد الصغير للدول التي تمكَّنت من البقاء على الحياد طوال الوقت، على الرغم من أنه في معظم الحالات كان تعاطفها مع الحلفاء كافيًا بشكل واضح. فقد تم حث تركيا وإسبانيا على تقليص صادراتهما من المعادن النادرة إلى ألمانيا، وتمسكت السويد وسويسرا بأدوارهما التقليدية كخدام للقضايا الإنسانية ولعبتا دورًا قيمًا كوسيطتين للصليب الأحمر والأعمال البريدية، ووافقت البرتغال على تأجير قواعدها في جزر الآزور إلى بريطانيا. وبقيت مصر دولة محايدة بالاسم أكثر من الواقع. ولم تبق أي دولة في جنوب أميركا حيادية طوال الوقت، على الرغم من الأرجنتين لم تصبح دولة محاربة حتى مارس ١٩٤٥. بينما سمحت أيرلندا للمتطوعين الفرديين بالانضمام إلى القوات البريطانية بينما حرمت الحلفاء من استخدام موانئها. وهكذا على الرغم من استبعاد الأمم المتحدة لقوى معادية قديمة، فقد كانت من البداية هيئة أكثر عالمية من الحلفاء والقوى المتحالفة لعام ١٩١٩.

٣- توازن جديد للقوى:

إن مسار الأحداث الذي بدأ "يوم النصر" (٦ يونيو ١٩٤٤) أدى إلى

تحرير جميع دول أوروبا الغربية وهزيمة ألمانيا. لقد تم إنزال جيش الحلفاء الضخم، تحت قيادة الجنرال أيزنهاور العليا في فرنسا في أروع عملية مشتركة في التاريخ. في بلد تلو الآخر، شهدت الدول انسحاب أو هزيمة الجيوش الألمانية، وواجهتها مشاكل مشتركة في تأسيس حكومات وطنية خاصة بها، وإعادة بناء حياتها الاقتصادية وإيجاد طريق العودة إلى وجود طبيعي أكثر. في بعض الدول مثل النرويج وهولندا، تمكن الملوك والحكومات المنفية من العودة واستئناف القيادة الوطنية عادة بالتعاون مع قوى المقاومة الداخلية التي تشكلت خلال احتلال العدو. وفي دول أخرى مثل فرنسا وإيطاليا، حيث انهارت أنظمة ما قبل الحرب، كان لا بد من ابتكار أنظمة دستورية جديدة. في جميع البلدان، استدعت الحاجات الماسة لإعادة التوطين، والإصلاح، وإعادة البناء عملًا حكوميًّا نشيطًا وحازمًا، ولم تتمكن أي دولة من تجنب تولي سيطرة واسعة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية الوطنية.

في هذه الأثناء كان الجيش الأحمر، المتقدم على ألمانيا المتداعية من الشرق، قد أخرج القوات الألمانية من بولندا، وتشيكوسلوفاكيا، ودول البلطيق. وعانت دول البلقان التابعة لألمانيا، ورومانيا، وبلغاريا، وهنغاريا من تغيرات عنيفة في الأنظمة ووقَّعت على هدنة مع الاتحاد السوفييتي. وكذلك فعلت فنلندا. حررت القوات البريطانية اليونان وشقت قوى الحلفاء طريقها بقتال عنيف إلى شبه الجزيرة الإيطالية، ولم تنته الأعمال العدائية في إيطاليا حتى ٢

مايو ١٩٤٥.

في الغرب جلب العام الأخير من الحرب مثالين على صمود ألمانيا حتى في مواجهة الهزيمة الحتمية. فمن يونيو ١٩٤٤ حتى تحرير الدول الغربية، تم إطلاق الآلاف من القنابل الصاروخية (V-١) تبعتها الصواريخ النفاثة (V-٢) ضد بريطانيا وخاصة لندن. وجاء الخريف قبل كبحهم عن طريق الاستيلاء على مواقع الإطلاق. في ديسمبر شن القائد الألماني فون رنستيد هجومًا مضادًا قويًّا على الراين والذي فاجأ القوات الأميركية وقاد إلى "معركة الأفضلية". أثبتت هذه الأحداث أن الجيوش الألمانية قد هُزِمت كليًّا هذه المرة، وفي ٧ مايو استسلمت القيادة العليا دون أي شروط.

على الرغم من إعداد العديد من الخطط لإعادة تأهيل البلدان المحررة وللحكم العسكري لأراضي العدو، إلا أنه كان لا يزال يفترض أن الحرب في الشرق الأقصى قد تستمر لعدة أشهر إضافية. وكما حدث في عام ١٩١٨، فاجأت النهاية السريعة للحرب الحلفاء المنتصرين. فحين استسلمت ألمانيا كانت الولايات المتحدة للتو قد استعادت الفلبين، كما استعادت القوات البريطانية والأميركية والصينية بورما، وكانت اليابان تخوض حربًا خاسرة في أوكيناوا. كانت اليابان في محنة مؤسفة؛ لأنها تعرَّضت لقصف عنيف من الجو وكانت قوات بحرية ضخمة من الحلفاء تستعد لغزو على نطاق واسع. لكن لم يكن من المستحيل أنه إذا كان لا بد من شن الغزو المخطط له في

نوفمبر، فسيظل هناك أشهر عديدة من القتال العنيف قبل أن يتم احتلال البلاد فعليًا. القنبلتان الذريتان اللتان رُمِيَتا على هيروشيما في ٦ أغسطس وعلى ناغاساكي بعد ثلاثة أيام أجبرتا اليابان على الاستسلام في ١٤ أغسطس. في الشرق الأقصى، كما في أوروبا، واجه الناس فجأة مشاكل هائلة في إعادة الإعمار: لكن يطغي عليها الآن المشهد المرعب لاحتمالات الدمار الجديد التي يجب على مهام صناعة السلام بحثها.

لم يتم مفاجأة أي قوة أكثر من الاتحاد السوفيتي. فقد تم تأجيل إعلان الحرب على اليابان إلى بعد يومين من سقوط القنبلة على هيروشيما. وكان من الواضح أن قادته لم يكونوا مدركين لنتائج القرار التي يمكن الحصول عليها من هذا المنتِج الحديث للعلم والتكنولوجية الغربية. فهذه الصاعقة، وبينما كانت الساعة تدق الثانية عشرة، جلبت مخاوف وتوترات جديدة بين الاتحاد السوفيتي وحلفائه في الغرب. وفي مؤتمر يالطا الذي عقد فق فبراير ١٩٤٥، اتفق الرئيس روزفلت والسيد تشرشل من حيث المبدأ على تقديم تنازلات كبيرة لستالين مقابل وعده بدخول الحرب ضد اليابان. في ذلك الوقت بدا أن التعاون السوفيتي يستحق هذا الثمن على الرغم من أن الثمن كان مرتفعًا. وتضمن الأمر سيطرة السوفييت على الموانئ والسكك الحديدية المنشورية، والتفوق الشيوعي في بولندا ودول البلقان خارج اليونان وإيطاليا، والحصة الأكبر من التعويضات من ألمانيا. يبدو الآن أنه لا حاجة لدفع الثمن؛ لأن

التعاون السوفيتي ضد اليابان غير ضروري. لكن القوات السوفيتية، إن تم ذلك بأي حال، أن تقضي على نفوذها في أوروبا عندما تهزم ألمانيا، وبعد الاتفاقية في بوتسدام في يوليو، قسمت إلى مناطق احتلال بريطانية، وفرنسية، وأميركية، وسوفيتية. وكان يؤمل أنه في مايو ١٩٤٦ يمكن صياغة معاهدات سلام نهائية والتوقيع عليها. والمؤتمر الذي افتتح في باريس في يوليو ١٩٤٦ وضع في النهاية إطارًا لمعاهدات من أجل بلغاريا، ورومانيا، وهنغاريا، وفنلندا وإيطاليا. وقد تم التوقيع على هذه المعاهدات حسب الأصول، لكن المشاكل الأكثر أهمية، من التسوية السلمية مع ألمانيا والنمسا واليابان، والاتفاق على مخطط عام لنزع السلاح الذي أصبح يتضمن الآن قبل كل شيء السيطرة على الطاقة الذرية، تم تأجيلها حتى نهاية عصر "الحرب الباردة" الذي نزل كالجليد على الحلفاء السابقين.

من بين زعماء الحلفاء الثلاثة الرئيسيين، بقي ستالين فقط في السلطة. فقد توفي الرئيس روزفلت في ١٢ أبريل ١٩٤٥ وخلفه هاري ترومان. وينستون تشرشل، الذي منذ أن أصبح رئيس الوزراء البريطاني في مايو ١٩٤٠، مصدر إلهام للكومنولث والمقاومة الأوروبية للمحور، سقط من السلطة في الانتخابات العامة في يوليو ١٩٤٥ وخلفه السيد آتلي بأغلبية كبيرة من حزب العمال. وهكذا لا بد من إنهاء الحرب بين الحلفاء الغربيين من قبل رجلين كانا جديدين في أعلى مناصب السلطة والقرار: كانا هما مَن حضرا مؤتمر بوتسدام

في يوليو، على الرغم من أن السيد تشرشل كان هناك أيضًا في مراحله الأولى. وكانا هما أيضًا مَن أصبحا مسؤولين عن بقية التسوية السلمية. وفي هذا الخصوص، كان إبرام المعاهدة في عام ١٩٤٥ مختلفًا عما كان عليه في عام ١٩١٩، عندما كان زعماء الحرب للقوى الثلاث المنتصرة الذين هيمنوا على التسوية أيضًا. لكن هناك القليل من الأدلة على أن هذا التغيير في الشخصيات قد أثر كثيرًا على مسار الأحداث أو على طبيعة القرارات.

إن تأجيل صناعة السلام في عام ١٩٤٧ وبدء فترة "الحرب الباردة" التي استمرت إلى سنوات ما بعد الحرب، أدى إلى ظهور توازن جديد للقوى في العالم. الآمال بانسجام في السلطة مشابه للذي كان بعد عام ١٨١٥ كانت كبيرة في بداية الأمر. على مثل هذه الآمال قام مجلس وزراء الخارجية المسؤول عن إبرام معاهدات السلام، ومجلس السيطرة المتحالفة لألمانيا، ومجلس الأمن للأمم المتحدة الذي منحت فيه كل من الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي، والمملكة المتحدة، والصين، وفرنسا مقعدًا دائمًا وحق الفيتو. لقد تخيلت جميع اتفاقيات الحلفاء في زمن الحرب فترة طويلة بعد الحرب من العمل المتضافر لتحقيق أهداف متنوعة جدًّا: خلال الفترة "المؤقتة من عدم الاستقرار في أوروبا المحررة" (في يالطا في فبراير ١٩٤٥)، من أجل إدارة مشتركة لألمانيا المحتلة (في بوتسدام أغسطس ١٩٤٥)، لإنهاء معاهدات السلام مع الدول المعادية السابقة (في موسكو ديسمبر ١٩٤٥)، وداخل

الأمم المتحدة ووكالاتها المختلفة، من أجل التعاون المستمر في العديد من المهام البناءة المختلفة (في سان فرانسيسكو يونيو ١٩٤٥). بالطبع في يالطا، تعهدت الأطراف المتحاربة الثلاثة الرئيسية بالحفاظ على "الوحدة من أجل السلام كما من أجل الحرب كواجب مقدس تدين به حكوماتنا لشعوبنا ولجميع شعوب العالم".

لقد تلاشى هذا الاحتمال، وانهارت هذه السياسة في غضون عامين أو ثلاثة من نهاية الحرب. عليها تم فرض الحقائق الأكثر قسوة للانقسام العالمي، الصراع بين الشرق والغرب، ونموذج الحرب الباردة. لكن التصميم الكبير للتعاون العالمي بقي في إطار غامض؛ لأنه كان مدمجًا في المنظمات الدولية العامة التي تم إنشاؤها في تلك السنوات الأولى المفعمة بالأمل. إن الجمع بين هذين المفهومين المتعارضين شكَّل النمط الأساسي للسياسة العالمية للسنوات العشرين التالية. فهل كانت الآمال في التوصل إلى توافق بين القوى العالمية الكبرى احتمالًا واقعيًا على الإطلاق؟ أم أن جميع مكونات النموذج البديل بتوازن غير مستقر للقوى كانت موجودة بالفعل وعاملة بحلول عام ١٩٤٥؟

ربما كانت الحقيقة الأساسية هي أن اضطرابات الحرب جعلت من الممكن استئناف التوسع الشيوعي الذي توقف منذ عام ١٩١٩ [٤٠]. لقد

٤٠ انظر أعلاه، الفصل ٣، ١.

خلَّفت سنوات ما بين الحربين إرثًا عميقًا من عدم الثقة بين الاتحاد السوفيتي والتحالف الغربي. إن ذكريات سياسة الاسترضاء من جهة وأعمال الكومنترن والاتفاقية النازية السوفيتية في عام ١٩٣٩ من جهة أخرى، عززت الشكوك العميقة بمجرد تدمير العدو المشترك الهتلري. إن أوروبا المنهكة التي مزقتها الحرب، والشرق الأدنى والأقصى المضطربين، والقومية الإفريقية اليقظة، قدمت فرصًا جديدة للتغلغل الشيوعي: الإغراءات التي بدا أن ستالين وجدها لا تقاوم. وفي بلدان أوروبا الغربية أنتجت الحركات المقاومة للاحتلال أحزابًا شيوعية قوية، كما كسبت تضحيات وانتصارات الجيش الأحمر مكانة وإعجاب واسع النطاق. وفي فرنسا في عام ١٩٤٦، صوَّت حوالي ٤٨٩,٠٠٠ رجلٍ وامرأة لصالح الشيوعيين، وفي إيطاليا في نفس العام استفتى الحزب ٤,٣٥٧,٠٠٠ صوتٍ. في كل منها شارك الحزب في الحكومة حتى مايو ١٩٤٧، وفي كل منها تمتع بنفوذ كبير على العمل المنظم، وبالتالي على الاقتصاد المتماثل للشفاء. وحل الاتحاد السوفيتي محل ألمانيا كالشريك الاقتصادي الأعلى مقامًا لبلدان أوروبا الشرقية. وبتوجيهاته وسيطرته خططوا لاقتصاد أكثر توازنًا وطمحوا إلى توسيع الصناعات الثقيلة وتحسين الأساليب الزراعية. وحل تجميع الزراعة والعمل الزراعي الجماعي محل النظام القديم للمالك والفلاح. وضمنت قوة الجيش الأحمر في أوروبا الشرقية في عام ١٩٤٥ التوجهات المؤيد للسوفييت اقتصاديًّا وسياسيًّا.

من ناحية أخرى، تضررت القدرة الصناعية الروسية بشكل كبير بسبب الحرب، بينما زادت القدرة الصناعية للولايات المتحدة بمقدار النصف، وارتفع إنتاجها الزراعي أكثر من الثلث. وبسبب النمو الكبير للدخل القومي الأميركي وقدرتها الشرائية، أصبحت الآن الممول الرئيسي في العالم السلع الرأسمالية وصناديق الاستثمار، وسوقًا مرغوبًا للصادرات العالمية. إذا كان التوسع الإقليمي والسياسي الروسي عظيمًا، فإن الولايات المتحدة كانت العامل الرئيسي في الحفاظ على الاقتصاد العالمي. ومن خلال مساعدتها الخارجية واستثماراتها وقروضها وصادراتها، أصبحت، أكثر مما كانت عليه بعد عام ١٩٢٠، الدعامة الأساسية للانتعاش والازدهار الاقتصادي في أوروبا الغربية وفي كثير من أنحاء العالم. كما أضيفت إلى القوة الاقتصادية الهائلة والإمكانات الأكبر، قوة عسكرية كبيرة. كانت القوة البحرية والجوية للولايات المتحدة في ذروتها في عام ١٩٤٥، إذ لم يتوقع أحد استسلام اليابان السريع في أغسطس ١٩٤٥.

لقد كانت هناك للتو كل مقومات التوازن الدقيق للقوة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، كان كل منهما مدعومًا من قِبَلِ مجموعات من الشعوب التي تقع تحت نفوذهما مباشرة. كان هناك نقص لأي "قوة ثالثة" فعالة. فقد أضعَفت هزيمة ألمانيا وإيطاليا واليابان بشكل مؤقت جميعَ القوى الأوروبية الغربية، وترك المستقبل غير المؤكد للكومنولث البريطاني،

واستمرار الحرب الأهلية في الصين، وعدم الاستقرار السياسي في جنوب شرق آسيا، العالم بأكمله يطغي عليه الصراع بين القوتين العظمتين. ظهرت هنا وهناك دلائل على خلاف علني بين القوى الشيوعية والمناهضة للشيوعية: كما حدث في القتال الذي نشب في اليونان في شتاء ١٩٤٤-١٩٤٥ الذي تضمن قوات بريطانية ومجموعات مقاومة شيوعية يونانية، أو كما حدث في الضغط السوفيتي المعد لإضعاف تركيا إلى مستوى دولة تابعة اعتبارًا من صيف ١٩٤٥ فصاعدًا. بحلول مارس ١٩٤٧ قرر الرئيس ترومان تقديم مساعدات واسعة النطاق لكلا البلدين، وبعد خمس سنوات أصبحتا عضوتين في منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو). بذلك الوقت كان "الستار الحديدي" قد سقط من ستيتين في البلطيق إلى رأس البحر الأدرياتيكي، وكان على البلدان الواقعة على الخط الحدودي أن يختاروا إلى أي جانب ينتمون.

لهذه الأسباب؛ إرث الشك من الماضي البعيد والانقسامات الناجمة عن التغير المتواصل لسنوات ما بعد الحرب المباشرة- سرعان ما تبددت رؤية "توافق القوى" الفعالة عالميًا. فبدلًا من "العالم الواحد" أصبح هناك الآن عالمان متعارضان يسعيان للحصول على مزايا من أي صراع ينشأ. كان هناك سبب ثالث ذو أهمية لا شك فيها لكنها كبيرة جدًّا في إحداث الخوف والعداء: القنبلة الذرية. لقد خيمت سحابة على شكل فِطر على كل سياسات ما بعد الحرب.

بعد أغسطس ١٩٤٥، أصبح معروفًا أن الولايات المتحدة لديها سِرُّ القنبلة الذرية، ولفترة من الزمن كانت وحدها تملك هذا السر. وإذا كان هذا الأمر قد عزز مكانتها في العالم بشكل كبير، فقد تسبب أيضًا في استياء وخوف عميقين لدى الاتحاد السوفيتي. في سبتمبر ١٩٤٩ أعلن الرئيس ترومان أنه من المعروف حدوث انفجار ذري في الاتحاد السوفيتي. ومن الآن فصاعدًا أصبح ميزان القوى متوازنًا باعتباره أكثر الأسلحة فتكًا ورعبًا. لقد وَلَّد هذا التوازن بدوره مخاوف أكثر شدة بين الشعوب الأخرى. فقد فتح آفاقًا مرعبة لمنافسة لا نهاية لها في مجال التسليح النووي، مع وجود دول أكثر تملكه (كما فعلت كل من فرنسا والصين في الستينات) إلى أن تدمر أي حرب كبرى بشكل شبه مؤكد الحضارة وربما البشرية.

إن عواقب التوازن الجديد للقوى في العالم على الحضارة الأوروبية، والانقسام العالمي الذي حل محل "توافق القوى" المتصور، تظهر بوضوح في حظوظ ألمانيا والمملكة المتحدة. فلمدة عامين تقريبًا تم تنفيذ السياسة المتفق عليها في بوتسدام عام ١٩٤٥ فقد تم تقسيم ألمانيا على أربع مناطق احتلال (تم قبول فرنسا كحليف رابع لهذا الغرض). وتبنى الحلفاء سياسة عامة لنزع السلاح والتجريد من الصفة العسكرية وغزالة النازية من الحياة الألمانية، وحاكموا مجرمي الحرب والحكومة اللامركزية والمنظمات الاقتصادية، وقاموا بتفكيك مصانع الإنتاج الحربي، وطالبوا بالتعويضات.

برلين، التي كانت مقاطعة ضمن المنطقة الروسية، كانت أيضًا مقسمة إلى أربع قطاعات، يدير كل قطاع منها إحدى القوى الأربعة المحتلة. قام مجلس مراقبة الحلفاء في تسوية رتبة جميع المناطق الأربع. وبحلول خريف ١٩٤٦ وضعت المناطق الأميركية والبريطانية في اتحاد اقتصادي وثيق، وفي مؤتمر لندن عام ١٩٤٨ اتفقت القوى الغربية الثلاث مع حكومات "بينلوكس" على إنشاء حكومة ألمانية من أجل المناطق الغربية الثلاث. لقد انهار العمل المنسق بشكل مذهل أثناء الحصار السوفيتي لبرلين في يونيو ١٩٤٨، وانهار الجسر الجوي الأنجلو-أميركي للحفاظ على إمداد برلين الغربية، كما توقفت كل التجارة بين ألمانيا الغربية والشرقية بربيع ١٩٤٩. وأصبحت برلين، التي كانت اسميًّا في أربعة قطاعات، في الواقع مدينتين؛ برلين الشرقية وبرلين الغربية، وتم تمهيد المسرح "لأزمة برلين" الطويلة في عام ١٩٦١ التي هددت السلام العالمي. إن تقسيم ألمانيا إلى منطقتين، وليس إلى أربعٍ، استمر حتى عام ١٩٤٩ من خلال خلق الجمهورية الفيدرالية الألمانيةً في الغرب، والجمهورية الديمقراطية الألمانية في الشرق.

المملكة المتحدة القوة الأوروبية الوحيدة التي كانت باستمرار في حالة حرب بين العامين ١٩٣٩ و١٩٤٥، خرجت من الحرب بتقدير عالٍ لكنها أضعف بشكل كبير في وضعها الاقتصادي. وبعد أن خصصت ما يقارب ثلاثة أرباع مواردها في المجهود الحربي، تحولت المملكة المتحدة من دولة

دائنة إلى دولة مدينة، وكان أعضاء من الكومنولث هم الدائنون الرئيسون لها. حتى الكومنولث ككل، الذي يواجه الآن انكماشًا في المساحة، لم يكن لديه سوى ٢٣ بالمائة من حمولة الشحن العالمية بمقارنة بنسبة ٣٠ بالمائة في عام ١٩٣٩. وانخفضت صادرات بريطانيا إلى ٤١ بالمائة من مستوى صادراتها قبل الحرب، وفقدت العديد من الأسواق القديمة. في عام ١٩٤٥ حصلت على قرض من الولايات المتحدة بقيمة ٣,٧٥٠ مليون دولار ليتم تسديده في خمسين سنة بفائدة قدرها ٢ بالمائة. وهذا ما يمثل تبعية بريطانيا المالية للولايات المتحدة. في الشرق الأقصى كانت دول أوروبا الغربية، بما فيها الكومنولث، في حالة تقهقر، بينما توسعت سلطة كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. فقد بقيت قوات الولايات المتحدة في اليابان وفي معظم الجزر الاستراتيجية في المحيط الهادئ، على الرغم من أن اليابان استعادت سيادتها الرسمية في عام ١٩٥٢. وكانت القوات المدعومة من الشيوعية نشيطة في إندونيسيا والهند الصينية وماليا والصين التي وقعت تحت الحكم الشيوعي في عام ١٩٤٩، سوف تحدث ثورة في المشهد بأكمله في آسيا والشرق الأقصى.

جلبت الحرب العالمية الثانية، حتى أكثر من الأولى، إزاحة للسلطة في العالم. فست سنوات من الحرب المريرة تركت البعض مُنهكين وفقراء وممزَّقين، في حين تركت آخرين متعالين في السلطة وربما أكثر ثراء وأكثر قلقًا

في طموحاتهم. وكانت السنوات العشرون التالية إلى حد كبير بمثابة إظهار لهذه الإزاحة. لكن الحرب العالمية الثانية تشبه إلى حد كبير الحرب الأولى في انحياز المشاركين فيها ونتائجها لإحداث، في المنظور التاريخي الأطول، تطورات كانت بمثابة تكثيف لاتجاهات قديمة بدلًا من نزعات حديثة. وقد خفَّضت كلتا الحربين من أهمية أوروبا ككل في العالم فضلًا عن تعزيز قوة وأهمية الولايات المتحدة وروسيا. كما شهدت الحربان تطورًا تدريجيًّا للتدمير العلمي في الحرب، وللمشاركة الوطنية الكاملة في الحرب، وللأساليب البربرية في الحرب. كما تضمنتا أيضًا نموًا مطردًا للوعي الذاتي الوطني ورغبة بالاستقلال بين شعوب آسيا وإفريقيا. ويمكن إدراك شكل الأمور التي ستحدث في الستينات ليس فقط من أحداث العقد ١٩٣٩-١٩٤٩ وإنما من الاتجاهات في كل تاريخ العالم منذ عام ١٩١٤.

٦

العالم الحديث

١٩٤٥- ١٩٦٨

١- الاقتصاد العالمي:

بحلول الستينات كان عدد البشر يتزايد بمعدل يزيد عن مليون شخص في الأسبوع، أو أكثر من مائة في الدقيقة. لم يكن لهذه الحقيقة المحورية حول تاريخ العالم صلة مباشرة بالحرب العالمية الثانية. إن الانفجار السكاني- الذي يمكن إرجاع أصوله في أوروبا والصين إلى أواخر القرن الثامن عشر- وصل ببساطة إلى هذه الأبعاد الهائلة في منتصف القرن العشرين[٤١]. حتى بدون الدمار والتفكك الذي خلفته الحرب العالمية، كان من الممكن أن يكون هناك ضغط كبير على الموارد العالمية مع حلول منصف القرن. في عام ١٩٣٧ أشارت عصبة الأمم إلى أن نصف البشرية على الأقل يعانون من سوء التغذية. وخلال العقد التالي ازداد عدد سكان العالم حوالي ١٧٥ مليون نسمة، وتسارع معدل النمو مع مرور القرن. وبلغت الزيادة ٢٣ بالمائة في الربع الأول، ثم ارتفعت إلى ٣١ بالمائة في الربع الثاني. وبحلول عام ١٩٦٠

٤١ انظر أعلاه، الفصل ١، ٣.

تجاوز عدد سكان العالم ٣,٠٠٠ مليون نسمة. وقد كان إجمالي عدد سكان العالم في عام ١٩٣٠ يزيد قليلًا عن ٢,٠٠٠ مليون. كان من الواضح أن المبادئ المالثوسية كانت فعالة: فقد تضاعف عدد الناس بشكل أسرع من قدرتهم على إطعام أنفسهم.

على الرغم من أن الزيادة الإجمالية كانت أكبر في آسيا وإفريقيا، بما في ذلك مناطق مثل إندونيسيا وشمال إفريقيا، إلا أن الزيادة النسبية كانت مذهلة في بعض الدول الغربية. فقد كانت الزيادة سريعة في فرنسا حيث ارتفع معدل الولادات وانخفض معدل الوفيات في نفس الوقت بعد أجيال من نمو بطيء جدًّا، واسع النطاق في ألمانيا الغربية حيث جاء جزء كبير منه بسبب الهجرة من ألمانيا الشرقية، والتاريخي في هولندا التي أصبحت (بكثافة سكانية مع ٩٠٠ نسمة في كل ميل مربع) البلد الأكثر كثافة سكانية في العالم، والأكثر إثارة للدهشة من ذلك كله هو ما حدث في الولايات المتحدة، حيث كان معدل الزيادة ينافس حتى معدل الزيادة في الهند. إن النمو السكاني في مرحلة ما قبل الحرب في أكثر البلدان تقدمًا اقتصاديًّا في العالم يكذب الفكرة السائدة بأن مستوى المعيشة المرتفع يشجع على تخفيض معدلات الولادات. كذلك فإن الدول التي تتغذى جيدًا لديها عائلات أكبر. ومن ناحية أخرى فإن بعض الدول، ولا سيما الهند والصين واليابان، قد قبلت بوجهة النظر القائلة بأنه كي ترفع مستوى المعيشة من الضروري أن تتحقق من معدل

النمو السكاني. لقد تبنوا سياسات تشجع على تحديد النسل، لكنها لم تكن ناجحة جدًّا. ولم تكن سياسة التوفيق بين أفضل تحديد للوفيات والمزيد من تحديد الولادات مفضلة على نطاق واسع، على الرغم من التذكير المستمر بأن التهديد بالمجاعة كان احتمالا لا يقل واقعية، وإن كان أقل تقديرًا على نطاق واسع من احتمال الدمار النووي في الحرب. بين العامين ١٩٤٧ و١٩٥٣ ازداد الإنتاج العالمي للغذاء بمعدل حوالي ٨ بالمائة. في نفس هذه السنوات، ازداد عدد الأفواه التي يجب إطعامها بنسبة ١١ بالمائة.

في عام ١٩٥٠ حسبت منظمة الأغذية والزراعة أن إنتاج الغذاء (باستثناء الأسماك) يوزع في العالم على النحو التالي، في حين أن عدد السكان كان يتوزع كما في العمود الثاني:

المنطقة	معدل إنتاج الغذاء	نسبة السكان
الشرق الأقصى	٣٢,٠	٥٤,٥
أوروبا	٢٣,٥	١٨,٠
الشرق الأدنى	٤,٤	٥,٥
إفريقيا	٤,٧	٧,٠
أميركا اللاتينية	١٠,٠	٧,٠
الولايات المتحدة وكندا	٢٢,٦	٧,٥
أوقيانوسيا	٢,٨	٠,٥
	١٠٠,٠	١٠٠,٠

وهكذا فإن النصف الأكبر من البشرية، الذي عاش في الشرق الأقصى، أنتج أقل من ثلث الغذاء العالمي: في حين أن أميركا الشمالية، التي لا يوجد فيها سوى ٧,٥ بالمائة من أفواه العالم التي يجب إطعامها، أنتجت أكثر من خمس الغذاء العالمي. هذه هي الخلفية الاقتصادية للهيمنة الدولية للولايات المتحدة. بينما آسيا، التي كان لديها في عام ١٩٦٠، ٥٦ بالمائة من البشر لإطعامهم، كانت أيضًا تسبب ما لا يقل عن النصف الزيادة السنوية في عدد السكان في العالم.

كان التعاون الدولي أمرًا لا غنى عنه للتصدي لمثل هذه المشاكل. وكذلك أيضًا فإن الاتجاه العالمي نحو التضخم ترجع جذوره إلى الظروف الاقتصادية العامة الخارجة عن سيطرة أي حكومة بمفردها. في عام ١٩٤٨ قدم التقرير الاقتصادي للأمم المتحدة تحليلًا لأسباب هذا الاتجاه التضخمي:

في معظم البلدان، يمكن أن تُعزَى الضغوط التضخمية من إحدى النواحي إلى ضغط الطلب الناجم عن عجز الموازنة، أو ارتفاع صافي الصادرات، أو ارتفاع معدلات الاستثمار الخاص، أو الإنفاق من الأصول السائلة المتراكمة، ومن ناحية أخرى تُعزَى إلى قلة الإمدادات من السلع الاستهلاكية. وقد أدى هذا الوضع إلى ارتفاع في الأسعار الذي نزع إلى ضبط الطلب على السلع الاستهلاكية من خلال زيادة الأرباح إلى درجة تصبح فيها المدخرات الناتجة عن هذه الأرباح كافية لتمويل العجز الاستثماري والحكومي المتزايد. في هذه

العملية تنخفض الحصة النسبية للأجور في الدخل القومي وتميل ضروريات الحياة للتوزيع بشكل غير عادل أبدًا. والجهود الناجمة عن ذلك التي يبذلها العمال لمنع تدهور أوضاعهم بسبب زيادة الأجور تحبطها الزيادات اللاحقة للأسعار، وبالتالي تتطور دوامة التضخم[٤٢].

ومع ذلك يمكن للحكومات تدارك التوزيع غير العادل للضروريات بواسطة جميع أجهزة "دولة الرفاهية"، من خلال الإعانات الغذائية، كما هو الحال في بريطانيا، ومن خلال نظام البدلات العائلية السخية، كما في فرنسا، ومن خلال الضرائب المتدرجة وتوفير الخدمات الاجتماعية "حسب الحاجة"، كما هو الحال في معظم بلدان منتصف القرن العشرين. لكن لأن الكثير من غذائها الضروري وموادها الخام قد جاء من الولايات المتحدة وكندا، وجدت بلدان منطقة الجنيه الإسترليني نفسها في مواجهة عجز كبير للدولار وتوازن عكسي للمدفوعات (كانت منطقة الجنيه الإسترليني تشمل جميع دول الكومنولث ما عدا كندا، وتضم نحو ٥٤٠ مليون نسمة). فرنسا وإيطاليا أيضًا وجدتا أنه من الصعب خلال الخمسينات تجنب ميزان المدفوعات العكسي. كانت بلدان أوروبا، تعتمد في ازدهارها على التجارة الدولية. لذلك فإن توزيع التجارة الدولية بسبب الحرب، والتقسيم بعد الحرب، ضرب أوروبا بشكل خاص بشدة. لقد ساهمت في التقلص النسبي

٤٢ "السمات البارزة في الوضع الاقتصادي العالمي"، ١٩٤٥,١٩٤٧: التقرير الاقتصادي، إدارة الشؤون الاقتصادية، الأمم المتحدة، يناير ١٩٤٨: ص. ٢٤-٥'.

لمكانة أوروبا في العالم. هنا أيضًا، كان هناك إزاحة للقوة.

قبل عام ١٩٣٩ كانت الدول الصناعية في أوروبا الغربية، بما فيها ألمانيا، تنتج ما يقارب نصف الإنتاج الصناعي في العالم، وكان جزء كبير من تجارتهم مع أوروبا الشرقية مقابل المواد الغذائية والمواد الخام. وهكذا فإن أوروبا الغربية في عام ١٩٣٥، بمعزل عن المملكة المتحدة، اجتذبت ٥٨ بالمائة من وارداتها من أوروبا الشرقية التي أخذت ٦٩ بالمائة من صادراتها. كانت أوروبا الشرقية تعتمد بشكل كبير في كل من وارداتها الصناعية وأسواقها على ألمانيا والمملكة المتحدة بشكل خاص. ومباشرة بعد الحرب تاجرت البلدان الشرقية أكثر بكثير مع الاتحاد السوفيتي، على الرغم من أنه خلال بضعة سنوات تم إحياء علاقاتهم التجارية مع أوروبا الغربية. في هذه الأثناء فقدت بلدان أوروبا الغربية الكثير من تجارتها مع آسيا وأميركا اللاتينية، وزادت تجارتها مع الولايات المتحدة. وهكذا فإن الانشقاق السياسي في أوروبا كان له نظيره في تبديل الاتجاه الاقتصادي، فقد تطلعت الدول الشرقية أكثر باتجاه الشرق، كما تطلعت الدول الغربية أكثر باتجاه الغرب.

اتخذت التجارة العالمية بشكل عام اتجاهات جديدة، ففي كل من أميركا اللاتينية وآسيا أعاقت الصعوبات السياسية العلاقات التجارية السلسة. وأقامت أميركا اللاتينية، التي توقفت تجارتها مع أوروبا خلال السنوات الأولى للحرب، علاقات تجارية جديدة مع الولايات المتحدة حتى في عام

١٩٤٥ كانت تأخذ ٣٩ بالمائة من صادرات الولايات المتحدة وترسل نصف صادراتها الخاصة إلى الولايات المتحدة. وبالمثل بعد أن قطعت إمدادات الأرز من آسيا، قامت بزيادة إنتاجها الخاص بحيث أصبح لديها الآن فائض للتصدير. وبشكل عام، لم تعد أوروبا مركز التبادل الواسع المتعدد الجوانب للسلع والخدمات الذي كانت عليه ما بين الحربين. تأثرت العلاقات الأوروبية مع إفريقيا بشكل مختلف بسبب الحرب. فقد استفادت العديد من الأقاليم الإفريقية من الطلب العالمي المتزايد على منتجاتها. ازدهرت الكونغو وروديسيا الشمالية مع الطلب على المعادن غير الحديدية، وكاد اتحاد جنوب إفريقيا أن يسدد ديونه الخارجية، وأعطاه احتياطه من الذهب الأفضلية والقوة في التجارة العالمية. لكن إفريقيا ككل عانت، مثل معظم بقية العالم، من الاتجاهات التضخمية، وتفاقمت الصعوبات الناجمة عن ذلك بسبب ضعف المحاصيل ونقص في المعدات الأساسية.

على الرغم من كل هذه الانقسامات والصعوبات، أصبح العالم ككل أكثر ثراء من أي وقت مضى، وتقاسمت معظم البلدان هذه الثروة العظيمة. بحلول عام ١٩٤٨ – السنة الثالثة للسلام فقط – اقتربت معظم دول أوروبا الغربية أو أنها حتى تجاوزت مستويات إنتاجها ودخلها ما قبل الحرب. كان مفهوم "النمو الاقتصادي" السريع الذي يخلق "مجتمعًا أكثر ثراء" هدفًا مقبولًا على نطاق واسع. كان المعدل الفعلي للنمو الاقتصادي غير متساوٍ

سواء في المكان أو الزمان. ففي المملكة المتحدة خلال الخمسينات كان هذا معدل النمو بمقدار ثلث معدل النمو في ألمانيا الغربية، ونصف معدل النمو في فرنسا. لكنه استمر في المجمل، على الرغم من حالات الركود المؤقت كما حدث في العامين ١٩٥٧-١٩٥٨. وأصبح الإنتاج القومي الكبير لمعظم الدول أكبر عقدًا بعد عقد، إن لم نقل عامًا بعد عام. وظلت أرقام البطالة في أوروبا منخفضة، بينما ارتفعت مستويات المعيشة، لكن التضخم أدى إلى انخفاض مستويات معيشة أولئك الذين يعتمدون على دخل ثابت. وكانت الثورة الصناعية الفعلية في الستينات في الاستخدام المتزايد لأجهزة الكومبيوتر في الإنتاج- الثورة التي ميزت بسرعة الدول "المتقدمة" القليلة نسبيًّا عن بقية الدول. في الوقت نفسه نشرت آلية دولة الرفاهية كل من الثروة والرخاء على نطاق واسع في المجتمع، وكمساعدة للدول المتخلفة، حملت وكالات الأمم المتحدة لتعزيز الصحة ومعايير العمل والتعليم وما شابه ذلك، أفكار وإنجازات دولة الرفاهية إلى العالم الأوسع.

٢- انتشار الرفاهية:

إن فكرة استخدام جميع الموارد المادية والمهارات في التنظيم من أجل تحقيق أوسع انتشار ممكن للرخاء كانت مفهومًا نشأ في أوروبا الغربية: وانتشر جنبًا إلى جنب مع المثل العليا للديمقراطية. وفي منتصف القرن العشرين تغلغل هذا المفهوم في الشؤون العالمية. ومن خلال تطبيقات العلوم والتكنولوجية

والتخصصات التنظيمية الغربية، أصبحت الكثير من المحن التي عاشتها البشرية على مر العصور أمراضًا يمكن علاجها، مثل: الأوبئة، والمجاعات، والفقر المدقع والبؤس، والجهل والموت المبكر.

في غضون مائة عام أضاف الإنسان الغربي جيلًا كاملًا على متوسط طول حياته. وأصبح الآن يساعد في نشر هذه النعم إلى المناطق الأقل حظًا. لقد جذبت الإنجازات الرائعة للحضارة الغربية تقديرًا عالميًّا، بالإضافة إلى استياء واسع النطاق من عادات الأوروبيين المهلكة وسلوكهم تجاه الشعوب غير البيضاء.

إلى جانب هذا التقدم المادي الكبير نما أيضًا مفهوم أوسع وأقوى للعدالة الإنسانية. داخل الدول الغربية كانت فعاليات دولة الرفاهية تحقق توزيعًا أكثر عدلًا لضروريات الحياة بين شعوبها ككل. على الرغم أنه لا يزال هناك الكثير يجب فعله، فلا يمكن إنكار أن التعليم العام ومعاشات التقاعد لكبار السن، والضمان الاجتماعي، ومخططات للعمالة الكاملة، والخدمات الصحية وأنظمة إعادة توزيع الضرائب، جعلت الحياة الأطول أكثر قيمة بالنسبة لجموع الأوروبيين.

إن نشر مثل ومواقف مشابهة إلى الشعوب عبر البحار جاء جزئيًا من خلال السياسات المتغيرة للقوى الاستعمارية نفسها. فقد تخلصت الإمبريالية الاستعمارية من صفاتها الأكثر قسوة واستغلالًا. كانت هناك دوافع حقيقية

لدى معظم الإداريين الاستعماريين والمستوطنين لإيجاد مبادئ للوصاية وتجارب في حكم ذاتي أكبر، حتى في الشراكة العنصرية، قاعدة جديدة للعلاقات بين بلدان العالم المتقدمة والمتخلفة. لم تكن هذه المبادئ مدمجة في ميثاق الأمم المتحدة الذي انضمت إليه معظم دول العالم وحسب، بل إن القوى الاستعمارية الرائدة طبقتها على حكومة أقاليمها عبر البحار التي لم تكن خاضعة رسميًّا لوصاية الأمم المتحدة. ولا يعود تاريخ قوانين الرفاهية والتنمية الاستعمارية إلى عام ١٩٤٥ فقط، بل إلى ١٩٢٩ و١٩٤٠.

لكن القوتين المهيمنتين في العالم، لأسباب متناقضة، كانتا معاديتين بنفس القدر لأي شكل من أشكال الحكم الاستعماري. وكما هو الحال في العلاقات الدولية الأوسع، فإن المواقف قد وُرثت من سياسة ملونة قديمة أبعد. كانت الولايات المتحدة تعتز بتقليد مناهضة الاستعمار المستمد من أصولها الخاصة. كما أيد الاتحاد السوفيتي مطالبات الشعوب المستعمرة بالاستقلال باسم النظريات الماركسية- اللينينية للإمبريالية الرأسمالية، ووجد أن الصراعات الاستعمارية هي مصدر غني للمزايا التكتيكية في الحرب الباردة. تتقاطع هذه المواقف في بعض الأحيان مع الصراع الإيديولوجي الطبيعي. وهكذا فإن الصراع الفرنسي الطويل في الهند الصينية بين عامي ١٩٤٦ و١٩٥٤ كان محكومًا عليه في الولايات المتحدة باعتباره حرب الهيمنة الإمبريالية حتى، مع الانتصار الشيوعي في الصين، فقد تم التعامل معه على أنه قطاع حيوي

من الصراع العالمي مع الشيوعية المسلحة، وحلت الولايات المتحدة محل فرنسا باعتبارها خصم الفيتكونغ. وعلى نحو مماثل أدى الانهيار في الكونغو عام ١٩٦٠، والذي أعقب انسحاب بلجيكا المفاجئ من المسؤولية، على تعقيدات دولية بالغة التعقيد والخطورة، وذلك لأن الزعماء الكونغوليين حصلوا على الدعم من أطراف مختلفة في الصراع الأكبر.

من نواحي أخرى كانت إطالة مدة الحرب الباردة في حد ذاتها حافزًا لمنح المعونة وراس المال إلى البلدان المتخلفة. وكان القادة الأذكياء في الدول الأحدث سِنًّا قادرين على عقد صفقات مفيدة، والتغلب على المخاوف الأميركية في وجه الطموحات السوفيتية، ونيل المساعدة من كلا الجانبين. سنتناول أدناه الاضطرابات العالمية الناجمة عن "الثورة الاستعمارية": لكن السرعة والسهولة التي حصل بها العديد من الشعوب المستعمرة السابقة (خاصة في إفريقيا) على استقلالهم الوطني، فضلًا عن التوترات التي تراكمت في نقاط قليلة (مثل الكونغو والجزائر) حيث تمت مقاومة هذا الهدف، هي نقاط تفاعل على نفس القدر من الأهمية بين الانقسام العالمي والثورة الاستعمارية.

كان المطلب الشعبي بتوزيع أوسع للثروة والرخاء ساحقًا لدرجة أن كل أنواع الدول، سواء كانت ديمقراطية أو ديكتاتورية، اشتراكية أو شيوعية أو عسكرية، كان عليها أن تلبي هذا المطلب لنبقى على قيد الحياة. فدولة

القرن العشرين يجب أن تكون دولة رفاهية وإلا سَتَهلك. في الديمقراطيات الغربية كان من الصحيح تقريبًا عالميًّا أنه ما من حزب سياسي بعد عام ١٩٤٥ تمكن من معارضة ضمان اجتماعي أكبر لجماهير المواطنين. وتفاخرت "الديمقراطيات الشعبية" الشيوعية في أوروبا الشرقية بتنفيذ الإصلاحات الزراعية وتقديم خدمات اجتماعية لغرض مماثل. وكذلك أيضًا، العديد من الدول المستقلة حديثًا حكمها اشتراكيون قوميون مثل باندیت نهرو في الهند أو الدكتور نكروما في غانا، اللذَيْن نفذا التخطيط الاقتصادي ومخططات الأشغال العامة، وتوسيع نطاق الخدمات الاجتماعية (وأبرزها التعليم والصحة العامة). كما تجسد الأحداث في بلدان أخرى هذا التعميم في مجموعة متنوعة من الحالات المختلفة.

في الأرجنتين أظهرت دكتاتورية الكولونيل خوان بيرون بين عامي ١٩٤٥ و١٩٥٥ التي كانت في حد ذاتها امتدادًا لعمله كوزير للعمل والرعاية الاجتماعية بعد الانقلاب العسكري في يونيو ١٩٤٣ كيف يمكن للفوائد الاجتماعية أن تصبح حقًّا في نظام استبدادي للغاية. ففي كوبا شكلت قوة الدكتور فيديل كاسترو، البطل اللامع للشعوب الملونة في احتجاجهم ضد كل من الرأسمالية والاستعمار، مشاكل معقدة لدبلوماسية الولايات المتحدة. كان الرئيس عبد الناصر في مصر يمثل مزيجًا من السلطة الشخصية (القائمة في أساسها وجوهرها على قوة عسكرية)، وشعبية قائمة على أساس المشاعر

القومية ضد القوى الاستعمارية، حول برنامج محلي للتنمية الاقتصادية والإصلاح الاجتماعي الذي هم في أمس الحاجة إليه، وحول المطالبة لقيادة العالم العربي. يبدو أن النفوذ الشخصي لعب دورًا كبيرًا في السياسات في الستينات. فالظروف التي جلبت الجنرال ديغول إلى السلطة في فرنسا في عام ١٩٥٨ كانت اقترانًا بين الجمود العسكري والسياسي الناجم عن حرب الجزائر، والانقلاب العسكري في الجزائر، واستعداد البرلمان والأحزاب والرأي العام على حد سواء للتخلي عن النظام البرلماني من أجل سلطة شخصية للنجاة من الضعف الوطني والحرب الأهلية.

كان المغزى من ذلك باختصار أن القيم الديمقراطية نادرًا ما تعطى الأولوية القصوى؛ لأن التقدم المادي، أو الأمن الاجتماعي، أو الاستقلال الوطني، أو المكانة الدولية، كانت تعطى قيمة أكبر من قبل معظم الناس من منع السلطة التعسفية، أو مثل الحرية الشخصية، أو الحكومة الدستورية أو التساهل السياسي. لقد أولى الكثير من الناس والأحزاب أهمية لهذه المثل الديمقراطية فقط بقدر ما تبدو أنها لا تتعارض مع أهداف الازدهار والأمن والقومية. وهكذا فإن الأهداف التي ولدت تاريخيًا من الحضارة الغربية أتت لتلتهم والديها. ولم تكتسب الحرية الشخصية دومًا من الحرية الوطنية.

٣- الثورة الاستعمارية:

تعود الصحوة الاستعمارية في أشكالها الأولى على الأقل إلى التمرد الهندي

عام ١٨٥٧. ويعود تاريخها بشكل مستمر من تمرد بوكسر في الصين في عام ١٩٠٠ وانتصار اليابان على روسيا عام ١٩٠٥. ووصلت إلى ذروتها بالفتوحات اليابانية في آسيا والمحيط الهادئ في الحرب العالمية الثانية. وتم الإعلان عن تحرير آسيا من العرق الأبيض بصوت عالٍ وكانوا على مسافة قريبة من تحقيقه. فرنسا، وبريطانيا، وهولندا وحتى الولايات المتحدة جميعها تكبدت هزائم قاسية على يد اليابانيين. أما الأراضي الاستعمارية التابعة لهم، والتي كانت تتقدم في بعض النواحي على طريق تحقيق قدر أكبر من الحكم الذاتي والاستقلال الوطني، فقد اجتاحها اليابانيون، أو (كما هو الحال في الهند الصينية) ظلت موالية بالتهديد فقط. كان جَوُّ وجهة النظر في نهاية الحرب مثاليًا، مما شجع المثل العالمية للتحرر من العوز ومن الخوف، والمساواة العرقية والقومية الكاملة. لقد ضعفت القوى الإمبريالية أيضًا بسبب المجهود الحربي والانهماك بعد الحرب في الداخل لمقاومة المطالب المتزايدة للشعوب المستعمرة بالاستقلال والحكم الذاتي: ولم تكن هناك في معظمها الإرادة للمقاومة القوية بأي حال من الأحوال. وكان كل شيء يفضل التحرر الاستعماري.

في هذه المرحلة وهذا الجو أصبحت أجزاء كبيرة من الإمبراطوريات البريطانية والهولندية والأميركية السابقة دول ذات سيادة منفصلة في الأربعينات: وحصلت كل من بورما، وسيلان، والهند، والباكستان،

وإندونيسيا، والفلبين على استقلالها في عام ١٩٥٠.وفي بعض الحالات جاء الانفصال بسلاسة وبدون إراقة الدماء: وجاء في حالات أخرى، خاصة في إندونيسيا، فقط بعد صراع. وعلى نحو مماثل في الهند الصينية صمد الفرنسيون حتى هزيمتهم في الحرب في عام ١٩٥٤ تاركين المناطق الشمالية من تونكين وأنام تحت الحكم الشيوعي. وفي مالايا، حظي القوميون الإندونيسيون والهند الصينيون بدعم من الشيوعيين، كحلفاء في حرب مشتركة ضد الإمبريالية والرأسمالية. في الصين، حيث تغذت القومية منذ وقت طويل على كراهية اليابانيين والغزاة الغربيين، استولت الشيوعية بالكامل على القضية الوطنية في عام ١٩٤٩، عندما أنشأ الشيوعيون بقيادة ماو تسي تونغ وشو اين لاي مجلس الشعب الصيني. وطرد شيانغ كاي شيك، زعيم حزب الكومينتانغ القديم من اليابسة إلى جزيرة فورموزا حيث نجا بمساعدة الولايات المتحدة.

في هذه الأثناء في الشرق الأدنى، أصبحت الأردن وإسرائيل أيضًا دولتين منفصلتين: وفي إفريقيا مرت المستعمرات البريطانية بمراحل مختلفة من التقدم نحو قدر أكبر من الحكم الذاتي. وخلال عقد الخمسينات كانت عملية تصفية جميع الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة تقريبًا تجري على قدم وساق. ففي عام ١٩٥٠ كان لكل مستعمرة بريطانية باستثناء الصومال البريطانية مجلس تشريع محلي، بعضها منتخب بالكامل والبعض الآخر يعين

جزئيًا. إلى هذه الهيئات، وإلى الحكومات التي أصبحت مسؤولة عنها بشكل متزايد، تم تفويض المزيد والمزيد من السلطات. وأصبحت منطقة جولد كوست مع توغولاند في عام ١٩٥٧ غانا المستقلة. وتبعتها نيجيريا في عام ١٩٦٠، وتانغانيكا في عام ١٩٦١، وأوغندا في عام ١٩٦٢، وأصبحت جنوب وشمال روديسيا ونياسالاند فيديرالية في عام ١٩٥٣. وفي كينيا، كما هو الحال في قبرص، ميز العنف والإرهاب الحركات نحو الاستقلال. في عام ١٩٥٨ أدى الدستور الجديد للجمهورية الخامسة، الذي رعاه الجنرال ديغول، إلى تحويل الاتحاد الفرنسي القديم لعام ١٩٤٦ إلى "مجتمع" جديد حيث يمكن لأقاليم ما وراء البحار أن تختار الاستقلال. فقط غينيا الفرنسية اختارت ذلك في عام ١٩٥٨، لكن بعد سنتين قام ديغول بإصلاح "المجتمع" مرة أخرى بمعنى حكم ذاتي استعماري حقيقي والارتباط الحر. كان منح بلجيكا الاستقلال إلى الكونغو مفاجئًا وغير مجهز له بحيث أعقبته حرب أهلية طويلة الأمد، وأصبحت قوات الأمم المتحدة المرسلة إلى هناك للمحافظة على السلام متورطة في السياسة الكونغولية والفتنة الداخلية. بشكل عام كانت القومية الإفريقية تميل نحو الاشتراكية أكثر من الشيوعية، ولم يكن الكونغريس الوطني الإفريقي بأي حال من الأحوال هيئة ماركسية. لكن كما هو الحال في الجزائر والكونغو، حيث كان بوسع الاتحاد السوفيتي أو الصين أن يقدم الاعتراف والمساعدة للحركات القومية المتمردة، كان

النضال الاستعماري محصورًا بالانقسام العالمي.

وكما بطرق أخرى، أصبح من الصعب الحفاظ على التمييز المألوف بين الشؤون الداخلية والدولية. فوجد الهولنديون في إندونيسيا، والبريطانيون في مالا وكينيا، والفرنسيون في الهند الصينية والجزائر، ولاحقًا الأميركيون في فيتنام، أنفسهم متورطين في "حرب ثورية": حرب بلا خطوط أمامية أو معارك ضارية، حرب الكمائن والإرهاب، منفذة باستخدام تكتيكات حرب العصابات من قِبَلِ عدو لا يرحم يعمل في السكان المدنيين ومن خلالهم. في حرب كهذه، يكون عنصر الوقت دائمًا تقريبًا إلى جانب الثوار، ونادرًا ما تكون الهزيمة حاسمة، كما أن هناك كل الإغراءات للجوء إلى أساليب مقيتة للديمقراطية، ومثل استمرار الحرب نفسها، هي عرضة لتوليد أوضاع ثورية داخل القوة المتحاربة. هذه النوع من الحرب، الملائم جدًّا للحركات الثورية في فترة ما بعد الحرب، ينزع إلى إعطاء القيادة للمتطرفين الأكثر شجاعة، وتشويه سمعة المعتدلين، والتسبب في معاناة طويلة للسكان المدنيين. لقد وضع ماو تسي تونغ نظرية حول هذا الأمر، وأتقنها خلال الحرب الصينية الطويلة ضد اليابان. وقد تمت دراستها وتقليدها وتطويرها في الهند الصينية والجزائر. إنها تطور مميز في تاريخ العالم بعد عام ١٩٤٥ تدمج الحرب والثورة، والأحداث الداخلية والخارجية في ظاهرة واحدة مستمرة. كما لم تكن نتيجة ثانوية للحرب الباردة، إذ شرحها ماو قبل ذلك بعشرين عامًا.

لكن انتشارها في هذه السنوات تفاعل مع الحرب الباردة، وأضفى على الحروب الاستعمارية في تلك الفترة ضراوتها الخاصة.

ضمن الصورة الكاملة للثورة الاستعمارية في إفريقيا هناك ثلاثة استثناءات ذات أهمية خاصة: الأحداث في اتحاد جنوب إفريقيا، وفي المستعمرات البرتغالية في أنغولا وموزمبيق، وفي روديسيا. كانت حكومة جنوب إفريقيا منذ عام ١٩٤٨ في يد الحزب القومي بقيادة الدكتور مالان أولًا ثم السيد ستريجدوم، والدكتور فيرورد والسيد فورستر. ومع كل زعيم متعاقب اتبعت بلا هوادة سياسة التمييز العنصري أو الفصل العنصري، والانفصال عن بريطانيا. مرة أخرى إرث من الماضي البعيد- وفي هذه الحالة حرب بوير- أثقل كاهل الحاضر. ومع التحول بشكل متزايد إلى دولة بوليسية في ظل ضرورة فرض سياسات فصل جذرية ومراقبة المطبوعات، أصبح الاتحاد قلعة للتفوق الأبيض المتشدد في قارة تعج بالمشاعر القومية والعنصرية العنيفة. وفي عام ١٩٦١ أصبح جمهورية وترك الكومنولث. وعلى نحو مشابه واجهت البرتغال في عهد الدكتور سالازار حركات الاحتجاج بين سكانها الأصليين التابعين، فسحقتهم بقسوة أثارت انتقادات عالمية. جنبًا إلى جنب مع إحياء حركات ماو ماو بين الكيكويو في كينيا وأعمال الشغب القبلية في روديسيا ونيسالاند والوضع المعقد في الكونغو برمته، تسببت هذه الأحداث بحَومِ سحابةٍ من العداء العنصري فوق صراعات

عالمية أخرى. ثالثًا أعلنت روديسيا الجنوبية، برئاسة السيد إيان سميث في نوفمبر ١٩٦٥، استقلالها عن بريطانيا. وادَّعى أنه يمثل ٢١٩,٠٠٠ مستوطن أبيض، ورفض قبول السيطرة المطلقة لأربعة ملايين إفريقي أسود في البلاد. ولم تكن العقوبات الاقتصادية، التي كانت لا تزال سارية في عام ١٩٦٨، فعالة في الإطاحة بنظامه على الرغم من الدعم الذي حظيت به من أكثر من ٧٠ عضوًا في الأمم المتحدة.

كان التأثير التراكمي على الشؤون العالمية لعدد كبير جدًّا من الشعوب التي نالت استقلالها السياسي بمثابة تحول بارز. عندما تأسست الأمم المتحدة في عام ١٩٤٥ كانت تضم ٥١ دولةً عضوًا. وبحلول عام ١٩٦٨ أصبحت ١٢٣ دولة عضوًا، ثلثاها "غير مرتبط" إما بالاتحاد السوفيتي أو الكتلة الغربية. كانت الغالبية العظمى للوافدين الجدد إما دول آسيوية أو إفريقية نالت استقلالها مؤخرًا، وعلى الرغم من الانقسامات الداخلية المتنوعة والتجمعات كانت تميل لاتخاذ موقف واحد عندما يتعلق الأمر بقضايا العنصرية أو الاستعمار. وهكذا عندما ردَّت فرنسا بالعنف على تهديدات تونس للقاعدة البحرية الفرنسية في بنزرت عام ١٩٦١، طرح النزاع في جلسة خاصة أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، لم يصوت أي عضو لصالح فرنسا، على الرغم من أن العديد تمنعوا عن التصويت بدلًا من التصويت ضدها.

في البداية شكلت الدول الأفرو-الآسيوية كتلة خاصة بها في عام ١٩٥٥، عندما رعى رؤساء وزراء الهند، والباكستان، وسيلان، وبورما، وإندونيسيا مؤتمرًا في باندونج حضرته أكثر من عشرين دولة غير أوروبية أخرى بما فيها الصين الشيوعية واليابان. وعلى الرغم من أن الصين لعبت دورًا بارزًا في باندونج، إلا أن ممثلين آخرين أدانوا بدورهم الاستعمار والشيوعية. ولم يتوصل المؤتمر إلى نتائج واضحة، لكنه كان بمثابة قَشَّةٍ في مهب الريح. كان الحضور ضمن الأمم المتحدة بنسبة كبيرة جدًّا من المتحدثين غير الأوروبيين الذين يميلون للوقوف جنبًا إلى جنب فيما يتعلق بالقضايا التي تؤثر على المشاكل الأفرو-آسيوية فشكلوا إجماعًا في الرأي لم يتمكن أي من الطرفين في الحرب الباردة من تجاهله.

مع أواخر الخمسينات ظهرت مجموعة ثانية متداخلة جزئيًا مع الأفرو-آسيويين أو ما يسمى بدول "عدم الانحياز" أو "غير الملتزمة". في أيلول عام ١٩٦١ في بلغراد، ناقش حوالي عشرين منهم المشاكل العالمية. وكان من بين الممثلين زعماء جميع الدول المحايدة الأكثر أهمية- رؤساء الهند ومصر وغانا وتونس، بالإضافة إلى رؤساء يوغسلافيا وبعض دول أميركا اللاتينية. اجتمعوا في وقت ينمو فيه التوتر بين الشرق والغرب حول برلين، عندما تحدى الاتحاد السوفيتي مؤخرًا بنية منظمة الأمم المتحدة واستأنف تجاربه النووية بعد تعليقها لمدة ثلاث سنوات، وأعرب المتحدثون باسم الدول غير

الملتزمة عن ولائهم للأمم المتحدة وحرصهم على تخفيف حدة التوترات الدولية. حتى إنهم لاحظوا انقسامًا في العالم بين الشمال والجنوب، وبين الدول الغنية والفقيرة، متجاوزًا المنافسات بين الشرق والغرب بين الدول الغنية والقوية.

ومع ذلك، خلال الستينات، دار المشهد المتغير لشؤون العالم مرة أخرى. فقد تراجعت أهمية الحرب الباردة عندما قام الاتحاد السوفيتي، في مواجهته للتنافس الصيني، ببعض التقارب مع القوى الغربية. وفقدت التجمعات الجديدة، الأفرو-آسيوية ودول عدم الانحياز على حد سواء، تماسكها بسبب اشتعال خلافات ونزاعات على المصالح بين أعضائها. وفشلت محاولات من أجل عقد مؤتمر "باندونج ثاني"، كما انحلت المنظمة الجديدة للاتحاد الإفريقي لعام ١٩٦٣ في عام ١٩٦٥، ولم تتمكن الهند من الحفاظ على موقف عدم الانحياز عندما تعرضت لهجوم من الصين في لحرب مع زميلتها العضو في الكومنولث، الباكستان. وفي جنوب شرق آسيا، بالإضافة إلى الحرب مع فيتنام، استمرت "المواجهة" بين إندونيسيا وماليزيا. ولم تحتفظ شؤون العالم لفترة طويلة بالانقسام الصارخ للحرب الباردة، واكتسبت الصراعات والعداءات الوطنية الصدارة على جميع الانحيازات الجغرافية والإيديولوجية وحتى العرقية. وجاء الانزياح الأكثر دراماتيكية للقوة في العالم من حرب الأيام الستة (من٥-١٠ يونيو عام ١٩٦٧) التي دمرت خلالها إسرائيل

الجيوش العربية وهددت بقاءها. وقد وضع تشويه سمعة الدول العربية واستيلاء إسرائيل على مناطق واسعة الاتحاد السوفيتي والصين مؤقتًا في نفس المعسكر المؤيد للعرب. وبحلول عام ١٩٦٨ كان المشهد الدبلوماسي العالم يتسم بمرونة كبيرة.

لقد تعزز هذا الانطباع بالمرونة بضبط نفس كبير داخل الكتلتين الشرقية والغربية نفسها. فلم تكن بكين الآن قوة تعويض كبيرة لموسكو فحسب، وتتحدى بنجاح الاحتكار السابق للكرملن في تحديد العقيدة الماركسية، بل وجدت دول أوروبا الشرقية نفسها قادرة على عصيان الأوامر السوفيتية بشكل فعال. وتقلصت السيطرة السوفيتية تدريجيًا على كلٍّ من بولندا ورومانيا، وفي صيف ١٩٦٨ تحدتها تشيكوسلوفاكيا علنًا. وتمكنت حكومة السيد دوبتشك لبعض الوقت من تحرير النظام ومقاومة كل من التنمر العسكري للاتحاد السوفيتي والضغط الدبلوماسي المنسق لحكومات حلف وارسو. كما أدى الغزو السوفيتي لتشيكوسلوفاكيا في أغسطس ١٩٦٨ إلى إعادة إحياء المخاوف من الحرب الباردة. وفي الغرب أدت الخلافات العنيفة التي أثارتها الحرب في فيتنام إلى تحطيم الوحدة السياسية. ففرنسا الديغولية، وباستمتاع صريح، أكدت استقلالها التام عن "الأنجلو سكسونيين"، وفي أعمال الشغب والإضرابات في باريس في مايو ١٩٦٨، كشفت عن اتفاق جماعي في الرأي وثيق بين الديغولية والشيوعية أكثر مما تفرضه المبادئ

والاحتجاجات من كلا الجانبين. ولا يمكن لأي نمط بسيط من العلاقات المتبادلة حول الشؤون العالمية أن يرسم أو يفرض على الأحداث السريعة الحركة. وليس من المستغرب أن يعكس تطور المنظمات العالمية هذه التعقيدات.

٤- المنظمات العالمية:

بحلول عام ١٩٤٩ أصبح من الواضح أنه لم يعد هناك انسجام تلقائي للهدف بين الاتحاد السوفيتي والغرب: ولم يتم استبدال التحالف المؤقت من أجل الحرب بتحالف دائم من أجل السلام، وإنما بالخوف الشديد المتبادل وانعدام الثقة، مما أدى إلى الشك فيما إذا كان التعايش السلمي بين معسكرين مسلحين أمرًا ممكنًا. بهذا التغيير تبددت الآمال الكبيرة في جعل الأمم المتحدة منظمة عالمية مستمرة لمنع الحرب. ومع ذلك حافظت على بقائها كساحة متسعة للتعبير عن الرأي العالمي ولمناقشة مشاكل العالم.

كذلك لم تعد العلاقات الدولية إلى النموذج الذي كانت عليه قبل الحرب. إن تقسيم ألمانيا وأوروبا، واحتلال اليابان (رغم انضمامها إلى الأمم المتحدة في ديسمبر ١٩٥٦)، وظهور الصين، كان يعني ثورة في ميزان القوى العالمية. كما أدى ضغط الضروريات الاقتصادية إلى تشكيل روابط جديدة بين الولايات المتحدة، والكومنولث، ودول أوروبا الغربية. لقد اشترط ميثاق الأمم المتحدة على العمل المنفصل والتعاون الإقليمي. ونصت المادة

٥١ على أنه "ليس في هذا الميثاق الحالي ما يضعف الحق الطبيعي في الدفاع الفردي أو الجماعي عن النفس في حالة حدوث هجوم مسلح..." كما نصت المادة ٥٢ على أنه "ليس في هذا الميثاق الحالي ما يمنع وجود تدابير أو وكالات إقليمية للتعامل مع المسائل المتعلقة بالحفاظ على السلام الأمن الدوليين بما يتناسب مع العمل الإقليمي..." وكانت السمة الأكثر لفتًا للانتباه في المشهد العالمي في الستينات هي انتشار المنظمات المحلية أو الجماعية من هذا النوع.

لا يمكن للمنظمات الدولية العديدة أنه تكون جميعها مصنَّفة بدقة. لكن معظمها يقع في نمط له هدف إذا نظرنا إليها تحت ثلاثة فئات رئيسية: تلك المهتمة بالتعاون على نطاق عالمي خاصة مع خيوط الاقتصاد العالمي، وتلك المرتبطة بشكل مباشر مع تحالف القوى في "الحرب الباردة" وبالتالي فهي دفاعية في هدفها وإقليمية في إطارها، وتلك المهتمة بشكل خاص بمشاكل الدول المتخلفة سواء كانت دولية أو إقليمية في طابعها. إن النظر إلى المنظمات الدولية الرئيسية تحت هذه الفئات يعني النظر إليها بعلاقتها بالمشاكل العالمية الثلاث في النصف الثاني من القرن: الاستقرار، وإعادة صناعة اقتصاد عالمي، والتوترات بين الشرق والغرب والحرب الباردة، مع تهديدها بحرب نووية، ومشاكل البلدان المتخلفة سواء كانت عنصرية أو سياسية، والتهديد الأساسي بالمجاعة.

إن المؤسسات التي يحتمل أن تكون عالمية- الأمم المتحدة ووكالاتها

الوظيفية مثل منظمة الأغذية والزراعة ومنظمة الصحة العالمية- يعود تاريخها في الأغلب إلى السنوات الأولى بعد الحرب، عندما كانت آمال القوى المتوافقة لا تزال عالية بشكل معقول. ويظهر التفكك داخل الجمعية العامة بحلول عام ١٩٦٧ في التصويت الثامن عشر للجمعية في نوفمبر من نفس العام، على قبول جمهورية الصين الشعبية عضوًا في الأمم المتحدة. وجاء التصويت ٤٥ صوتًا مؤيد و٥٨ صوتًا ضد مع ١٧ امتناع عن التصويت. وبما أن عدد سكان الصين الشيوعية عندئذ كان حوالي ٨٢٥ مليون نسمة، وفجرت في شهر يونيو أول قنبلتها الهيدروجينية، فإن استبعادها يبطل الادعاء الأساسي للمنظمة والغرض منها.

بعيدًا عن الجمعية العامة ومجلس الأمن حيث أدت المآزق التي واجهتها القوى العظمى والزيادة السريعة في العضوية إلى تحويل الهيئات التي كان المقصود منها أن تكون وكالات للوساطة والتنسيق إلى ساحات للمناقشة ومناشدة الرأي العام العالمي، إن مثل هذه الهيئات كانت لديها في الغالب أهداف اجتماعية واقتصادية. لقد كانت إطارًا يدعم الارتباط الوثيق بين الدول حول مسائل مثل: الصحة، والإمدادات الغذائية، والنقل، والتقدم التقني، والتعليم، ورعاية الأطفال، ومشكلة اللاجئين. وعلى الرغم من أن دول الكتلة الشيوعية لم تشارك باستمرار في جميع هذه الأنشطة، إلا أنها شاركت في بعضها وكانت الآلية بمثابة حلقة وصل مفيدة بين البلدان الأكثر

ثراء والبلدان الفقيرة. أما المؤسسات المالية مثل: البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، التي صممت بشكل خاص لإعادة بناء نسيج الاقتصاد العالمي، فقد أثبتت أنها ذات قيمة محدودة ومتقطعة. عن كل هذه المنظمات العامة يمكن القول: إنها "أتقنت بلا شك ووسعت ما كان يسمى قديماً بتوافق الدول، وأن الأمر الأكثر أهمية... هو حقيقة أنها موجودة وأنها ستستمر في الوجود"[٤٣].

أما النوع الثاني من المنظمات الدولية فقد تطور بشكل عام فيما يتعلق بتحالفات الحرب الباردة وهكذا اتخذ نمطًا إقليميًّا. وكان الهيكل الأكثر وضوحًا هو الهيكل الدفاعي العسكري لمنظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو) أو نسخة الشرق الأقصى منها منظمة حلف جنوب شرق آسيا (السياتو). لم تكن (الناتو) على الرغم من اسمها إقليمية بشكل دقيق؛ لأنها غطت البحر الأبيض المتوسط بالإضافة إلى المحيط الأطلسي وضمت إيطاليا، واليونان، وتركيا، لكنها أهملت إسبانيا. وكان أعضاؤها الآخرون من البداية هم الولايات المتحدة، وكندا، والمملكة المتحدة، وفرنسا، وبينلوكس، والدانمارك، والنرويج، وأيسلاندا، والبرتغال. وقد جهزت نفسها بقوات عسكرية مجمَّعة تحت قيادة موحدة لكنها متعددة الجنسيات. وكانت قوتها النافذة السياسية المركزية هي مجلس شمال الأطلسي الذي يمثل جميع حكومات الدول الأعضاء. لم يكن هدفها إنشاء اتحاد سياسي، بل كان

٤٣ غونار ميردال، "ما وراء دولة الرفاهية" (١٩٦٠)، ص. ٢٠٥.

ببساطة العمل المنسق للدفاع ضد العدوان السوفيتي أو غيره من أشكال العدوان الشيوعي. وبعد سنوات من تضاؤل أهميتها، استعادت قوتها فجأة في عام ١٩٦٨ عندما أدى العدوان السوفيتي على تشيكوسلوفاكيا إلى إحياء المخاوف الغربية حول الأهداف السوفيتية في أوروبا. كانت درجة التوحد العسكري في (السياتو) أقل مما كانت عليه في (الناتو). فقد كانت دولها الأعضاء خمس قوى غير آسيوية (الولايات المتحدة، المملكة المتحدة، وفرنسا، وأستراليا، ونيوزلاندا) وثلاث دول آسيوية (الباكستان، والفلبين، وتايلاند): لكنها لم تضم دولًا مهمة داخل المنطقة مثل إندونيسيا وماليا.

في داخل أوروبا ظهرت مجموعات اقتصادية أكثر اندماجًا. عملت بلجيكا، ولوكسمبرغ، وهولندا، التي اجتمعت معًا منذ عام ١٩٤٤ فصاعدًا من خلال اتحادها الجمركي الوثيق، معًا بشكل متزايد بسياسة خارجية باسم "بينيلوكس" وشاركت كوحدة واحدة تقريبًا في المنظمات الغربية. وأصبحت منظمة التعاون الاقتصادي الأوروبي (OEEC) التي أنشئت في أبريل ١٩٤٨ كهيئة حكومية دولية تعمل على تنفيذ مخطط مساعدات مارشال، وسيلة قيمة للتعاون الاقتصادي الأوسع بين دول أوروبا الغربية. وامتدت عضويتها لتضم النمسا، وأيرلندا، والسويد، وسويسرا بالإضافة إلى الدول الأوروبية الأعضاء في (الناتو). واكتشفت طرقًا لزيادة الإنتاج وإمدادات الطاقة والكهرباء، وتدفق العلماء والمهندسين المتدربين على الصناعات الأوروبية.

وأنشأت المنظمة الأوروبية للفحم والصلب (ECSC) التي تأسست بمبادرة من روبرت شومان في عام ١٩٥٠، نمطًا جديدًا للتكامل الوثيق. وأنشأت هيئة عليا فوق وطنية التي ستكون قراراتها ملزمة لجميع أعضاء الهيئة فيما يتعلق بإنتاج وتوزيع الفحم والحديد والصلب. وقد أدخلتها فرنسا، وألمانيا الغربية، وإيطاليا، و"بينيلوكس" حيز التنفيذ في يوليو ١٩٥٢ لمدة خمسين عامًا. وفي روما في عام ١٩٥٧ أنشأت الدول الست نفسها المنظمة الاقتصادية الأوروبية (EEC) أو "السوق الأوروبية المشتركة" لجميع السلع، والمنظمة الأوروبية للطاقة الذرية (يوراتوم) لتنسيق الأبحاث الذرية ومشاريع الطاقة. في عام ١٩٥٩ بقية أعضاء منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OEEC) الذين فضلوا تدابير أكثر مرونة والتزامًا أقل بالاتحاد السياسي من المنظمة الاقتصادية الأوروبية (EEC)، أنشؤوا رابطة التجارة الحرة الأوروبية (EFTA) في عام ١٩٦٣، ومرة أخرى في عام ١٩٦٨ قامت المملكة المتحدة بمحاولة لإنهاء هذا الانقسام الاقتصادي في أوروبا من خلال التقدم بطلب للحصوص على عضوية في السوق الأوروبية المشتركة (EEC). وفي كل مناسبة كان الجنرال ديغول يستخدم حق النقض (الفيتو) ضد هذه المحاولة، الذي أضعفت وأعاقت مطالبُه من شركائه في السوق الأوروبية المشتركة (EEC) أكثرَ تطورِ هذه المنظمة.

في الوقت نفسه في أوروبا الشرقية أقيمت روابط مماثلة من أجل الدفاع

والتنمية الاقتصادية بين الاتحاد السوفيتي والدول الشيوعية في أوروبا. واتخذت الشيوعية الإقليمية مظهر مجلس المساعدات الاقتصادية المتبادلة في عام ١٩٤٩، ومنظمة معاهدة وارسو في عام ١٩٥٥، التي ضمت القوات المسلحة لألبانيا، وبلغاريا، وتشيكوسلوفاكيا، وألمانيا الشرقية، وهنغاريا، وبولندا ورومانيا والاتحاد السوفيتي. كان للحزب الشيوعي والجيش الأحمر ما يكفي من السيطرة على معظم هذه الأراضي لضمان تعاونٍ وثيقٍ بينها. في عام ١٩٥٠ وقع الاتحاد السوفيتي وجمهورية الصين الشعبية معاهدة صداقة وتحالف ومساعدات متبادلة التي سرعان ما أثبتت عدم أهميتها في مواجهة النزاع الإيديولوجي الشرس الذي اندلع في الستينات، وفي مواجهة "الثورة الثقافية" في الصين عام ١٩٦٥.

المجموعة الثالثة من المنظمات، المهتمة بشكل خاص بمشاكل التخلف الاقتصادي، كان بعضها ذا طابع عام وبعضها ذا طابع محلي. وكان تشجيع النمو الاقتصادي هدفًا رئيسيًّا لوكالات الأمم المتحدة مثل منظمة الأغذية والزراعة (FAO)، والبنك الدولي للإنشاء والتعمير، ومنظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) التي انبثقت في عام ١٩٦٠ من منظمة سابقة هي منظمة التعاون الاقتصادي الأوروبي (OEEC): وخطة كولومبو الخيالية لعام ١٩٥٢ لدول جنوب شرق آسيا. لقد تبنت دول فردية تطوير المناطق المهملة التي تقع ضمن نطاقها القضائي- وكان أبرزها ما قام به الفرنسيون

في الصحراء حيث كشفت التنمية المكثفة عن موارد نفطية ومعدنية غنية. وقد أنفقت الولايات المتحدة حوالي ٢,٥٠٠ مليون دولار في العام على وكالتها للتنمية الدولية (AID) في آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية.

إذن تم إقامة العلاقات الدولية من هذه الطبقات والأشكال المتعددة من التنظيم، التي كانت محيِّرة في تنوعها ومتغيِّرة في فعاليتها، لكنها بالإجمال ساهمت في بناء نسيج جديد للمجتمع العالمي. على المستوى الأمني والدبلوماسي، كان هناك ميل للهروب من جمود مجلس الأمن (الناجم عن استخدام حق الفيتو من قِبَل القوى الرئيسية) إلى وسائل "اجتماعات القمة" أو مشاورات وزراء الخارجية الأقل رسمية. كما لم تحقق المنظمات الوظيفية الكثير كما كان متوقعًا منها. لكن الشبكة الخرقاء للمنظمات المتداخلة أمام البحث المستمر أيَّدت وجهات النظر والمواقف العالمية، ونظرًا لعدم انفصال مشاكل العالم، كان هناك ميل متأصل لتوسيع التعاون الوظيفي إلى أنشطة متعددة الأغراض، ولتجاوز التجمعات الإقليمية مناطقها الجغرافية. ولأن العلاقات الدولية كان يدفعها للعمل الصراع الثنائي بين الشيوعية ومناهضة الشيوعية، وبين الصحوة الاستعمارية وضرورات النمو الاقتصادي، فإن إطار سلوكها الشامل والمرن كان ذا قيمة. ولم يكن الانهيار أو الجمود في مستوى ما يؤدي حتمًا على انهيار عام.

تقاطعت تجمعات نقابية أخرى مع هذه المنظمات أو تفوقت عليها. فمنظمة

الدول الأميركية، التي أعيد تنظيمها في بوغوتا في عام ١٩٤٨، كانت تجمُّعًا إقليميًّا عامًّا يضم إحدى وعشرين جمهورية أميركية. وكان لجامعة الدول العربية، التي تشكلت عام ١٩٤٥، أهدافٌ واسعةٌ، لكن كانت تطاردها الانقسامات الداخلية، التي تجمعها فقط أحقاد العرب المشتركة تجاه القوى الاستعمارية القديمة ودولة إسرائيل الجديدة. الكومنولث نفسه، الذي يمر بتحول عميق، يمتد عبر المحيط الأطلسي، والبحر الأبيض المتوسط، والمحيط الهادئ. وعلى الرغم من أنه خسر ثلاثة أعضاء هامين (بورما في عام ١٩٤٧، أيرلندا في عام ١٩٤٨، واتحاد جنوب إفريقيا في عام ١٩٦١)، إلا أنه اكتسب مرونة باستقلال الهند، والباكستان، وسيلان، ومالايا، وغانا، ونيجيريا والعديد من الدول التابعة الأخرى السابقة. وفي مناسبتي أزمة السويس عام ١٩٥٦ واستقلال اتحاد جنوب إفريقيا عام ١٩٦١، لعب زعماء الكومنولث دورًا حاسمًا. على الرغم من أنه لم يكن من الممكن تحقيق سياسة خارجية موحدة، وأن أزمات مثل الصراع بين الهند والباكستان، والحرب الأهلية في نيجيريا وإعلان روديسيا الاستقلال من جانب واحد، أدت إلى تقلص المثل العليا وممارسة وحدة الكومنولث، فقد تم تطوير العديد من أشكال التعاون الاجتماعي والثقافي بشكل مثمر. كان مؤتمر وزراء خارجية الكومنولث لعام ١٩٦٨ ذروة هذه المرحلة الجديدة.

كان عام ١٩٦١ علامة بارزة في تاريخ العالم. في ١٢ أبريل قام رائد

الفضاء الروسي يوري جاجارين بالدوران حول الأرض على متن سفينة فضائية وعاد بسلام. في ٥ مايو سافر القائد الأميركي آلان شيبرد ١١٥ ميلًا في الفضاء وعاد بسلام. ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا لم يعد من الكافي التفكير في مشاكل العالم أو العلاقات الدولية باعتبارها شاملة فقط. فقد أصبحت عالمية. فمع وجود الإنسان في الفضاء بدأ عصر جديد.

لقد افتتح بشكل مميز بمنافسة شديدة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. فقد بدأ سباق الفضاء في ٤ أكتوبر ١٩٥٧ عندما نجح الاتحاد السوفيتي في إرسال أول قمر صناعي للأرض (سبوتنيك) إلى المدار. وبحلول شهر أيلول عام ١٩٥٩ ضرب الروس القمر بصاروخ، وخلال عام ١٩٦٠ كل دولة منهما أعادت حيوانات بأمان من رحلات في الفضاء. بشكل عام احتفظ الروس بزمام القيادة، على الرغم من أن الأميركيين (بصحبة الكومنولث وأبحاث الفضاء الأوروبية) كانوا قريبين منه للغاية. كان هذا التنافس في الإنجاز العلمي مفضلًا أكثر من التنافس على صنع قنابل نووية أكبر، لكن طغى عليه كراهية ومخاوف القوى العظمى؛ لأن المبادرة في السفر إلى الفضاء تتضمن تفوقًا في العلوم وخاصة في مجال الصواريخ. كما أن المزيد والمزيد من البلدان التي تتراوح من اليابان إلى إسبانيا تضمنت حصصًا لأبحاث الفضاء في ميزانيتها الوطنية، كما حفز التنافس في مجال الصواريخ على تجميع المعرفة حول الكون، كما فعلت الأبحاث الكثيفة في

الطاقة النووية. ومهما كان الهدف، فإن النتيجة كانت تصعيد في تقدم المعرفة، وتعزيز للقوة المتاحة للإنسان كي يستخدمها في مجال الخير أو الشر.

فهل كان العالم في الستينات يتجه نحو الانقسام أو التكامل؟ إذا كانت هناك أي عبرة يمكن استخلاصها من تاريخ العالم بعد عام ١٩١٤ فهي أن الأحداث لم تَتَّبعْ أيَّ حركة حتمية، ونادرًا ما كانت تتبع نمطًا يمكن التكهن به. كانت هناك دلائل على أن الصدام بين الأضداد أجبر كليهما أن يصبحا أكثر تشابهًا. والنتيجة التراكمية للحرب الباردة، والثورة الاستعمارية، وانتصارات الديمقراطية ودولة الرفاهية، وتقدم العلوم، أدت إلى استيعاب جميع الشعوب بشكل أوثق في نمط الحياة الذي وضعته الحضارة الغربية. إن الدول ذات السيادة الوطنية، التي تَدَّعي أو تطمح إلى أن تكون دول رفاهية ديمقراطية، تهدف جميعها على حد سواء إلى تقرير المصير الذاتي، والنمو الاقتصادي من خلال التصنيع، ومزيج من الأمن الوطني والاجتماعي. لكن مثل هذا الاستيعاب لا يجب أن يؤدِي إلى قدر أكبر من الانسجام: في الواقع كما يشجع الصراع الاستيعاب، فإن التشابه قد يولد الصراع. لا أحد يستطيع أن يتحكم بالأحداث كما يريد. حتى الجهود الدولية المتضافرة قد يكون لها عواقب لا يتوقعها أحد. والأحداث غير المتوقعة -اغتيال الرئيس جون كيندي في عام ١٩٦٣ أو اغتيال شقيقه روبرت كيندي في عام ١٩٦٨- قد يخلق ظروفًا جديدة تمامًا في ليلة وضحاها.

بعد مرور عشرين عامًا على بداية الحرب البارة، أصبحت صورة الأعوام بين ١٩١٩ -١٩٣٩ باعتبارها قوسًا للسلام يمتد بين حربين عالميتين تبدو غير واقعية أكثر فأكثر. وتبدو الحرب كأنها حالة مزمنة للحياة في منتصف القرن العشرين أكثر مما توحي به تلك الصورة. لكن ما هي الصورة التي يجب أن تحل محلها؟ هل يجب أن نفكر بدلًا منها في التوترات المتكررة بين الأمم والأجناس التي تندلع بشكل متقطع بشكل حرب مفتوحة تختلف في معيارها ومداها، لكنها لا تختلف في نوعها عن الحربين العالميتين؟ أو هل يجب أن نفكر بشكل أكثر تفاؤلًا بجهود الناس الطويلة لتأسيس نظام أكثر ملائمة لأنفسهم، ذلك الجهد الذي يحقق تقدمًا غير منتظم على الرغم من الانهيارات العرضية في الفوضى؟ أو هل يجب أن نتصور عالمًا تجاوزت فيه الدولة-الأمة التي كانت مهيمنة ذات يوم أوجها التاريخي وأفسحت المجال إما لديكتاتورية البروليتاريا (كما يدَّعي بعض الماركسيين)، أو للصراعات العنصرية (كما قد تشير الأحداث في الولايات المتحدة وإفريقيا)، أو للبِنَى فوق الوطنية المختلفة (كما يعلن الفيدراليون الحماسيون)؟

إن الموقف الذي تستدعيه دراسة التاريخ الحديث، على الرغم من الإنجازات الرائعة للبشرية والإمكانات الأكثر روعة، يجب ألا يكون فخرًا بل خزيًا. فمن النادر تاريخيًا أن يستخلص الناس من الأحداث الكبيرة الفوائد التي يأملون بها فقط. إن الحالات الصعبة الأكثر إرباكًا للبشرية

يتم حلها من خلال ضغط الأحداث والحوادث غير المتوقعة التي تفرض تنازلات ممانعة على كلا الجانبين أكثر من برامج العمل الأكثر براعة للخبراء أو الأنبياء.

ملاحظة مرجعية

تذكر الملاحظة التالية حوالي خمسين كتابًا سيجدها طلاب تاريخ العالم في القرن الحالي مفيدة. لم يتم القيام بأي محاولة لوضع قائمة بالكتب التي تتناول التاريخ الداخلي المنفصل للدول المختلفة، على الرغم من أن العديد منها يحتوي على مواد قيمة وذات صلة. تم إهمال الكتب المكتوبة بلغات أخرى غير الإنكليزية مهما كانت ذات صلة أو قيمة ما لم تكن هناك ترجمة لها باللغة الإنكليزية. طوال الوقت، لا غنى عن أطلس جيد للعالم.

أ) فكرة عامة:

العديد من الأعمال التي تغطي معظم هذه الفترة بطريقة شاملة تفعل ذلك بالانتقال من بلد إلى آخر، وبالتالي تهمل التفاعل المتبادل المستمر الذي يقترح هذا الكتاب بأنه "جوهر تاريخ العالم". لكن الاستخدام العام هو إف بي شامبر، وسي بي هاريس، وسي سي بيلي: "عصر الصراع هذا": "تاريخ العالم المعاصر من ١٩١٤ إلى الوقت الحاضر" (لندن ونيويورك، النسخة الثالثة، ١٩٦٠) أو دي سي واط، إف سبينسر، و إن براون "تاريخ العالم من القرن العشرين" (لندن ١٩٦٧).

يميل التاريخ الأوروبي لأَنْ يقدم بطريقة أفضل من تاريخ القارات

الأخرى، كما أن تداعياته موضع تقدير الأعمال الحديثة: مثل دافيد تومسون "أوروبا منذ عهد نابليون" (لندن ونيويورك، مراجعة الطبعة، ١٩٦٢) وإتش ستورات هاغز: "أوروبا المعاصرة: تاريخ (نيوجرسي ولندن، ١٩٦١).

فيما يتعلق بالقضايا الأساسية للنمو السكاني هناك دراسة كلاسيكية لـ أي إم كارسوندر: "سكان العالم": "النمو السابق والاتجاهات الحالية" (لندن ونيويورك، النسخة الجديدة، ١٩٦٤)، ومناقشة جيدة لاتجاهات منتصف القرن في أي سوفي: "الخصوبة والبقاء": "المشاكل السكانية من مالتوس إلى ماو تسي تونغ (لندن ١٩٦١، من الفرنسية {باريس ١٩٥٨} من مالتوس إلى ماو تسي تونغ)

تمت مناقشة الاقتصادية العالمية في كتاب دبليو آشورث: "التاريخ القصير للاقتصاد الدولي ١٨٥٠-١٩٦٠" (لندن ونيويورك، الطبعة الثانية، ١٩٦٢)، دبليو أي لويس "نظرية النمو الاقتصادي" (لندن ونيويورك، ١٩٥٥)، غونار ميردال: "ما وراء دولة الرفاهية" (لندن ونيويورك، ١٩٦٠)، برايان تيو: "التعاون النقدي الدولي ١٩٤٥-١٩٦٣" (لندن، ١٩٦٣)

تمت مناقشة الجوانب الدبلوماسية وسياسة القوة لهذه الفترة من قبل آر آرون: "قرن الحرب الشاملة" (لندن، ١٩٥٤، نيويورك ١٩٥٥، ومن الفرنسية {باريس ١٩٥١} "حرور السلسلة")، أي اتش كار: "أزمة العشرين عامًا ١٩١٩-١٩٣٩"، "مقدمة في دراسة العلاقات الدولية" (لندن، طبعة

المراجعة ١٩٤٦)، دبليو إتش مكنيل: "أميركا، بريطانيا وروسيا: تعاونهم وصراعهم ١٩٤١-١٩٤٦" (لندن، ١٩٥٣)، جي إف كينان: "روسيا والذرة والغرب" (لندن ونيويورك، ١٩٥٨)، و إتش سيتون واتسون: "لا حرب ولا سلام: الصراع على السلطة في عالم ما بعد الحرب" (لندن ونيويورك، ١٩٦٠).

يمكن دراسة القوى السياسية العاملة في العالم الحديث في أعمال مثل أي. كوبان: "تقرير المصير الوطني" (لندن، ١٩٤٥)، إف. إتش. هينسلي: "السلطة العليا" (لندن، ١٩٦٦)، دي. تومسون: "المساواة" (كامبريدج ١٩٤٩)، آر إن كارو هانت: (النظرية الشيوعية وممارستها" (لندن ونيويورك، مراجعة، طبعة غلاف ورقي، ١٩٦٣)،

في هذه المجلدات من المصادر الوثائقية مثل أي. بي. جريمز و آر. أتش هورويتز: "الأيديولوجيات السياسية الحديثة" (نيويورك، ١٩٥٩)، أتش سيتون واتسون "نمط الثورة الشيوعية: تحليل تاريخي" (لندن طبعة مراجعة، ١٩٦١)، وفي الدراسات الإقليمية الأكثر تخصصًا المدرجة أدناه.

يمكن تتبع تاريخ المنظمة العالمية للعلاقات الدولية في د. تومسون، أي. ميار وآ. بريجز: "أنماط صناعة السلام" (لندن، ١٩٤٥) وفي أشكالها في فترة ما بين الحربين في إف. بي. والترز: "تاريخ عصبة الأمم" (لندن ونيويورك، ١٩٥٢)، وفي شكلها في فترة ما بعد الحرب في أتش. جي. نيكولاس: "الأمم

المتحدة كمؤسسة سياسية" (لندن ونيويورك، الطبعة الثالثة، ١٩٦٧)، تمت دراسة المزيد من المنظمات المتخصصة في سي. أتش اليكسانروفيتش: "المنظمات الاقتصادية الدولية" (لندن، ١٩٥٢)، اتش. ايل. ماسون: "المنظمة الأوروبية للفحم والصلب: تجربة في فوق الوطنية" (لندن، ١٩٥٥)، تجي. هوكسلي: "اليونسكو: أهدافها وفلسفتها" (لندن ١٩٤٧، ونيويورك ١٩٤٨)، ميريام كامبس: "التوحيد الأوروبي في الستينات" (نيويورك ١٩٦٦، لندن ١٩٦٧).

بين الأنواع الأكثر تقليدية للتاريخ المسرود هناك أمثلة ممتازة مثل جي. إم. جاثورن هاردي: "التاريخ القصير للشؤون الدولية ١٩٢٠-١٩٣٩" (لندن ونيويورك، الطبعة الرابعة ١٩٥٠)، سي. آر. إم. إف. كرتويل: "تاريخ الحرب الكبرى ١٩١٤-١٩١٨" (أكسفورد ونيويورك، الطبعة الثانية، ١٩٣٦)، سيريل فولز: "الحرب العالمية الثانية: تاريخ قصير" (لندن ١٩٤٨)، دبليو ناب: "تاريخ في الحرب والسلم ١٩٣٩-١٩٦٥" (لندن، نيويورك، تورنتو، ١٩٦٧)،

يُعد "دراسة للشؤون الدولية" الذي أصدره المعهد الملكي للشؤون الدولية في لندن بمثابة مَنجم للمعلومات، كما في المجلد السادس لعمل اليونسكو "تاريخ البشرية: التطور الثقافي والعلمي" (كاولين إف. وير، كي. إم بانيكار، جي، إم رومين، لندن ١٩٦٦).

ب) إقليمي:

تمت دراسة السياسات الأوروبية الغربية بطريقة حديثة من قبل: إم. اينودي، جي. ام. دوميناش، أ جاروسكي: "الشيوعية في أوروبا الغربية" (نيويورك ١٩٥١)، إم. اينودي و اف. جوجويل: "الديمقراطية المسيحية في إيطاليا وفرنسا" (نيويورك ١٩٥٢)، والاتجاهات الشرقية من قبل: اتش. جي. وانكلين: "مارشلاند الشرقية من أوروبا" (لندن، ١٩٤١)، اتش سيتون واتسون: "أوروبا الشرقية بين الحربين ١٩١٨-١٩٤١" (كامبريدج ١٩٤٥، نيويورك، الطبعة الثالثة ١٩٦٣)، أم. كاسير: "الكومكون: مشاكل التكامل في الاقتصادات المخططة" (لندن ونيويورك، ١٩٦٥) للحصول على وجهة نظر إقليمية مختلفة انظر: أي. مونرو: " البحر الأبيض المتوسط في السياسة" (لندن، الطبعة الثانية، ١٩٣٩) وللحصول على الاتجاهات الاقتصادية منذ عام ١٩٤٥ انظر: أم. أم بوستان: " التاريخ الاقتصادي لأوروبا الغربية ١٩٤٥-١٩٦٤" (لندن ونيويورك، ١٩٦٧).

يمكن الحصول على نظرة ثاقبة حول الشرق الأوسط في ثلاثة كتب: دي. وارنر: "إصلاح الأراضي والتنمية في الشرق الأوسط" (لندن ونيويورك، الطبعة الثانية، ١٩٦٢)، دبليو زد لاكور: "الشيوعية والقومية في الشرق الأوسط" (لندن، ١٩٥٦)، اف. جابريلي: "النهضة العربية" (لندن، ١٩٦١). عن التطور الإفريقي بشكل عام انظر: تي. هودجكين: "القومية في إفريقيا

المستعمرة" (لندن ونيويورك، الطبعة الثانية، ١٩٥٧)، جي. كاميرون: "الثورة الإفريقية" (لندن ونيويورك، ١٩٦١)، جي. هاتش: "تاريخ إفريقيا بعد الحرب" (لندن ونيويورك، ١٩٦٥).

كدليلين عبر متاهة سياسة أميركا اللاتينية، ينصح بكتابين: آر. أ هامفريز: "تطور أميركا اللاتينية الحديثة" (أكسفورد، ١٩٤٦)، دي. أم. دوزر: "أميركا اللاتينية، تاريخ تفسيري" (نيويورك، ١٩٦٢). هناك دراسة خاصة أجراها آر. اليكسندر "الشيوعية في أميركا اللاتينية" (روتجرز، الولايات المتحدة الأميركية، ١٩٥٧).

عن آسيا ومشاكل الشرق الأقصى يجب أن يكون الاختيار أكثر اعتباطية: يمكن العثور على حكمة ومعلومات قيمة في: كي. أم. بانيكار: "آسيا والهيمنة الغربية" (لندن ونيويورك، الطبعة الثانية، ١٩٥٩)، دبليو مكماهون بول: "القومية والشيوعية في شرق آسيا" (ميلبورن، ١٩٥٦)، بيرسيفال سبير: "الهند والباكستان والغرب" (أكسفورد ونيويورك، الطبعة الرابعة، ١٩٦٧، أف. بينهام: "خطة كولومبو" (لندن ونيويورك، ١٩٥٦). عن قوى الشرق الأقصى انظر: جي. آر، ستوري: "الصين والسلام في آسيا" (لندن ونيويورك، ١٩٦٥)، فيكتور بورسيل: "الصين" (لندن ونيويورك، ١٩٦٢)، والعمل الأول للمؤلف الأخير "الصينيون في جنوب شرق آسيا" (لندن ونيويورك، الطبعة الثانية، ١٩٦٥).

تم تناول العلاقات بين التجمعات الإقليمية الرئيسية للدول بعد الحرب العالمية الثانية من وجهة نظر جغرافية من قبل: جي. بي. كول: "جغرافية الشؤون العالمية" (لندن ونيويورك، الطبعة الثانية، ١٩٦٣) وسياسيًّا من قبل جي. كونيل سميث: "شكل العالم ما بعد الحرب" (لندن، ١٩٥٧).

الفهرس

مقدمة: ما هو "تاريخ العالم"؟..... ١٠

- مشهد العالم في عام ١٩١٤:.....٢٢

١) الوضع السياسي.

٢) المشهد الاقتصادي.

٣) الخلفية الثقافية.

- الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨:.....٧١

١) مسائل متعلقة.

٢) خدمة مارس.

٣) تسوية ما بعد الحرب.

٤) التداعيات الاجتماعية.

- العقد ما بعد الحرب ١٩١٩-١٩٢٩:.....١١٠

١) انقسام في النظام الاجتماعي.

٢) المنظمة الدولية.

٣) الأزمة الاقتصادية.

٤) الانحلال الثقافي بين الحربين.

- العقد ما قبل الحرب ١٩٢٩-١٩٣٩:.....١٥٠

١) دول الحزب الواحد.

٢) اندماج القومية والاشتراكية.

٣) التعاون الدولي.

- الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥:.....١٩٠

١) مسائل متعلقة.

٢) عبء الحرب.

٣) توازن جديد للقوى.

- العالم الحديث ١٩٤٥-١٩٦٨:.....٢٢٩

١) الاقتصاد العالمي.

٢) انتشار الرفاهية.

٣) الثورة الاستعمارية.

٤) المنظمات العالمية.

ملاحظة مرجعية.....٢٦٤